

بلال فضل

فندق الرجال المنسّين

حكايات



فندق الرجال المنسيين

حكايات عن وجوه ومطاح

بلال فضل

إهداء

إلى الصديقة الغالية

أمي الحبيبة: ماجدة السيد إبراهيم

لعل بعض هذه الحكايات يمتعك، فتقولين أجمل ما تقولينه

حين ترضين عني:

"يخرب عقلك ده انت مصيبة".

ولعل بعضها يكون أقل من توقعاتك، فتقولين أجمل ما

تقولينه حين أخذك:

"ربنا يصلح حالك ويسترها معاك دنيا وآخره".

- "ليس لدي غير قصة أستطيع تقديمها لك، إذا لعنت الدنيا لمجيئك إليها ذات يوم ولم أكن بجانبك يومها، اعلمي أن لديك قصة، لأن الناس لا يتركون وراءهم غير القصص، تعلمت هذا لكثرة ما رأيت موت أناس رائعين، مهما فعلنا لن نترك وراءنا غير قصة، حين نرويها تبدو كذبة كأنها لم تقع أبداً"

الروائية التركية أجة تمل قوران من رواية (أصوات الموز) -
ترجمة عبد القادر عبد الله

...

- "يقولون إن الإنسان يحتاج فقط إلى مساحة سبعة أقدام من الأرض لكي يحيا. لا، الجثة هي التي تحتاج إلى هذه المساحة من الأرض، الإنسان يحتاج إلى العالم بأكمله لكي يحيا"

الكاتب الروسي أنطون تشيخوف

...

- "لقد قال أحدهم ذات مرة إن القصص تحدث لأولئك الذين يستطيعون روايتها فقط، وربما بالطريقة نفسها فإن التجارب لا تقدم نفسها إلا لأولئك الذين يمكنهم تملك ناصيتها فقط"

الروائي الأمريكي بول أوستر من (ثلاثية نيويورك) ترجمة
كامل يوسف حسين

السيدة ليق وما فعلته بالراهب المتعبد!

لا الدواء الذي حلّ موعده، ولا الفيلم الذي اقترب عرضه،
ينفعان على معدة فاضية، والسينما الصغيرة - التي تتبع مركز
لينكولن الذي ينظم مهرجان نيويورك السينمائي - رأت إدارتها
أن تقديم شرائح البيتزا وسندوتشات الهوت دوج سيقبل من
مستواها الرفيع ويجعلها مثل باقي سينمات نيويورك العادية،
فاكتفت بتقديم الفشار والمقرمشات التي تُسمن ولا تغني من
جوع.

كنا يومها في خريف 2012 وكنت ذاهباً للغداء لدى أصدقاء
يسكنون قرب مركز لينكولن، وحين رأيت أفيش الفيلم
على لوحة إعلانات المركز، وتذكرت ما كنت قد قرأته عنه
من مديح نقدي، ثم عرفت أنه سيُعرض بعد ساعة بحضور
مخرجه، توجهت فوراً إلى شباك التذاكر، وما إن وجدت
تذكرة متاحة حتى اتصلت بالأصدقاء طالباً تحويل الغداء
إلى عشاء، متحجباً بظروف طارئة.

لم تكن المنطقة المحيطة بالسينما مليئة بخيارات الأكل
السريع الآمن، فاشتريت "سندوتشين فلافل وشاورمة"
من عربة تقف على ناصية شارع المركز، كان عاملها كالعادة
مصرياً، من قرية تابعة لمركز قليوب بمحافظة القليوبية
كثير من العاملين على عربات الطعام الحلال في شوارع
نيويورك، لكن ذوقه الغنائي كان مختلفاً عن غالبية أقرانه
الذين يسايرون بالنهار أحدث صرعات الموضة الغنائية

الرائجة في مصر، ويخصصون فترتي المساء والسهرة لأم كلثوم، وفترة الصباح الباكر للقرآن الكريم والتواشيح، أما صاحبنا فقد كان يستمع في منتصف النهار إلى الجميل المنسي عمر فتحي ويغني معه بمزاج يوحي طول العشرة مع أغانيه. منعني ضيق الوقت من سؤاله بالتفصيل عن ملابسات ذلك الاختيار المتفرد، فعزمت أن أعود إليه ثانية، وحين مررت على العربية أكثر من مرة بعد ذلك، لم أجده، لا هو ولا عمر فتحي، حتى بث أظن أنني تخيلت وجوده.

في ركن مجاور للسلام الطويلة المؤدية إلى السينما، جلست لأكل وأنا في غاية "الصربعة" لألحق بموعد الفيلم، لا آخذ وقتي في مضغ الشاورمة، بل أزلط وأنا أترحم على أيام سينما الكورسال في بولاق أبو العلا التي كنت أدخلها في ليالي الشتاء البضينة بعلبة شوربة عدس وطلب مكرونة باشاميل و"شوية برتقان أو يوستفندي"، وسينما الفانتازيو الصيفي في ميدان الجيزة التي كنت أختصها بسندوتشات الكبد والسجق و"شوية جوافة بناتي أو كمثرى خشابي" حسب المزاج.

قبل أن أشتبك مع سندوتش الفلافل، اقترب مني رجل عجوز يتأبط سيدة جميلة، لولا بعض التجاعيد في وجهها ويديها لما أدركت أنها ربما كانت فوق الستين، سألتني الرجل عن مكان السينما التي كان لا بد أن تمشي قليلاً لتصل إليها بعد صعود السلام الطويلة، أشرت إلى اتجاه السينما، أشرق وجه السيدة الشقراء بابتسامة وهي تنبهنني إلى "تهطيل"

الطحينة على لحيتي وقميصي، تبادلنا التحية والابتسام قبل أن يتجها نحو السينما مسرعين، وسرعتهمما نبهتني فنظرت إلى الساعة واخترت أن أعتق بقية السندوتش، مسرعاً إلى دورة المياه لأخذ جرعة دوائي وإزالة آثار الطحينة، وللحاق بالفيلم من أوله.

في الموعد المحدد ظهر أحد منظمي المهرجان على المسرح، وقال إن هناك مفاجأة سارة بانتظارنا لو كان مسئولو المهرجان يتوقعونها لأعلنوا عنها مسبقاً على أوسع نطاق، ولتم عرض الفيلم في أكبر قاعات العرض التابعة للمركز، لكنها مثل كل المفاجآت السعيدة جاءت في آخر لحظة، طالباً من الجميع الترحيب بالممثلة العالمية الرائعة ليق أولمان، والتي كنا على وشك مشاهدة العرض الأول لفيلم تسجيلي بعنوان (ليق وإنجمار)، يحكي قصة العلاقة الفنية والعاطفية التي ربطتها بالمخرج العالمي الشهير إنجمار برجمان.

حين دخلت السيدة ليق إلى المسرح منحنية للصالة التي ارتجت بتصفيق حارٍ محبٍ، اتضح أنها ذاتها الجميلة التي نبهتني إلى تهطيلي الطحينة على روعي، والتي لم أشك للحظة في كونها ليق أولمان بجلالة قدرها، لأنهم أعلنوا عن حضور المخرج فقط، وأظن أنني حتى لو عرفت بحضورها، لما تصورت أن تلك النجمة التي صورت بعض أفلامها مع برجمان بالأبيض والأسود قبل حوالي خمسين عاماً، ستظل متألفة بذلك الشكل الذي لا بد أن يثير شجون أناس مثلي،

بهذلوا أجسادهم فمرّطهم الزمان.

كانت صورة ليق الأكثر حضوراً في ذاكرتي، مأخوذة من فيلم برجمان (سوناتا الخريف)، اختارتها دار المدى كصورة غلاف النسخة العربية من سيرتها الذاتية (أتغير)، أحد كتبي المفضلة والملهمة، والذي أدين له بالكثير، لأنه كان عاصماً من القواصم النفسية في فترة عصيبة من حياتي لم أكن قد تصالحت فيها مع متاعب غياب اليقين ودوام القلق، ولم أكن قد أدركت بعد ما تحدثت عنه ليق أولمان في كتابها عن أهمية التوقف عن الإيمان بوجود السعادة الدائمة، وضرورة التعايش مع الإحساس بالذنب والندم على أخطائك، وحتمية البحث الدائم عن الهدوء والسكينة "لعلك تتمكن من الإنصات إلى ما يجري داخلك دون أي مؤثرات دخيلة"، وقبل كل ذلك وبعده القتال من أجل الحب في حرب مصيرية تعلم أن مكاسبها لن تدوم، وأن خسائرها أيضاً لن تدوم إلا إذا أردت لها أن تدوم، أو كما جاء في الأثر: "و أهو من ده وده، الحب كده".



ليف أولمن

أَتَغِير

مذكرات

ترجمة : اسامة منزجي

كان فيلم (ليق وإنجمار) عند حسن ظني به وأكثر، ولم تكن قصة صنعه نفسه تقبل جمالاً عنه، فمخرجه الهندي الشاب ديراج أكولكار، خريج هندسة العمارة الذي عمل لسنوات في الأفلام التجارية الهندية، كان قد عثر على كتاب (أتغير) بالصدفة في مكتبة أستاذ له عام 2006، وكان تأثير الكتاب

عليه مزلزلاً. بعد قراءة الكتاب بعام كان قد سافر إلى لندن لدراسة السينما، ليعرف هناك بخبر وفاة برجمان، وحين لم يجد في الصحافة الإنجليزية أي تصريحات منسوبة إلى ليق عنه، أدرك أنها لن تضيف إلى ما قالته في كتابها، وتملكه الحلم بأن يحول ما كتبه إلى صورة سينمائية، فوجد نفسه يكتب قصيدة عنها وعن برجمان وعن نفسه أيضاً، وبمساعدة صديقة له حصل على عنوان ليق في النرويج، وأرسل إليها القصيدة مصحوبة برسالة بها فكرة الفيلم كما يحلم به، ليفاجأ بأنها تتصل به بعد أشهر متأثرة جداً بما كتبه، وتعهده بأنها ستكسر صمتها وتمنحه مقابلة مصورة لو وجد فرصة لتمويل المشروع.

حين ذهب ديراج إلى أبرز منتجي السويد بلد برجمان، وجد من الجميع رفضاً غير مفهوم للفكرة، وبعد فترة عثر على جهة إنتاج في النرويج بلد ليق أولمان، لكنه فوجئ بأنها لم تعد راغبة في المشاركة في الفيلم، فلم ييأس من موقفها، وأصر على اللقاء بها، ولأنها توقعت من تجربتها السابقة معه أنه لن ييأس بسهولة، وافقت على لقائه، وحين طلبت منه أن يخبرها لماذا يرغب بشدة في عمل فيلم كهذا، شرح لها في خمس دقائق فقط إنه لا يرغب في صنع فيلم عن شخصها هي وبرجمان، بل يرغب في صنع فيلم يخصه عن معاني الحب والزمن والصداقة كما يفهمها، وبعد أن أنهى حديثه أمسكت بيده وقالت له بابتسامة لم ينسها أبداً: "سأشارك في الفيلم، لكنه سيكون فيلمك أنت وحدك، تفعل به ما تشاء،

فقط سأضع بنداً في العقد، يضمن لي حق دعوة الجميع لعدم مشاهدة الفيلم إذا لم يعجبني".



سافر ديراج بصحبته إلى الجزيرة السويدية، التي ولدت فيها قصة حبها مع برجمان فور مجيئها من وطنها، لتشارك في بطولة (Persona) فيلمها الأول مع برجمان. حكّت ليق له كيف ترك كلّ منهما زواجه، وارتبطا ببعضهما فنياً وإنسانياً، وكيف كانت خائفة لأنها كانت أصغر منه بحوالي عشرين سنة، لكنها كانت مغمورة بمشاعر حبه الفياض، وأنها لا تنسى أبداً كيف قال لها: "منذ أن رأيتك أصبحت في كل مكان"، وحين تتأمل بداية علاقتهما بعد كل تلك السنين تقول إنها كانت تبحث عن الأمان المطلق والحماية والانتماء، أما هو فكان يفتش عن الأم وعن ذراعين دافئتين مُشرعتين لاستقباله بدون تعقيدات.



بعد فترة وجيزة من الارتباط أنجبت له ابنتهما لين، وعاشا معاً في جزيرته الشهيرة التي حاولت أن تحبها بطريقته، لكنها فشلت برغم محاولتها التغلب على مشاعر العزلة التي كانت تداهما كلما تركها طويلاً ليغرق في كتابة أفكاره ومطاردة أحلامه، لتدرك بعد وقت قصير خطورة ما كان

يرويه في أفلامه عن الشر الوجودي المغوي الذي لا يمكن تفسيره، وتجد نفسها مواجهة بتصاعد غيرته وعنفه. لم يكن عنفه جسدياً بالضرورة، لكن هذا الفنان المرهف المفكر كان يستطيع قول أشياء مؤلمة تبقى للأبد، ولذلك شعرت بالرعب حين أدركت خطورة غضبه الموجه ضدها، والذي بدأ يظهر حين يوجهها كمخرج خلال تصوير مشاهد صعبة وخطيرة، كمشهد يأمرها فيه أن تقترب أكثر من اللازم من نار مشتعلة، أو مشهد يتم تصويره داخل قارب في عرض المحيط، لكنه يجبرها فيه ألا ترتدي ملابس ثقيلة في جو مميت البرودة، وبعد أن فقدت قدرتها على تحمل تعذيبه، اتفقا على الانفصال، ورحلت بصحبة طفلتها ذات الرابعة، لتجرب بعدها ألماً جارحاً وحزيناً، ألم أن تترك، وهو الألم الذي غير ما بداخلها للأبد.

فيما بعد أرسل إنجمار إليها قائلاً إن الانفصال كان ضرورياً، لكيلا يشعلا النار في بعضهما البعض. قال أيضاً إنه لا زال يحبها، وإنه يثق في قدرتهما على إيجاد طريقة للحياة "قريباً من بعض"، لكنها لم تترك نفسها رهينة الانتظار، وقررت أن تحاول تجاوزه، وألا تعيش محتفظة بالشعور بالمرارة داخلها، ولم يكن تحقيق ذلك سهلاً. كانت تشرب حتى الثمالة، وتتصل به فجأة وتقول أشياء سيئة للغاية، وحين تفيق في اليوم التالي تتصل به لتقول ضاحكة: يجب أن تكون سعيدة لأنني لم أتصل بك أمس فقد كنت غاضبة جداً، فيقول ضاحكاً: لقد اتصلت بي فعلاً، وشيئاً فشيئاً بنى الاثنان جسراً ما بينهما،

فأصبح كل شيء أفضل من ذي قبل، وهو ما جعلها تتخذ قرار العودة للعمل معه ثانية، مع أنها ذهبت إلى العمل في استوديوهات هوليوود وعلى خشبات مسارح برودواي، وحققت نجاحات كبيرة هناك، لكنها وبرغم جراحها لم تستطع إنكار قيمته الفنية، ولذلك ظلت تعتبر أن أفضل إنجاز مهني حققته، حين قال لها إنجمار إنها ممثله المفضلة.

قرأت ليق على مشاهدي الفيلم بعضاً من أجمل رسائل برجمان لها، قرأت أيضاً مقتطفات مما كتبه عن رحلتها الطويلة، أجلسنا في أماكنهما المفضلة، ولامست بأناملها العلامات التي كان يرسمها خلف باب غرفة نومه ليسجل الأيام التي عاشها سعداء سوياً، حكّت لنا عن وقائع اليوم الذي أدركت فيه أنه سيغادر الحياة، ليكمل رحلته في مكان آخر في الكون، نظرت إلى الكاميرا وقالت: "أؤمن دائماً أنه معي، بدليل أنني حين أقول الآن شيئاً سخيلاً عنه، ها هو يرسل الذباب ليقتحم الكادر ويفسد التصوير".

حين أنهت ليق حكاية قصتها مع إنجمار، وصل الفيلم بالصدفة إلى ذروته التي منحته بصمة فريدة، حدث ذلك حين أمسكت متأثرة بدبدوب صغير، كان إنجمار يحتفظ به منذ طفولته، وكانت قد رآته على فراش الموت ممسكاً به، لتلاحظ وجود ورقة مطوية داخل "سلوبيث" الدبدوب، وحين فتحت الورقة، فوجئت أنها رسالة كانت قد أرسلتها إليه في أيامه الأخيرة، لتنهمر دموعها وهي تقرأ الرسالة أمام الكاميرا: "عزيزي إنجمار - كانت وحدها التي تدعوه هكذا - يمكن أن

يجرب أناس كثيرون ما أعطاه لي لقائي بك في الحياة، إنها 34 سنة منذ أن جلسنا هنا، وقلت لي يومها نحن مرتبطان سويا بشكل مؤلم، نعم، يا له من ارتباط مليء بالنعم، شكرا لك، أنا مرتبطة بك بشكل مذهل، ليق"، لينتهي الفيلم على وقع تلك اللحظة التي كُفّت مسيرة إنسانية وفنية حافلة ومدهشة.

خلال الندوة التي أعقبت الفيلم، رفعت يدي مراراً للمشاركة بتعليق دون أن يستجيب منظم الندوة، نظرت ليق إلي مبتسمة، وقالت له مشيرة إلي: "أرجو أن تسمح له بالسؤال الأخير فلولاها لما عرفت مكان السينما". وحين أعطاني الكلمة أخذت أحاول مغالبة حماسي لكي أتقن توصيل ما سأقول بإنجليزية واضحة، عزفتها بنفسي وحدثتها عن تأثير كتابها الجميل علي، وعن اختياري لمقتطف منه يتحدث عن علاقتها بالكتب، لكي يتصدر كتاباً عن علاقتي بالكتب، فتأثرت بما قلته، وعلقت مبتهجة: "حين يصل تأثير كتابي إلى شابين من الهند ومصر، ماذا يمكن أن أطلب ككاتبة أكثر من ذلك؟"، واصلت كلامي وقلت إنني سعيد لأن الفيلم عكس صدق التزامها بفكرة التغيير التي اتخذتها عنواناً لكتابها، ولذلك رأينا كيف تصالحت أكثر مع برجمان، لتصل صداقتهما في سنواته الأخيرة إلى أجمل ذراها، بينما كانت لا تزال غاضبة منه حين كتبت الكتاب، حتى أنها أحياناً لا تذكر اسمه بل تدعوه "والد ابنتي لين"، ثم قلت إنني أتوق لمعرفة ما الذي يمكن أن تضيفه الآن إلى الكتاب مما تعلمته خلال السنين التي أعقبت

صدوره، لم تفكر طويلاً، وقالت بحماس: سأضيف كلمتين فقط أعتبرهما أهم ما تعلمته في الحياة: "let go"، وحين صفقت القاعة، سارعت إلى أوراقي لأكتب ترجمتي لما قالته، مفضلاً اختصار عبارتها الأخيرة إلى كلمة واحدة: "عذوها".

بعد أن انتهت الندوة، تواصل لطف السيدة ليق معنا حين تحلق بعضنا حولها، متجاهلين رجاء المنظمين لنا بأن نخلي القاعة فوراً ليبدأ فيلم آخر. كان أول من أخذ مبادرة التوجه نحوها قسيس أشيب الشعر كان يرتجف بشكل ملفت فور اقترابه منها، وحين سلّمث عليه بلطف بالغ، تشجع قائلاً لها بتأثر حاول إخفاءه بالضحك إنه دخل سلك الرهينة فقط حين أدرك استحالة اللقاء بها في الواقع، تأثر بما قاله ثم قالت ضاحكة: "للأسف تأخر الوقت لتصحيح خطأ كهذا". ضحكنا، في حين بدا أن الرجل على وشك أن يقضي نحيبه بفعل جرعة زائدة من النشوة، وهي كادت تجهز عليه حين قالت له برقة: "هل تسمح لي باحتضانك؟"، فصدرت عن الرجل غمغمات غير مفهومة اعتبرتها ليق إذناً لها بأن تحيطه بذراعيها بمودة غامرة.

كنت ممن نجحوا في منع أنفسهم من البكاء، لم يوفق آخرون في ذلك، ولعلّ تماسكي جعل القسيس العاشق يحسن الظن بي، ليهتف قائلاً: "أرجوك هل يمكن أن تلتقط صورة لنا؟"، قلت له: "طبعاً طبعاً هات موبايلك"، ليفاجئني بقوله: "ليس لدي موبايل"، قلت متعجباً: "كيف سأرسل لك الصورة إذن؟"، ولن ألومك لو لم تصدق أنه قال بهدوء عجيب: "المهم

أن يحتفظ أحد، أي أحد، بهذه اللحظة"، لتأتي إجابته العفوية صاعقة ومربكة بشكل دفعت ثمنه الصورة المزرية التي التقطتها للحظتهما الرائعة.



قبل أن أحصل على فرصة لتجويد الصورة، بتشغيل الفلاش الذي كان ضرورياً في ذلك الركن المظلم من القاعة، جاءنا صوت رجل أمن حازم يطلب منا ترك القاعة فوراً، ولأن أوبشن "السيلفي" لم يكن قد أصبح متاحاً بعد في الموبايلات، ولأن القسيس كان الأقرب لي وقتها، فقد مددت يدي إليه بهاتفني، طالباً منه أن يصورني مع ليق قبل أن تغادر القاعة، وقد كان ذلك قراراً خاطئاً كما ستري، لكنني لم أقم بلومه حين رأيت الصورة الأكثر اهتزازاً ورداءة من صورتي، ليس فقط لأنه اختفى تماماً، وكأنه رُفِع إلى السماء بعد أن نال ما تمنى، بل لأنه لم يكن ليليق أن تطلب من عاشق قديم

أن يلتقط لك صورة مع محبوبته، ثم تلومه على ارتعاش يديه.



كلب الوحدة الوطنية

كنت يومها في سنتي الثالثة بكلية الإعلام بجامعة القاهرة، وكنت أعيش قصة حب عاصفة، من طرفي طبعاً، فمن الطرف الثاني لم يكن هناك لا عاصفة ولا حب، كانت هناك فقط قصة تدور أحداثها بالكامل في المسافة الواقعة بين خيالي وقلبي، وكأي محب غارق في الأوهام لشوشته، تصورت أنني لو اقتربت من الله تعالى وواظبت على أداء الفرض بفرضه في الجامع، بدلاً من الاكتفاء بالصلاة أيام الامتحانات، سيكرمني الله وسينفتح لي قلب حبيبتني وستوافق هي وأهلها على الزواج مني، لأحقق بعد ذلك كل أحلامي التي أرفض الاعتراف بكونها أوهاماً.

كان الجامع الأقرب إلى بيتي يقع على أول شارع المحطة في الجيزة، على يدك الشمال وأنت قادم من محطة القطارات والمحكمة، وكان يصلي بالناس فيه إمام غريب جداً استلهمت من شخصيته الغرائبية قصة (عندما انفضح الشيخ عرفة فضيحة القطط على المنبر)، والتي نشرتها في مجموعتي القصصية الأولى (بني بجم)، وكان من النوع الذي كلما فتح فمه بأي رأي يضعك في اختبارات حقيقية مع الدين والوجود، حتى أن صديقاً مهووساً بنظرية المؤامرة كان يرى أن الشيخ عرفة يقبض من السفارة الإسرائيلية مرتباً شهرياً لكي يقوم بتطبيع دين أغلب من يصلون خلفه ويستمعون مكرهين إلى خطبه البلهاء.

في تلك الأيام من عام 1994، حدثت ضجة بسبب خطبة لواعظ كان شهيراً وقتها بشدة، لا يزال الآن مشهوراً، ولكن بدرجة أقل، اسمه الدكتور عمر عبد الكافي، وكان قد أفتى مع أنه ليس مفتياً بحرمة تهنئة المسلمين للمسيحيين في أعيادهم، وشتت عليه مجلة (روز اليوسف) حملة عنيفة اضطرتته إلى أن يكذب أنه قال تلك الفتوى، فأخرجوه حين نشروا له نص ما قاله مستنديين إلى شريط مسجل داعين للتحقيق معه بتهمة نشر الفتنة الطائفية.

في وسط الأجواء المتوترة التي كانت تمر بها البلاد مع تزايد نشاط الجماعات الإرهابية، توسع النقاش في سائر الصحف والمجلات عن موضوع عيد القيامة ومسألة تهنئة المسلمين للمسيحيين وما إذا كان ذلك يخالف تعاليم الإسلام أم لا، وهو ما كانت أغلب الصحف والمجلات تنفيه متوسعة في نشر آراء تفرق بين واجب التهنة الذي يندرج تحت مكارم الأخلاق وبين الاتفاق في العقيدة، ويبدو أن نشر هذه الآراء أصاب الشيخ عرفة بالاستفزاز، ودون أن يطلب رأيه أحد، قام بعد صلاة المغرب ونثع كلمة حذر فيها المسلمين من تهنة المسيحيين ليس فقط بعيد القيامة بل بأي من أعيادهم لأن ذلك سيخرجهم من الملة كما "يخرج السهم من الرمية" وقد كانت تلك واحدة من العبارات القليلة التي يحفظها بالفصحى دون خطأ في التشكيل ولذلك كان يحب تكرارها عقال على بظال حتى لو لم تكن مناسبة لموضوع حديثه.

من شدة استفزازي من الجهل الطائفي الذي رجعه الشيخ

عرفة علينا، تمنيت أن يبادر أحد المصلين الأقدم حضوراً أو الأكبر سناً بالاعتراض على كلامه لكي أضم صوتي إلى صوته وأنتهز أي فرصة لكي أطبق في زمارة رقبتة مكافأة له على مجمل أعماله السوداء، لكن أحداً لم يعترض على ما قاله بصوت عال، بل اكتفى البعض القليل بلوي شفته امتعاضاً مما سمعه، وحين انفُض جمع المصلين وخرجت معهم، شعرت بتأنيب الضمير لأنني سكت على كلام الشيخ عرفة المفعم طائفية وجهاً، وقررت أن أقوم باتخاذ موقف إيجابي على الفور.

هداني تفكيري إلى ضرورة اتخاذ فعل رمزي لمعاندة الشيخ الجهول، فقررت الذهاب إلى صديق مسيحي يسكن بالقرب مني لكي أهنته بعيد القيامة، بالطبع كان يمكن أن أنتظر حتى أذهب إلى الكلية في اليوم التالي وأقوم بذلك، لكنني قررت ألا أؤجل فعل الوحدة الوطنية إلى الغد، وأن أذهب في التو واللحظة لأهني صديقي أكرم متواضع لاوندي اسطفانوس، الذي لا زلت أحفظ اسمه الرباعي لأنه كان يجلس قبلي في لجان الامتحانات وكنت حتى قبل أن أعرفه ونصبح أصدقاء، أقرأ اسمه قبل اسمي في سائر الكشوف الجامعية.

كان والد أكرم يمتلك مصنع زبادي في منطقة العمرانية بالقرب من شارع المحطة الذي أسكن فيه، وأذكر أنني وجدت لدى البقال ذات مرة علبة زبادي تحمل اسم عائلته (لاوندي)، فقلت للبقال بفخر إن ابن صاحب المصنع "زميلي في الكلية وحببي يعني وكده"، وبالطبع كان رده المباشر علي: "طيب

ما تكلمه ينزل لنا السعر شوية عشان نطلع بمصلحة من وراك وأنا هاراعيك"، وهو ما لم أقم به بالطبع، فضلاً عن أن تسرعي في الكشف عن صداقتي بأكرم، حرمني من حقي في تغيير نوع الزبادي الذي أشتريه، لكيلا يفتح ذلك باب شك لدى البقال فيضر بمنتج أكرم، خصوصاً أن "زباديهم" كان ممتازاً بالفعل.

كنت أعرف مكان المصنع وأعرف أن أكرم يسكن فوقه مباشرة، لكنني لم أكن قد دخلت بيته من قبل، ولأنني كنت ذاهباً من غير موعد، قررت أن أنادي على أكرم من الشارع وأطلب منه أن ينزل لكي أهنته وأنصرف، خاصة أنني كنت قد ذهبت إلى الجامع وأنا أرتمي "ترينج سوت" أو كما ندعوه اختصاراً "ترينج"، كانت ميزته الوحيدة التي دعنتني للبسه أنه نظيف ولا تفوح منه رائحة العرق، وكنت أنتعل شبشباً غير مشرف على الإطلاق، صنع في الصين من مواد بترولية مشكوك في سلامتها، وقد جعلني إدراكي المتأخر لراثثة ما أرتمي، أفكر للحظات في العودة إلى شقتي لكي أقوم بتغيير ملابسني ثم أذهب لأكرم، لكنني قلت لنفسني: "لا، حلاوة الوحدة الوطنية في حموتها"، متغلباً على شيطاني الموسوس لي دائماً بالكسل، والذي كنت أعلم أنني لو صعدت إلى غرفتي لن يتركني أنزل ثانية.

لم أعمل مع الأسف حساب أن أكرم صعيدي الأصل، ولذلك كان يستحيل أن يسمح لي بالتعدية تحت بيته دون أن أطلع وأخذ واجبي كاملاً، ولذلك وجدت نفسي غصباً عني وسط

احتفال عائلته بالعيد، وأنا أرتدي ذلك الترينج "الريك" والشبشب الذي زاد قبحه من تجسيد العيوب الخلقية لأصابع قدمي، وكانت تلك المرة الأولى التي ألتقي فيها بأمر أكرم التي كانت قد أرسلت لي معه من قبل في رمضانين سابقين متواليين، صينية بسبوسة رائعة، وصينية رقاق أروع، وتعاملت مع كليهما كغنيمة لا بد أن أنفرد بها وأخبئها بعيداً عن أيدي الوحوش التي كنت أسكن معها، لأنني لم أكن أستطيع القيام بكل صينية على بُق واحد، أو الكذب خيبة، كنت أستطيع، لكنني كنت أحب أن أطيل مدة الاستمتاع بها، وللأسف كانت نتيجة طمعي في المرتين، أن جحافل النمل وأسراب الصراصير شاركتني في ما تبقى في الصينيتين، فتمنيت لو كنت قد قمت بهما مرة واحدة.

أم أكرم بلطفها وجمالها، تعاملت معي كأنني فرد من العائلة، ولذلك من الطبيعي أن يكون موجوداً في الصالون بالترينج والشبشب وسط عائلته. لم يكن أبوه موجوداً يومها على ما أذكر، وأخوه الأكبر استقبلني أحسن استقبال. كل شيء كان على ما يرام، إلى أن خرج من عرفت أنه كلب العائلة من غرفة ما ودخل إلى المشهد بصورة غير متوقعة. كان كلباً ضئيل الحجم من النوع الذي علمتنا السينما أن اسمه "كنيش"، ولم يكن شكله اللطيف يوحي بالعدوانية التي سرعان ما بدت حين جثم في مدخل الصالون وهو ينظر إلي شزراً، ثم بدأ في الزمجرة، فتوترت لأنني أخاف من الكلاب جداً، وأكرم قال لكي يهدئي إن كلبهم العزيز غير متعود على

الضيوف الذين يراهم لأول مرة، ثم بدأ يكلم الكلب ويشتمه بهزار كان يفترض أن يهدئه، ويبدو أن الكلب لم يعجبه أن يهزر معه أكرم أمام غريب غريب المظهر، فقام فجأة بتشغيل وضع الطيران، وأخذ المسافة من أول الصالون وحتى رجلي في وثبة واحدة انتهت به في رجلي لَزَم، لكنه لحسن الحظ لم يقرر عض إصبع رجلي الكبير البادي من الشبشب، مفضلاً أن يقوم بهبش رجل بنطلون الترينج والتعلق به.

عرفت ذلك، لأنني حين دفعني الرعب للقفز فوق الكرسي، أخذت الكلب معي وهو متشبث برجل البنطلون، في حين كنت أسند على الحائط بيد لكيلا أقع، وأمسك باليد الثانية وسطي لكيلا ينزل البنطلون مع فم الكلب فيظهر للعائلة الكريمة من مؤخرتي منظر ينافي الوحدة الوطنية ويسيء إليها، ولحسن الحظ لم يطل الموضوع، لأن أكرم شد الكلب وأبعده عني بقوة، فكشف بذلك عن متانة تصنيع الترينج الذي لم يلتصق ببعضه بأسنان الكلب الحادة، أو أن الكلب لم يحب طعم ما ذاقه فلم يستنظف أخذ ذكرى من البنطلون.

رجعت إلى مكاني على كنية الصالون وسط سيل من الاعتذارات والتأسفات، مع أنني متأكد أن كل من حضر الموقف كان يتمنى أن تتاح له فرصة الارتماء على الأرض من الضحك، ضحك بدموع وأصوات حلقية ودبدبة رجلين على الأرض وما إلى ذلك، لكنهم بكل جدعنة ولطف تحملوا وصمدوا وقرروا تأجيل الضحك حتى أنزل.

برغم إبعاد الكلب عن المكان وهو يتعرض للتعنيف واللوم،

ظل صوت نباحه الغاضب واصلاً إلى الصالون ومخيماً على أجواء القعدة، وبرغم أنهم ذهبوا به إلى أقصى ناحية في البيت الكبير، إلا أن صوته القوي ظل مسموعاً، وقال أكرم تعليقاً حاول به فتح موضوع لتغيير الجو المتوتر، شارحاً بلهجة الخبير البيولوجي أن الكلاب الصغيرة تحاول بالصوت العالي والشراسة تعويض إحساسها بالنقص، لكنها في النهاية شراسة تافهة، ولو كان شراسة مؤذية لكان قد عضني بالفعل عضّة موجهة، فزغرت أم أكرم له لأن تعليقه بدا لها غير مناسب.

اتسحبت من لساني، وقررت تحت وطأة ارتباكي أن أضيف إلى القعدة "التاتش بتاعي"، فقلت محاولاً إظهار أنني أخذت الموضوع بهزار: "أحسن يكون الكلب ده ما بيحبش المسلمين"، وبالطبع لم يكن تعليقي موفقاً بالمرة، وحين رأيت ذلك على وجوه الحاضرين، اضطررت للتأكيد على أنني أهزّر والله، وهزاري سخيّف دائماً، "حتى اسألوا أكرم"، وبعد لحظات من الصمت، نطق أحد أفراد العائلة الذي يبدو أنه كان منشغلاً بمحاولة إيجاد تفسير لما قام به الكلب، وقال ببراءة: "الغريب إن دي أول مرة يعملها مع أي حد من ضيوفنا مسلمين أو مسيحيين"، وبعد لحظة تفكير أضاف قائلاً: "يمكن عشان أول مرة ييجي لنا ضيف لابس شبشب"، لكنه من كرم أخلاقه لم يكمل قائلاً: "شبشب معفن زي ده"، وبالطبع كان من الصعب بعد تعليق كهذا أن يكتم أحد رغبته العارمة في الضحك، خاصة أنني كنت أول الذين انفجروا في

الضحك العالي الذي غطى أخيراً على صوت نباح الكلب.

على هامش المشمشية!

إذا كانت كلمة "المثوول" تعني أن تقف ذاهلاً عن نفسك، غير محدد لاتجاه سيرك، ودون أن تكون متأكداً من توصيف مشاعرك بدقة، فيمكن أن تعتبر أنني كنت وقتها كـ "المثوول".

كنت قد رأيت للتو ما آل إليه حال أهم أماكن بيع الكتب وأقربها إلى قلبي، والذي كان يستحق عن جدارة عنوان "معرض الكتاب" الذي أطلقه أصحابه عليه بعد تأسيسه، فقد كان يشغل أرضاً صغيرة تقع خلف سينما ستراند في مدخل شارع صفية زغلول، على شمالك وأنت قادم من محطة الرمل بالإسكندرية، وكان يتميز عن كافة المكتبات الكبيرة بأنه يعرض كافة أنواع الكتب دون تصنيف ولا ترتيب، ليختلط في جنباته الحابل بالنابل، والمهم بالهايف.

لا أذكر متى بدأ المكان عمله بالتحديد، لكنني بدأت التردد عليه منذ مطلع التسعينيات لتصفح الكتب فقط، ف شراء الكتب لم يكن متاحاً لي وقتها إلا من أكشاك النبي دانيال، أو كشك الكتب المستعملة المجاور لسينما أمير، وعلى طول ما كنت أتصفح الكتب فيه، لا أذكر أنني تعرضت لمضايقة عامله ولو بالزغرات، يكفي أن أخبرك بأنني حين استغلّيت ثمن مجموعة (لافتات) الشعرية الشهيرة للشاعر العراقي الكبير أحمد مطر، كنت أذهب كل يوم لأقرأ أحد أجزاءها ببلاش، وهو ما حاولت تعويض أصحاب المعرض عنه حين أصبحت قادراً على شراء بعض الكتب، بعد قضاء ساعات في تصفح غيرها.

وقفت أسترجع تلك الذكريات في ذلك اليوم من أيام صيف 2014، وأنا أشاهد معرض الأحذية الذي حل مكان مكاني الأثير في الإسكندرية. كانت تلك المرة الأولى التي أرى مثلاً حياً لما كنت أقرأه منذ أواخر التسعينات عن ظاهرة تحول المكتبات في القاهرة والإسكندرية إلى معارض للأحذية، ثم تذكرت أن هناك مكتبة كانت تقع في منتصف الشارع تحولت إلى محل أحذية، لكن ذلك لم يستوقفني بنفس القدر لأنني لم أدخلها سوى مرة صعقت فيها بأسعار كتبها "الفاحشة" ولا أقول الباهظة.

تذكرت أيضاً عدواناً بربرياً كانت قد تعرضت له قبل فترة قصيرة عدد من أكشاك الكتب والصحف التي اشتهرت بها محطة الرمل، وعدواناً مماثلاً استهدف أكشاك وفرشات الكتب في شارع النبي دانيال في عام 2012. ثم "هاجت الذكرى" فذكرتني باختفاء الأكشاك التي تخصصت في بيع الكتب الأجنبية وكان بعضها يقع ما بين سينما أمير وسينما ريو، كنت أذهب إليها وأنا صغير بصحبة خالي الأوسط حين كان يقوي إنجليزيتة على أمل بهجرة لم تتحقق، ثم تذكرت مكتبة (الأهرام) القريبة من شارع النبي دانيال التي كانت أُمي تشتري منها بعض المراجع التي تساعدني في دراستها ثم في تدريسها، وكيف تدهورت أحوالها عبر السنين بشكل مؤسف.

كنت قبل وقفة الذكريات تلك قد عدّيت على مكتبة (منشأة المعارف) التي تعودت دائماً أن أدخل من بابها المطل على

شارع سعد زغلول وأخرج من بابها المطل على البحر، مشيعاً بنظرات موظفيها الغاضبين على الدوام سواء اشتريت منهم شيئاً أم اكتفيت بالفرجة، وكنت قد زرت قبلها مكتبة الهيئة العامة للكتاب التي أجد لديها دائماً نسخاً من كتب الهيئة تنفذ من مكاتب القاهرة، وكنت على وشك أن أكمل جولتي بزيارة (مكتبة ومطابع المستقبل) التي تقع في نهاية شارع صفية زغلول والتي أنشأها الأستاذ سلامة موسى وأدارها من بعده لسنوات ابنه رؤوف، لكنني حين شاهدت ما جرى لـ "معرضي للكتاب" قررت تأجيل الزيارة ووقفت أقيم في دماغي على مكتباتي السكندرية، لتحار ذاكرتي فقط في تحديد موقع مكتبة دار المعارف التي كنت أذكر أن لها فرعاً في شارع سعد زغلول، كانت أمي تكافئني حين ترضى عني بشراء بعض الكتب منه، لكنني لم أجد المكتبة في جولتي الأخيرة، فلم أعد أعرف هل نقلوها من المكان الذي ذهبت إليه، أم أنها كانت تقع أصلاً في مكان آخر أضاعته الذاكرة.

لم تكن تلك جولة لشراء الكتب، بل كانت جولة وداع للإسكندرية قبل سفري إلى نيويورك، وداع لم أكن أدري وقتها هل سيكون مؤقتاً أم دائماً، ولم أكن في مقام التفجع على أحوال "اسكندريتي"، فقد نبذت التفجع بعد ابتذاله وتحوله إلى طقس فولكلوري غير مقترن بأي أفعال جماعية للمقاومة، لذلك كنت في مقام التذكر أمشي في هذا الشارع وتلك الحثة، فأمتحن ذاكرتي وأحاورها عن مصير هذا المحل أو مآل تلك العمارة، وأبحث عن الوجوه التي كنت

أظنها محفورة في الذاكرة، فأجد بعضها ويغيب عني أغلبها،
أجلس على قهوة أحسنت إلي في ساعة كآبة، وأزور مطعماً
كنت أحبه فأبتهج إن وجدته محافظاً على مستواه وأحزن
إن أصيب بداء الطلقة، وأكتشف وسط ذلك التجوال الذي
استمر أياماً وليالي حضور ذكريات كثيرة انبعثت من رقدة
طويلة، حتى أنني أصبحت أتشكك في بعضها، هل هو ذكرى
مستعادة أم خيال مستجد؟

حين لم أجد إجابة شافية على أسئلتى لبعض من في
الجوار عن مصير "معرض الكتاب" وتاريخ وأسباب إغلاقه،
دخلت إلى محل العصير المجاور الذي كانت أمي تحب
اصطحابي إليه لنشرب فيه كوبايتين عصير جزر حين لم
تكن عضارات الجزر قد أصبحت متاحة في البيوت، ثم
نذهب لنقضي مشاويرنا في وسط البلد، ونمر عليه في طريق
العودة إلى البيت لنختم جولتنا بمشروب أمي الأكثر تفضيلاً:
كوبايتين عصير قصب. حزنت لأنني لم أجد المحل محافظاً
على مستواه مع أنه احتفظ بنفس ديكوره الذي لم يعد يبدو
لي جميلاً بعد أن تغير طعم العصير، قبله كنت قد اختبرت
مستوى المحمصة التي على الناصية فوجدتها لا تزال
متماسكة، ثم نظرت إلى "محل" ماكدونالدز الواقع بالمعنى
المهين للوقوع في الناحية المقابلة لمعرض الكتاب، وفشلت
في تذكر اسم مطعم الكبد العظيم الذي كان يقع مكانه ثم
اختفى.

رأيت زحاماً قريباً لم أتبين سببه، اقتربت أكثر فوجدت

سيدة خمسينية صبغت شعرها بلون أصفر خراوي، مشتبكة في خناقة مع ضابط مرور أسمر عرقان، منهالة عليه بالشتائم لأن ونش المرور بدأ في حمل سيارتها بعيداً عن المكان، وحين انفجر فيها الضابط نافذ الصبر بوصلة سباب محسوب لأنه لم يكن متأكداً من شخصيتها، غيرت فجأة لهجتها الحادة وبدأت تتحدث بنبرة معاتبة متفنجة: "ليه بس كده يا باشا، ده احنا معاكو بروحنا ودمنا، وبنحب الجيش والشرطة وانتخبنا السيسي وعينينا ليكو"، والكلمتان الأخيرتان كان لهما مفعول السحر أكثر من بقية كلماتها، فقد مال الضابط نحوها بتودد، وقال لها شيئاً كركعت بعده في الضحك فجأة، وضربت كفها بكف الضابط العرقان والضحك بعد ما سمعه، و لم أعرف ما الذي قاله لها ولا كيف زال تجهمه سريعاً، ولا لماذا وقف كل هؤلاء الناس وأنا منهم لمراقبة المشهد الذي سادته حالة من الرخص الملزق، حالة محسوسة لكنها غير ملموسة، كأنها مجاز متقن في قصيدة شاعر شاطر، مجاز لم يخدشه إلا ما قاله شاب عابث لزميله وهو يموت من الضحك: "بص يا له على نمرة عربيته"، لأنظر إلى لوحة السيارة فأجدها مكونة من عدة أرقام تجاوز أحرف: (م ص ي)، فشارك المواطنين الزميلين ضحكهما الرقيق، ومشيت لا ألوي على شيء.

بعد خطوات قليلة رأيته وبدأت في متابعته وهو يواصل سيره الحثيث في شارع صفية زغلول، كان منظره العام يوحي بتجاوزه الستين منذ فترة لا بأس بها، يرتدي بدلة

صيفية كالحة لكنها نظيفة، ويضع على رأسه طاقيّة بيضاء من التي نسميها "طاقيّة حج"، ويحمل على كتفه سلماً خشبياً صغيراً، ويمسك في يديه لفّة أسلاك و"عِدة تليفون" قديمة سوداء، ظننته في البداية يقوم بنقل السلم من محل لآخر، لكنه ظل مستمراً في المشي ببطء مغالباً الإرهاق والعرق، وهو يحمل سلّمه بحذر كأنه يحمل خشبة خلاصه.

بعد تردد اتجهت إليه وسألته بتودد: "مش عايز مساعدة يا حاج؟"، كنت أتمنى أن يتيح لي فرصة مساعدته، ولو حتى لأخذ راحتني في سؤاله عن أسباب حملة للسلم في تلك الظهيرة الحارة، لكنه نظر إليّ باستعلاء وقال بنرفزة: "لا، شكراً يا سيدي"، ثم استمر في مشيه الوئيد. عبرت إلى الرصيف المقابل، وظللت أرقبه وهو يسير متحاملاً على تعبته، حتى وصل إلى موقع سينما ريالتيو المأسوفة على شبابها، والتي كانوا قد هدموها قبل فترة وجيزة، وسوّروا مكانها ووضعوا لافتة تعلن عن مشروع بناء (مول) كبير.

وقف العجوز أمام محل مغلق، ووضع سلمه على الأرض، وأخذ ينظر إلى باب المحل المغلق وهو يلتقط أنفاسه. كان يبدو عليه التعب الشديد، وحين مر بجواره شاب أصلع وطبّط على كتفه بود من يعرفه، وقال: "ربنا يقويك يا حجيجة"، هزّ رأسه بقرف دون أن يرد، ليقترّب منه صاحب فرشة الجرائد القريبة ويقول له "معلّش يا ابويا أصل الحاج قفل النهارده عشان عنده حالة وفاة بعيد عنك"، فضرب العجوز كفّاً بكف، وحمل السلم على كتفه من جديد، واستدار

عائداً من حيث أتى.

لم أتمكن من مغالبة فضولي، فاتجهت نحوه وقد وقف ينتظر فتح الإشارة المجاورة لمقهى السلطان حسين، وقلت بنبرات واثقة: "ما تيجي تريح رجلك شوية يا حاج، وبعدين كمل مشوارك، تعال نشرب شاي سوا، أنا زي ابنك ما فيهاش حاجة يعني، اتفضل والنبي ما تكسفني". كان التعب قد تمكن منه، فنظر إلى المقهى الذي يتنكر رغبة في "الاستشياك" خلف لقب ولافتة كافتيريا، وقال بصوت محشرج: "بس مش هيدخلوني جوّه بالسلم"، فاعتبرت رده بداية مشجعة على التعارف، وقلت بحماس: "ما حدش يستجري يقولك يم، ده انت تنور القهوة كلها"، ولحسن الحظ لم يخذلني الجرسون الذي كان يعرفني، وحين حاولت أنا والجرسون مساعدته في حمل السلم ونحن ندخل، أشاح بيده وواصل طريقه نحو كرسيه المختار، وأسند السلم إلى الحائط، وحين سألنا الجرسون عما نطلبه، فاجئني حين أشار إلى العلاجة القريبة وطلب طبق مشمشية، فطلبت واحد زبادي خلاط، وربما لأنه شعر أنه بالغ في استبدال المشمشية بالشاي، فقد بدأ في الحكى فور أن استراح، وقبل أن ينتهي الوقت الذي تصورته كافياً للراحة قبل أن أبادره بالسؤال عن قصته.

كان "الحجيحة" قد طلع على المعاش من مصلحة التليفونات قبل تسعة سنوات وشوية، قبلها ظل لعقود "يخدم" في السنترال القريب من محطة مصر، وعبر سنوات خدمته احتفظ بعلاقات طيبة مع كثير من أولاد الحلال،

الذين كانوا يتصلون به حين تتعطل هواتف محلاتهم ومنازلهم، بدلاً من الاتصال بالمصلحة التي صار اسمها الشركة المصرية للاتصالات، وصار لها خط ساخن ومركز خدمة عملاء وموسيقى انتظار مزعجة، ومع ذلك ظل أولاد الحلال يفضلون خدمة عم محمود، ويعطونه ما فيه النصيب حين ينجز لهم مصالحهم المعطلة بسبب تعطل تليفوناتهم. في البدء قال لي إنه يسكن في حي كوم الدكة الذي يقع في تلة عالية في وسط اسكندرية لم تكن بعيدة عن مكاننا.

حين قال بعد قليل أنه بعد أن ينهي المشمشية "هياخذها مشي" حتى شارع السبع بنات، ظننت أنه قلق من أسئلتي، ولذلك قرر تمويه مكان سكنه، لكنه بعد قليل أزال اللبس، حين قال إنه يخرج من بيته في كوم الدكة كل صباح، ليحمل السلم والعدة، ويسعى على رزقه، إن اتصل به من يطلب إصلاح تليفونه سارع بالذهاب إليه، وإن مر على محل به مشكلة في الكهرباء قام باللازم، وإن لم يجد أحداً يحتاج إلى خدماته، لم يعدم من يصبح عليه بساندوتش أو سيجارة أو كوباية شاي أو طبق كشري "أو طبق مشمشية زي حضرتك"، ويظل مستمراً في سرحانه الطويل على الرزق، حتى يصل إلى بيت ابنته في شارع السبع بنات، فيأكل عندها ما فيه النصيب ويشرب الشاي ويلعب الأحفاد، ثم يعود إلى بيته بعد أن يصلي المغرب، إما مشياً إن كان مزاجه رائقاً، أو بمواصلات إن نكد زوجها الغتيت عليه.

حين سألته إذا ما كانت سلالم كوم الدكة العالية تتعبه حين

يصعدھا حاملاً سلمه وهو عائد إلى البيت، قال باستهانة لا تخلو من تفاخر بصحته، إن الشلم صار مع الوقت جزءاً من كتفه، كأنه عصا يتوكأ عليها في مشيه، ليقودنا الحديث إلى الإكليشيئات العقيمة المحببة عن جيل السمنة البلدي المتربي على الغالي وجيل الفراخ البيضاء المعمية بالهرمونات، ثم ينعطف بنا الحديث لا أدري كيف نحو تفسيرات لاسم كوم الدكة، فيقول أعجب تفسير سمعته على الإطلاق.

كانت التفسيرات المتداولة لاسم الحي تنقسم إلى ثلاثة أقسام، أضعفها وأكثرها منطقية يرى أن المكان كان اسمه في الأصل (كوم الديكة)، لأنه كان يشهد أكبر مسابقات لصراع الديوك الهندية في اسكندرية، ليتم تحريف الاسم بعدها فيصبح كوم الدكة، ويرى أطرف التفسيرات وأعبطها أن الاسكندر الأكبر باني الاسكندرية كان لديه قصر منيف في تلك المنطقة، وكان يحب الجلوس فيه على دكة مصنوعة من أفخر أنواع المجوهرات، وقبل سفره إلى غزوة جديدة، استدعى مهندساً سكندرياً وكلفه ببناء مخبأ يضع فيه كنوزه الثمينة وعلى رأسها تلك الدكة، ثم قام "أبو إسكندر والإسكندرية" بقتل المهندس ودفنه في المخبأ لكيلا يصل إلى مجوهراته أحد، أما أقوى تلك التفسيرات من الناحية العلمية فكان يقول إن التل الذي بنيت عليه المنطقة لا علاقة له بالإسكندر الأكبر أصلاً، لأنه نشأ من مخلفات حفر ترعة محمودية ودك بعض المناطق القديمة المحيطة بها، ليحمل المكان اسم كوم الدكة نسبة إلى ما تم دكه وحفره.

لكن كل تلك التفسيرات تضاءلت إلى جانب تفسير عم محمود الذي قال إنه سمع من جده نقلاً عن جد جده، أن الاسكندر الأكبر عليه ألف رحمة ونور أحب بنتاً من بنات الحثة، حين رآها خلال تجواله المستمر في المنطقة التي كان يقع قصره على أطرافها، فعشقها وتزوجها في السر لكيلا يغضب أم عياله، وبنى لزوجته بيتاً جوار بيت أهلها، وظل يتردد عليها في السر، لكن زوجته التي كان يخاف منها لأنها تعرف دناوته من أيام الفقر والكفاح، قامت بفضح سره وضبطته في بيت زوجته السرية، وجزّته من دكة لباسه في الشوارع، وهي تشهد أهل الاسكندرية على نقصه وقلة أصله، فاضطر لقتل زوجته الجديدة إرضاءً لأم العيال، وترك الإسكندرية بعد أن أصبح لا يقوى على وضع عينه في عيون أهلها، ليتم تسمية المكان الذي شهد تجريسته وسحبه من دكة اللباس باسم (كوم الدكة).

كانت حكاية "حجيّة" العجيبة عن دكة لباس الإسكندر، أكثر معقولة من حكايته عن أحوال بيته ذي الأدوار الخمسة الذي يسكن فيه وحيداً منذ عامين، بعد أن تصدع البيت وأصبح آيلاً للسقوط، لأن شاباً ممحوناً من سكانه، قرر وهو يقوم بتوضيب شقته للزواج، أن يستجيب لدع عروسة المستقبل، فيقوم بفتح مطبخ الشقة على باقي الشقة، ليصبح لديها "مطبخ أمريكي"، كالذي رآته في بيت زميلتها الموظفة في شركة الزيوت المستخلصة، ولأنه كسائر شباب هذه الأيام "لدول عديم الشخصية"، فقد فعل ذلك دون أن يستشير

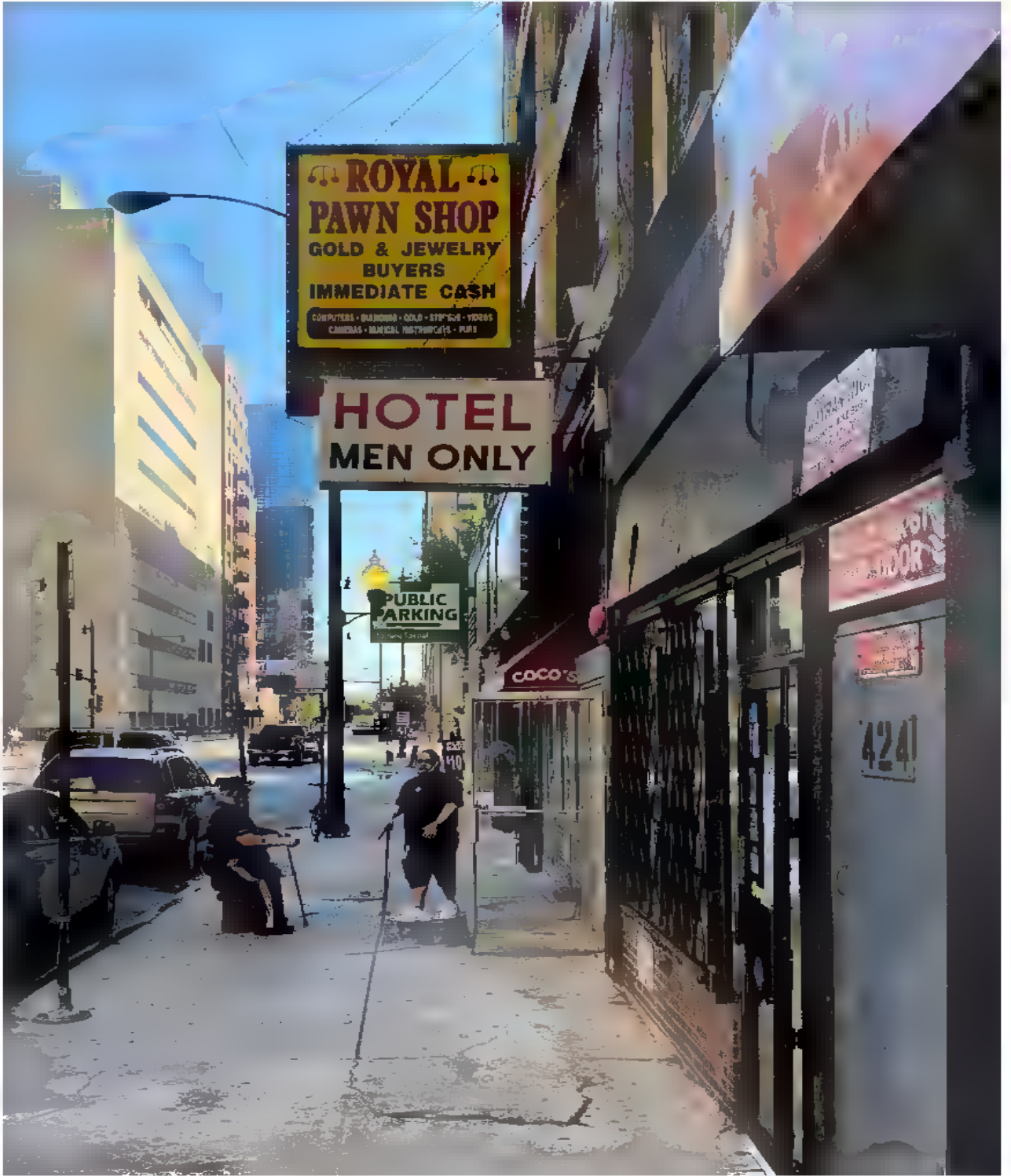
أحداً من السكان، مُمنياً نفسه بأن تكون بسطة المطبخ محلاً
للألعاب شهوانية مشروعة، فكانت النتيجة أنه وصنایعته
الحمقى تسببوا في تصدع البيت وتشريد سكانه، باستثناء
عم محمود الذي أقسم أنه لن يغادر البيت مهما حصل،
حتى بعد أن غادرت زوجته لتقيم لدى ابنها العامل في حي
السيوف البعيد، والذي كانت شقته ومرارته أوسع بالنسبة
للأم من شقة ومرارة أخته وزوجها الغتيت.

ولتفسير عبارته الأخيرة أكثر، صارحني العم محمود بأن
رحيل زوجته هو الذي دفعه لاتخاذ قرار البقاء برغم مخاطره،
لأنه أصلاً لم يعد يطيق صحبتها في البيت، لأنها بعد أن
تمكنت منها الأمراض وأعجزتها السممة المفرطة عن الحركة،
أصبحت تجد راحتها في شتمه ولعن سنسفيله بعلو صوتها،
حتى صار مسخرة الشارع كله، بسبب ما تطلقه عليه من
شتائم تتفنن في ابتكار الجديد منها كل يوم، وهو ما كان
يضاطره لتأخير عودته إلى البيت قدر الإمكان، لأنه لا يحب
أن ينام بعيداً عن فرشته، ثم قال وقد أضاء وجهه بضحكة
طفولية إنه لكي يرتاح من سماع صوتها، قام بفصل التليفون
عن الشقة، لأنها ظلت تتصل به بعد رحيلها لكي تسمعه
أحدث نتاج لسانها الزُّفر، وأنه كلما نقلت له ابنته رسائل أمها
بضرورة إصلاح التليفون لتتمكن من الحديث معه، يطلب
منها إبلاغ أمها بأنه يحاول دائماً الاتصال بالسنترال لإصلاح
التليفون، فلا يرد عليه أحد من موظفي خدمة العملاء الذين
لم يعد يعرف منهم أحداً.

حين انتهى عم محمود من المشمشية، عرضت عليه دور شاي بالنعناع، فقفز من مكانه حين وقعت عينه على ساعة الحائط، وقال لي إنه سيأخذها جرياً إلى بيت ابنته، لأنها وعدته بصينية زقاق على الغداء، لكنه لم يغادر إلا بعد أن تأكد من تسجيلي لرقم هاتفه المحمول، ليقسم بالأيمان المغلظة أنه سيختصمني أمام الله لو سمحت لأحد غيره بإصلاح تليفوني، وحين قلت له إنني لم يعد لدي من زمان شقة في الإسكندرية، قال لي بيقين: "بكره ربنا يرزقك"، ومضى حاملاً سلّمه ليتركني لأشجاني وهواجسي، وحين سألتني الجرسون بعد رحيله عن سبب بكائي الذي فشلت في كبحه، لم أعرف كيف أرد عليه، فشربت "بُق مية" ثم وُحِدت الله ودعوت للحجيجة ولي بالصحة والستر، وطلبت "واحد مشمشية".

فندق الرجال المنسيين

(فندق للرجال فقط). لم أكن أتوقع أن أقرأ لافتة كهذه في مدينة أمريكية كبرى مثل شيكاغو، لا، وفي قلب المدينة التجاري، وليس في إحدى ضواحيها البعيدة عن العين والاهتمام.



قبل أن تقع عيني بالصدفة على تلك اللافتة القريبة من سكني المؤقت في المدينة، كنت قد قرأت تقريراً في صحيفة مصرية يتحدث عن معاناة السيدات المصريات غير المتزوجات مع أغلب الفنادق التي تمنعهن من الحصول على غرفة بمفردهن بدعوى حماية الفضيلة والأخلاق، ولذلك زاد فضولي لمعرفة السبب الذي يدفع فندقاً أمريكياً لرفع شعار

(للرجال فقط).

حين اتجهت نحو باب الفندق، أقلقني شكل المدخل الضيق الرث الذي يفضي إلى سلم طويل مريب، فلفت ترديدي انتباه رجل ستييني جلس على السلم لالتقاط أنفاسه، ليسألني وهو يصوب نحو الموبايل والآي باد نظرات متفحصة: "هل تبحث عن غرفة؟"، فقلت له وقد توسمت فيه اللطف إنني لا أريد غرفة، بل أريد أن أفهم لماذا تم تخصيص الفندق للرجال فقط، لأنها المرة الأولى التي أصادف فيها لافتة كهذه في كافة المدن الأمريكية التي زرتها؟ فقال ضاحكاً إن هذا القرار ليس تمييزاً ضد النساء، بل خدمة جليلة لهن، وإنني حين أرى غرف الفندق سأفهم السبب، سألته مستوضحاً: "هل الفندق سيئ إلى هذا الحد؟"، ولم أكن أتوقع أن يزعجه سؤال، فينظر لي مستغرباً ويقول: "سيئ؟ كيف تظن أنني سأقول على مكان أسكن فيه منذ عشر سنين إنه سيئ؟"، وحين لم أفهم هل كان يسخر أم يتحدث بجدية، فوجئت به ينفجر في غاضباً وهو يصرخ "سيئ؟ هل تدري يا أخي المتحذلق؟ ليس هناك ما هو أسوأ من النوم في الشارع"، وأخذ يكرر عبارته بصوت عال قضي على شهيتي المعرفية، ودفعني للابتعاد عنه وأنا أعتذر لإزعاجه مؤجلاً زيارة الفندق لوقت آخر لا يكون صاحبنا المحتقن جائماً في مدخله.

حين حاولت الاستعانة بمولانا الحافظ جوجل لمعرفة معلومات عن الفندق، اكتشفت أن الصور التي التقطتها على عجل، لا تحوي اسم الفندق الذي رأت إدارته أن عبارة

(للرجال فقط) تكفي لتعريف الزبون المستهدف به، وحين كتبت العبارة على خانة البحث في خريطة المنطقة، عرفت أن الفندق يحمل اسم Ewing Annex واتضح أنه ينتمي إلى طائفة فندقية توشك على الانقراض هي الفنادق الرخيصة التي تحتوي على غرف متناهية الصغر وحمام مشترك في كل دور، ولذلك يطلق عليها (فنادق المكعبات) أو (SRO - فنادق الغرف المفردة)، ولأن الفندق الذي يضم أكثر من 200 غرفة، لا يوجد به طاقم عمل مقيم سوى الشخص الذي يستقبل النزلاء ويأخذ منهم إيجار الغرفة يومياً، لا تسمح إدارته بسكن النساء في الفندق حرصاً على سلامتهن أو في الحقيقة منعاً للمشاكل التي يمكن أن يحدثها وجودهن، وإن كنت قد وجدت ضمن التعليقات الموجودة في (جوجل) صوراً لأكثر من امرأة قمن بتقييم الفندق بشكل إيجابي، لكنهن لم تشرحن ملابسهن في الفندق، إذا كان ذلك قد حدث بالفعل، لأن سيدة اسمها كاثلين كتبت أنها لم تستطع الإقامة في الفندق لأنها امرأة.

أغلب الذين مروا بالمكان كتبوا تعليقات سلبية جداً عنه، مركزين على وجود البق والقمل في الأسرة والأغطية بشكل مزعج، أحد المعلقين لم ير فقط الحُفَر التي أحدثها البق في المرتبة، بل رأى البق يتمخطر على جانب السرير، فقرر إلغاء إقامته واسترد فلوسه. وفي حين كتب مواطن أفريقي اسمه زازا معبراً عن خيبة أمله: "هل نحن حقاً في أمريكا؟ حتى في أفريقيا لدينا أماكن أفضل"، لكنه منح الفندق تقييماً "خمسة

من خمسة" ربما شفقة على الساكنين فيه. كتب نزيل آخر ساخراً: "كان الفندق كافياً لتنجح مهمة هاريسون فورد في فيلم The Fugitive" إشارة إلى الفيلم التسعيناتي الشهير الذي قال لي موقع IMDB إن بعض لقطاته صورت في المنطقة المجاورة للفندق، ولأنني لم أشاهد الفيلم منذ فترة، لم أتذكر هل صورت بعض اللقطات داخل الفندق بالفعل، أم أن كاتب التعليق كان يشير إلى الحالة المزرية للفندق التي تجعله مكاناً صالحاً للهرب من أعين الشرطة.

في تعليق آخر، كتب نزيل اسمه روبرت ميتزجر ساخراً: "ليس سيئاً إذا وجدت بقعة فيه ليس بها بق أو حشرات، وإذا لم يكن جارك مجنوناً أو مزعجاً، بالطبع هو ليس الهوليداي إن، لكن لأنه لا يوجد تكييف، أحضر معك مروحة صغيرة". نزيل اختار لنفسه اسم (موني بوي) كتب محذراً: "مكان فظيع، انسى، إوعى تعتب هنا"، أما النزيل الذي اختار لنفسه اسم (من رجل عصابة إلى راجل بتاع ربنا) فقد كتب: "مكان مقرف مليء بالحشرات، لن آتي إليه أبداً". نزيل آخر اختار تجهيل اسمه كتب قائلاً: "مستولو المدينة يكثرثون ببناء ناطحات سحاب وسجون بدلا من تسكين الغلابة"، في إشارة منه إلى سجن متروبوليتان الشهير الذي يقع في الناحية المقابلة من الشارع، والذي يتفرد عن غيره من سجون المدن بكونه بناية عالية الأدوار، أعلى حتى من سجن MDC الواقع في قلب حي بروكلين بمدينة نيويورك، وقد اشتهر سجن متروبوليتان إعلامياً بعد عام 2019 بسبب احتجاج المطرب

الشهير R. Kelly فيه عقب إدانته بجريمة الاعتداء الجنسي.

على الجانب الآخر، لم يعد الفندق معلقين أكثر تفهماً لطبيعته، كتب أحدهم ملخصاً أهمية المكان: "حشرات الفراش ليست مشكلة لمن يخافون من التجمد في الشارع"، وكتب نزيل آخر: "صحيح هو مقلب زبالة، ولذلك يريدون تدميره، بينما نحن نريد مثله في جميع أنحاء المدينة، ونريد أن يتم الاعتناء بالمجانين الموجودين فيه"، أما ويليام داروين فقد كتب: "ليس أحسن مكان لكنه أحسن من الشارع"، وهو ما يتفق معه بشكل ما راندال جيلبرت الذي كتب: "الناس الذين يعملون ويعيشون هنا من أفضل وألطف الناس الذين قابلتهم في حياتي، يوجد مناسبات خاصة تقام في المكان، لكني أعطيته نجمتين فقط بسبب الصراخ وحشرات الفراش"، ويؤكد عليه ريموند شاندلر الذي كتب: "ناس كويسين لكن الأوضاع سيئة"، في حين اكتفى جيمس هندرسون بالقول: "أحسن أسعار بين كل فنادق شيكاغو".

نزيل آخر كتب يصف الغرفة التي سكن فيها بأنها "باب وأربع حيطان، بس باب وأربع حيطان"، معبراً عن سخطه من تضيق الغرفة، لأن الفندق وضع فوق السرير سلكاً معدنياً يطلق عليه chicken wire لأنه يستخدم في مزارع الدواجن، ومع أن الفتحات الموجودة في السلك تساعد على استخدامها لتعليق الملابس على شماعات، خاصة أن أغلب الغرف لا يوجد بها دواليب، إلا أن صديقاً "أوروباً" قال لي إن الهدف من وضع هذا السلك هو تصعيب مهمة اليائسين الذين

قد يرغبون في شئق أنفسهم في مواسير التدفئة، ولذلك تم
تحجيم ارتفاع السقف بحيث يكون في طول الإنسان العادي.



حين سألت أكثر عن الفندق وبحثت عن تاريخه، فهمت
لماذا قال لي العجوز المحتقن إنه مقيم في الفندق منذ
سنوات، فقد اتضح أن الفندق مقسم إلى قسمين: قسم
يحتوي على غرف متناهية الصغر يسكنها النزلاء العابرون،
وقسم يحتوي غرفاً أكبر قليلاً يوجد بها دواليب، وهي التي
يسكن فيها البعض منذ سنوات، لدرجة أن هناك نزلاء اضطرت
تصارييف الزمان بعضهم لأن يقيموا في الفندق منذ ثلاثين
سنة وخمسة وعشرين سنة، وهؤلاء يدفعون في الغرفة
شهرياً مبلغاً يتراوح بين 340 دولار أمريكي للغرفة التي لا
يوجد بها دولايب، و440 دولار أمريكي للغرفة التي يوجد بها
دولايب وكومودينو، وهو رقم خرافي في ضآلته، خصوصاً

أن الفندق يقع في قلب شيكاغو، وبالقرب من المربع الذي يطلق عليه اسم Magnificent Mile أو الميل الذهبي الذي يحتوي على مقرات كبرى الشركات وأفخم المحلات، وهي المحلات التي كانت قد تعرضت للنهب في حوادث الشغب التي اندلعت في وسط المدينة في مطلع أغسطس 2020، قبل وصولي إلى المدينة بأسبوع، وبالطبع عليك لكي تدرك مدى ضالة ذلك المبلغ ألا تحسبه بعد تحويله إلى عملة بلادك، بل تتذكر أن دفع عشرة دولارات ونصف لإيجار غرفة في قلب شيكاغو يعتبر مبلغاً شديداً الضالة، ومع ذلك لم يكن نزلاء الفندق سيتمكنون من دفعه أصلاً، لو لم يكن أغلبهم يعملون في المطاعم والمحلات القريبة من الفندق.

وجدت المزيد من المعلومات في تعليق كتبه قبل عام نزيل غاضب يبدو أن لديه مشوار طويل مع المكان، لكنه كتب التعليق تحت اسم مستعار قائلاً: "من العار أن يدعو مكان كهذا نفسه فندقاً، هذا مكان يستغل حاجة الفقراء والمحتاجين، وموظف الاستقبال يقوم بخداع من يضطرون للإقامة هناك، الحمام قذر ومليء بالصراصير التي تم قتلها على الحائط، لا توجد ملايات نظيفة، ولا يتم تنظيف وتعقيم الغرف، ما عدا اللوبي وغرف موظفي الفندق، الشبابيك مغلقة دائماً، والمروحة الضخمة تدور طول الليل وأصوات السعال تسمعها بقوة طيلة الليل، واحد فقط من جهازي التدفئة يعمل، وحين يشتكي الناس، تتعامل معهم الإدارة بشكل عدائي، يمكن أن يصل إلى حد الإيذاء البدني، فتطلب منهم

أن يغادروا الفندق، أو يلجأ موظفوها إلى الدفاتر المزورة ليطالبوا منهم دفع مستحقات عليهم، حتى لو كانوا يمتلكون إيصالات تثبت أنهم دفعوا ما عليهم، المنظمات التي تقوم بمساعدة النزلاء، تكتفي بزيارة اللوبي حين تأتي إلى الفندق ولا تصعد إلى الغرف، ولذلك لا يعرفون حقيقة العار الذي يجعل أصحاب الفندق يحتالون على الفقراء والمحتاجين".



شجعني ذلك التعليق المشحون بالمرارة على البحث أكثر عن الفندق مستبعداً فكرة زيارته بسبب خوفي الهستيري من البقّ والبراغيث، وهو خوف يستند إلى خبرات مريرة تكونت لديّ من سنين العيش في الشقق المفروشة. بعد البحث والسؤال، عرفت أن للفندق وللمنطقة التي يقع فيها تاريخاً أكثر تركيباً مما ظننت، وكان أول ما وجدته تقريراً

مطولاً في موقع متخصص في تقديم معلومات عن أحياء شيكاغو ومربعاتها السكنية، بدأ حديثه عن المنطقة التي يقع فيها الفندق بالقول إن مجلة (شيكاغو للعمارة) اختارت في عام 2012 المربع السكني الذي يقع فيه الفندق: مربع 400 جنوب كلارك ستريت، بوصفه أسوأ مربع سكني في شيكاغو، ووصفته بأنه "كبسولة زمنية ولكن من النوع السيئ" إشارة إلى كونه من الأماكن القليلة في المنطقة التي احتفظت بنفس ملامحها منذ عقود طويلة، في حين طالت يد التطوير والتغيير جميع المربعات السكنية المحيطة به، ليتضح أن المربع السكني الذي يقع فيه الفندق قاوم بشراسة رغبات المطورين العقاريين منذ عام 2000، وربما لذلك لم يكن توصيف المجلة السلبي له منزهاً من أغراض شركات التطوير العقاري الداعمة والراعية للمجلة.

مع الوقت، لم تعد الهجمات المطالبة بهدم فندق الرجال المنسيين مقتصرة على بعض وسائل الإعلام، بل أخذت طابعاً أكثر جدية حين انطلقت من داخل المجلس المحلي لمدينة شيكاغو، حيث تعرض اثنان من أكبر فنادق الغرف المفردة هما فندق WILSON CLUB MEN'S HOTEL الواقع في شمال المدينة وفندق Ewing Annex الواقع في جنوبها، لهجمات شرسة من بعض أعضاء المجلس المحلي الذين طالبوا بهدم الفندقين لأنهما يسيئان إلى سمعة شيكاغو. كان آخر هذه الهجمات قد وقع في عام 2013 من قبل عضوي المجلس المحلي جيمس كايلمان وبرندان

رايلي، وحين قال الأخير في تصريح له عن فندق Ewing Annex إن "المواطن العادي في شيكاغو لن يقبل بأن يقوم بتسكين كلبه في مكان كهذا"، تعرض لانتقادات حادة بسبب ذلك التصريح المبالغ فيه، ونجحت منظمات أهلية متخصصة في دعم الفقراء والمشردين في شن حملة شعبية وإعلامية عرقلت قرار هدم الفندق وتشريد نزلائه الذين يمثل الفندق بكل عيوبه مكاناً أفضل لهم من "النوم في الشارع"، وهو ما قاله لي ذلك العجوز الغاضب، الذي لم أكن أفهم أن صراخه في وجهي يخبئ خوفاً من أن يفقد المكان الأخير الذي يمكن أن يلقيه من الشوارع وما يجري فيها من فظائع.

كان حديث المجلة المتخصصة في العمارة عن "الكبسولة الزمنية البشعة" التي يمثلها المربع السكني، يحيل إلى السمعة السيئة للمنطقة التي يقع فيها الفندق خلال السنوات التي سيطرت فيها المافيا على شيكاغو، واستحقت المدينة بسبب شخصيات عريقة في الإجرام مثل آل كابوني سمعتها الشهيرة في هذا المجال، لدرجة أننا في سنوات الصبا كنا نسمع أو نردد عبارة "زي ما نكون في شيكاغو" في معرض الحديث عن انتشار أخبار الجرائم التي تستخدم فيها الأسلحة النارية، قبل حتى أن نعرف مكان شيكاغو على الخريطة. كان يطلق على ذلك الجزء من المدينة الواقع جنوب شارع كلارك اسم Little Cheyenne نسبة إلى مدينة تقع في ولاية Wyoming في الغرب الأوسط، كان يضرب بها المثل في انتشار الجريمة وعصابات الخارجين

على القانون التي شكلت أسطورة الغرب الأمريكي المتوحش الواردة في آلاف الروايات والأفلام والحكايات الشعبية، وهو ما لم يفوته سكان مدينة Cheyenne الذين قرروا ثأراً لأنفسهم أن يطلقوا على أسوأ أحياء مدينتهم سمعة اسم Little Chicago.

المثير أن المبنى الذي يقع فيه الفندق ظل لسنوات ملكاً لعضو مجلس محلي اسمه مايكل كينا، كان معروفاً في العقود الأولى من القرن العشرين بضلوعه في أنشطة الجريمة المنظمة، وكان يحمل اسماً مستعاراً هو مايكل هينكي دينك Hinky Dink، كان الفندق وقتها يحمل اسم Alaska لكن اسمه تغير في الخمسينات إلى Ewing Annex ربما لكي يتخلص من سمعة مالكه السيئة، لكن أوضاع وأحوال الفندق نفسها لم تتغير، حتى بعد أن آلت ملكيته إلى الأخوين راندي وواين كوهين، الذين يمتلكان عدة محلات في نفس المربع السكني، من أبرزها محل الرهونات الذي تغطي إعلاناته واجهة المبنى، والذي أصبح معلماً شهيراً في عام 2013، بعد أن ظهر هو والأخوين كوهين في حلقات برنامج تلفزيون واقعي ناجح، يحكي قصص بعض المترددين على محلات الرهونات للتخلص من أزماتهم المالية الطارئة.

حين بدأ عضوا المجلس المحلي حملتهما الشرسة على الفندق في عام 2013، كان مارك براون أحد كتاب صحيفة (شيكاغو صن تايمز) التي تحظى بشعبية في المدينة، والذي تضامن مع نزلاء الفندق ضد حملة هدمه، قد أبدى تخوفه من

أن يقوم الأخوين كوهين باستغلال شهرتهما الطارئة لرفع سعر بيع الفندق، لكن الأخوين كوهين خيبا ظنه، ورفضوا كل عروض بيع الفندق التي جاءتهما بأرقام فلكية، وأكدوا أن الفندق سيظل مفتوحاً لخدمة أصحاب الظروف الصعبة وخصوصاً قدامى المحاربين الذين لا يصح أن يتركوا لكي يتشردوا في الشوارع، وقال راندي كوهين في تصريحات صحفية تعليقاً على ذلك: "لا أحد يهتم بهؤلاء، أنا أهتم بهم، صحيح أنني أخسر مادياً، لأنني أقوم بتأمين المكان، ونحافظ على نظافته، لكن لو أغلقنا الفندق سيكون هناك مشردون أكثر في الشارع، لن أسمح بذلك".

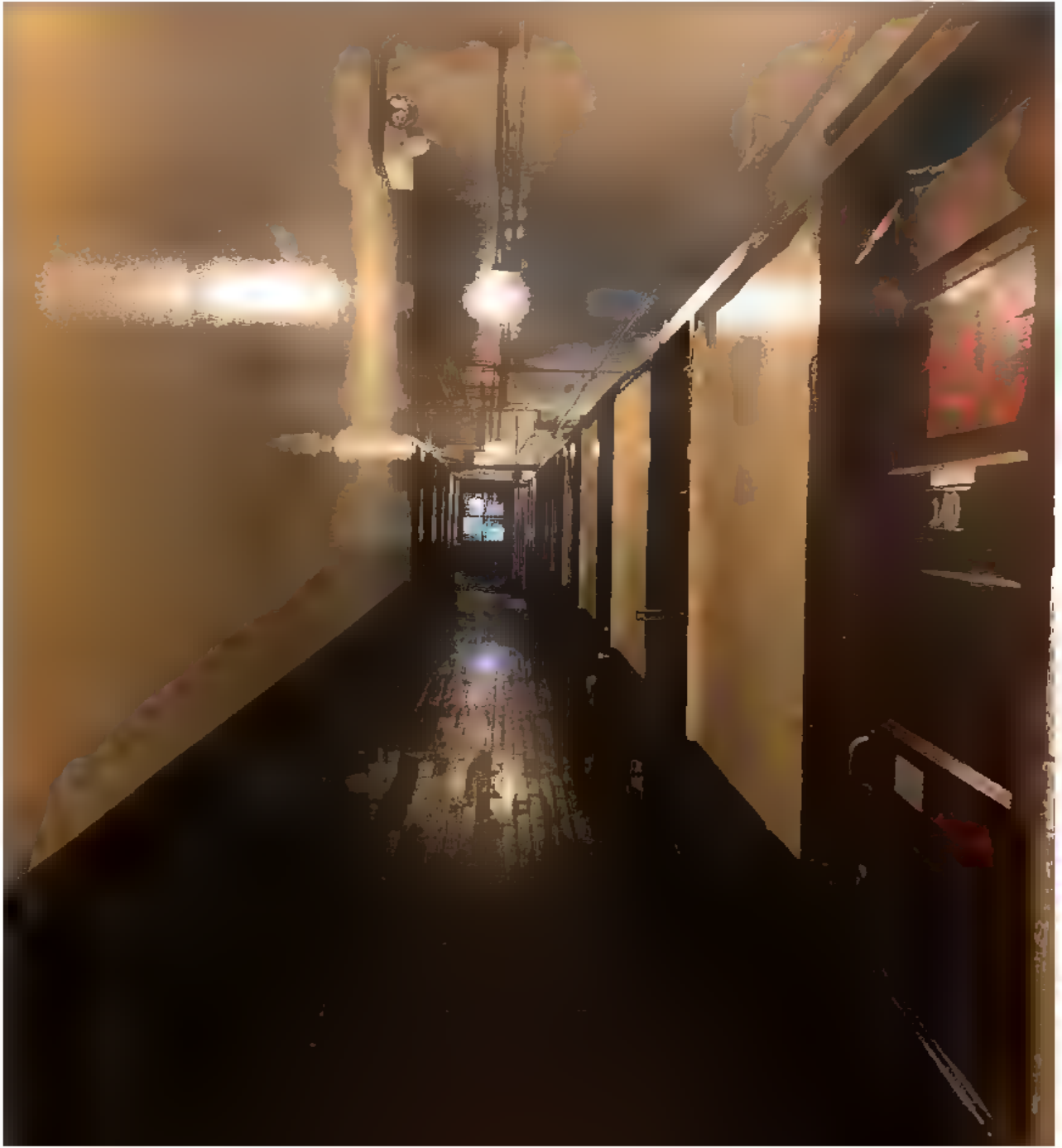
موقف الأخوين كوهين ساعد مسئولى المنظمات الأهلية في حملتهم للحفاظ على الفندق، خصوصاً أن إدارة المدينة لم تقدم حلاً بديلاً يمكن أن يلجأ إليها نزلاء الفندق بعد إخلائهم منه وبيعهم، وفي تصريحات صحفية له قال واين ريتشارد رئيس التحالف الداعم للمشردين: "لا يمكن أن تجعل الناس مشردين بدعوى تطوير المدينة، نزلاء الفندق قد يكونون في الدرك الأسفل بالنسبة للمسئولين عن الإسكان، لكنهم في النهاية ليسوا مشردين، لأنهم يدفعون إيجارهم بانتظام، وكثير منهم يعمل في أماكن قريبة من الفندق، بعكس بعض فنادق الغرف المفردة التي كانت موجودة في شمال المدينة، ولم يكن من يسكنها قادراً على دفع إيجاره بانتظام، ولذلك تم إغلاقها في النهاية".

انتقد واين ريتشارد عضوي المجلس المحلي الذين قاما

بالهجوم على المكان والتحقيق من شأن ساكنيه، دون أن يضعاً أقدامهما فيه ليشاهدا أحواله وأحوال ساكنيه، بينما تردد هو على المكان لعدة أسابيع، وقام بالتصوير مع نزلائه ونشر الفيديو الذي صورته على الإنترنت، حيث ظهر فيه نزلاء قدامى للفندق مثل تايرون بولوير المقاتل السابق في الجيش الأمريكي والذي عاش في الفندق لمدة أربع سنوات وأصبح يعتبره منزله معبراً عن ذلك بقوله: "نحن هنا نراعي بعض ونخاف على بعض، هذا هو منزلي، أنا لست عاراً على المجتمع، أنا فخور بنفسي وهذا هو الوطن بالنسبة لي". هناك أيضاً كليفورد كوستيللي الذي خسر منزله بسبب عدم قدرته على تسديد ضرائب الملكية، وبعد إصابته بمرض في الجهاز التنفسي هجرته زوجته وسافر ابنه إلى ولاية أخرى، ولأنه يحتاج إلى جهاز تنفس باستمرار، كان الفندق بالنسبة له مكاناً لا غنى عنه لاستمرار حياته، وهو يقول عن تجربته في الإقامة الطويلة فيه: "لا أرى أن المكان سيئ، هو أفضل من الشارع، نعم تحدث هنا خناقات عادية لكن لا توجد معارك مخيفة تشكل خطراً على الإنسان كالذي يمكن أن يحدث في الشارع، لدي صداقات هنا ببائعي صحف وعمال في مطاعم، في النهاية نحن بشر مثل غيرنا، لسنا مشردين، لدينا سقف فوق رؤوسنا وأموال في جيوبنا تكفي لدفع إيجار مكان نظيف".

حين ذهب محرر موقع (Block Club Chicago) لزيارة الفندق قبل أن يكتب عنه، التقى بمدير الفندق مايك بوش

الذي يقيم فيه منذ خمسة وعشرين عاماً، والذي وصف الفندق أنه "مجتمع صغير يحرص أفرادُه على بعضهم ويتضامنون مع بعضهم البعض. هناك أشخاص في هذا المكان مقيمون منذ 30 سنة، البعض مقيم هنا منذ عقد من الزمن، لدينا أنواع مختلفة من البشر تسكن هنا، سائق أتوبيس نقل عام، طلبة، عمال مطاعم وفنادق"، وتحدث عن تلقي نزلاء الفندق مساعدات وأطعمة من بعض المطاعم القريبة في المنطقة، وتلقيهم مساعدات من منظمات خيرية، بالإضافة إلى قيام أشخاص عاديين بالمرور على الفندق والتبرع بأغذية وملابس، وحين تجول محرر الموقع في أروقة الفندق الضيقة بصحبة مديره، وجد أغلب الغرف متناهية الصغر مشغولة بالسكان الهادئين المنشغلين بأحوالهم، ووجد المبنى نظيفاً بما فيه الحمامات العامة وغرفة الجلوس المشتركة التي تم وضع تلفزيون فيها ليشارك النزلاء في مشاهدته.



في حديثه المصور، يقول مايك بوش عن فندقه ونزلائه: "كما ترون، المكان ليس مخيفاً، لا يوجد أشخاص مرميون على الأرض وإبر ضرب المخدرات تتدلى من أذرعهم، لكي تحجز غرفة تحتاج إلى أن تقدم إثباتاً لدخلك، حتى لو قدمت رخصة بائع متجول، بعض الذين يغادرون الفندق حين تتحسن ظروفهم يعودون لزيارة أصدقائهم المقيمين فيه، هناك شخص كان يعمل في السكة الحديد، بعد أن قام

بالطلاق حكمت عليه الظروف أن يسكن هنا، كان يفكر في قتل نفسه بعد أن وصل إلى هنا، تحدثت معه وأقنعتة ألا يفعل، وبعد أن تحسنت ظروفه وغادر الفندق، عاد بعد فترة ليخبرني أنه قام ببناء منزله الخاص، نزيل آخر كان طالباً واضطر للعيش هنا لكي يكون قريباً من كليته، ولم يكن يستطيع الإقامة في مكان أفضل، الآن تخرج وأصبح لديه البيزنس الخاص به، في النهاية على الناس أن يتذكروا أن ما يفصلهم عن الإقامة هنا عدم حصولهم على مرتب شهر أو شهرين".



ذكرني فندق الرجال المنسيين هذا، بفيلم جميل وحزين من إنتاج عام 2001، صنعه المخرج مايكل دومينيك عن فندق مشابه يقع في الجزء الجنوبي من حي مانهاتن بمدينة نيويورك، اسمه Sunshine Hotel تأسس في عام 1920 وتخصص عبر السنين في تقديم خدمة فندقية بأسعار زهيدة للغاية. رصد الفيلم بعض حملات التضامن الشعبي والإعلامي التي بدأت في التسعينات مع الفندق المهدد بالإخلاء والهدم،

ونجاحها في عرقلة سعي المطورين العقاريين للاستيلاء على المبنى وطرد ساكنيه الذين التقى المخرج بهم وحكى بعض قصصهم الحزينة والمدهشة، واختار أن يفتح حديثه عنهم بمقولة بديعة للكاتب Charles m. pepper تقول: "كل مدينة كبيرة بها أخشاب طافية على السطح، ليست إلا حطام الرجال الذين جرفهم إليها تيار اليأس والإحباط، أجسادهم جائعة وأرواحهم ظمأى".



حين بحثت عن مصير فندق (سنشايين) الذي ظل بعض نزلائه مصممين على الإقامة فيه، لأنهم لا يملكون خياراً آخر، قرأت أنهم خسروا قضيتهم في عام 2017، لأن صوت التطوير العقاري كان أقوى وأكثر نفوذاً، وقد حدث ذلك

في نفس العام الذي تم فيه بيع فندق WILSON CLUB
MEN'S HOTEL لشركة تطوير عقاري، وهو ما تابعه
بالتأكيد سكان فندق Ewing Annex الذين يعرفون أن
الأطماع ستظل قائمة في مقر إقامتهم الصامد بمفرده أمام
زحف التطوير العقاري المستمر، ولذلك فهم مهددون في أي
لحظة بفقدان السقف ذي الإضاءة البشعة والحيطان الضيقة
المتسخة التي تحميهم من النوم في الشارع في برد شيكاغو
القارس، خاصة أن الشوارع المحيطة بالفندق تمتلئ بعشرات
المشردين الذين لا يمتلكون رفاهية دفع عشرة دولارات في
الليلة، والذين ينظر الساكنون في فندق Ewing Annex
إلى حالهم فيروونه كابوساً مرعباً يحاذرون العيش فيه، بينما
يرى المشردون الحياة في فندق الرجال المنسيين حلماً بعيد
المنال، لأن الطفو وسط البق أرحم بكثير من الغرق أثناء النوم
في الطلّ، ولأنك لو مِت على قارعة الطريق ستظل ملقاً
هناك حتى تفوح رائحتك وينتبه إليك فاعل خير أو كاره
رائحة فيبلغ عنك السلطات المعنية، أما لو مِت داخل الفندق
ستجد من ينتبه سريعاً إلى موتك ويتصرف في جثتك، على
الأقل لكي تترك المكان لغيرك من الرجال المنسيين.



جناب اللواء وأرخص دكتوراة في العالم

كان اكتشافاً مريباً، لكنه كان في الحقيقة اختباراً مبكراً
لقدرتي على الرفض التي أدين لها بالكثير والحمد لله.

بدأت الحكاية مع بداية الإجازة الصيفية التي أعقبت عامنا
الدراسي الثالث في كلية الإعلام، حين دعانا أستاذنا - الذي
كنا نُبجله لتميزه العلمي ولطفه البالغ في التعامل معنا - إلى
لقاء عاجل بمكتبه الجديد الذي افتتحه في أحد شوارع
"وسط" القاهرة، فظننا أنه ربما سيفتح مركزاً على الضيق
للخدمات الصحفية والإعلامية وأنا مدعوون للعمل فيه،
خاصة أنه كان يعرف أنني وصديقي الأعزّ نعمل في بعض
مكاتب الصحف الخليجية في القاهرة والتي كانت وقتها
مصدر الرزق الأبرز لأغلب صحفيي مصر من مختلف الأجيال،
لكننا اكتشفنا أن الموضوع ليس فيه صحافة ولا إعلام، وأن
أستاذنا المبجل قرر أن يتحول إلى مقاول أنفار في سوق
البحث العلمي.

دون مقدمات، قطع دكتورنا عرق الحياء الأكاديمي وسيح
دمه، وقال إن المهمة التي يريدنا فيها ليست صعبة على
الإطلاق، ومع ذلك "مكسبها حلو وأبرك من التنطيط بين
مكاتب الجرايد عشان شوية ملايم ما تليقش بيكم"، وحين
قرأ على وجوهنا أن دخلته كانت أنشف من اللازم، قرر العودة
إلى الديباجة التي كان قد تخلّى عنها، وقال إنه في الآخر
"من السيدة زينب"، ولذلك يحدثنا بلغة أولاد البلد الذين لا

يحبون الف والدوران، وأنه لم يختارنا لهذه المهمة فقط لأننا أكفاء ومنجزيين، بل لأنه أيضاً يعق في رجاحة عقولنا وأننا لن نفهمه غلط، وهو ما ترجمناه فوراً إلى أنه يحسن الظن بنا ويرجو أننا إذا رفضنا عرضه السخي لن نسيء إلى سمعته المرموقة ونسيح له في الكلية وسط زملائنا وزملائه.

قبل أن يروح بالنا لبعيد، قال أستاذنا إنه أنشأ المكتب مع شريك له من أساتذة كليتنا، للقيام بخدمات بحثية للباحثين العرب والأجانب الذين لا تتيح لهم ظروفهم المجيء إلى القاهرة لإنجاز ما تتطلبه دراساتهم الأكاديمية من زيارات إلى المكتبات والأرشيفات ودار الوثائق ومعهد المخطوطات العربية، بالإضافة إلى زيارات لبعض الشخصيات التي يتطلب الأمر مقابلتها والحصول منها على إجابات أو توضيحات، وأضاف أنه يتعاون في هذه المهمة مع زملاء له يلعبون دور الوساطة مع الباحثين، وحين أضاف إن المسألة ليست بعيدة في جوهرها عما نقوم به في عملنا في المكاتب الصحفية العربية، استدرك صديقي وقال له بجدية إن هناك فارقاً مهماً وهو أن أسماءنا لن تنشر على الأبحاث التي سنشارك فيها، فأثارت إجابته غضب الدكتور وقال إنه لن يرضى أبداً بأكل حقوقنا الأدبية، ولذلك سيصر على توجيه شكر لنا في مقدمات الأبحاث والرسائل العلمية التي سنشارك فيها، مشدداً على أن مشاركتنا ستقتصر على مهام مساعدة ومحددة، لكن الجهد البحثي الأكبر سيبذله صاحب الدراسة الذي لم تسمح له الظروف بالقدوم إلى القاهرة.

كان المقابل المادي الذي عرضه من أجل إنجاز المهمة الأولى فاتحاً للشهية ومسكناً للتحفظات التي تشجع عليها النفوس النزقة، فقد كان يعادل قيمة عمل ستة شهور في "أجعصها مكتب عربي"، والمهمة نفسها كانت جديدة ومثيرة للفضول: المشاركة في تحقيق مخطوطات سيحصل بها باحثون خليجيون على الماجستير، ومثيرة للفخر أيضاً لأنني توهمت خطأً مني أنني سأنتقل خبط لزق من مجال التحقيقات الصحفية إلى مجال تحقيق المخطوطات لأصبح زميلاً لـ "كُبارات المجال" عبد السلام هارون والشيخ محمود شاكر والدكتور إحسان عباس والدكتور محمود الطناحي وغيرهم من الأفاضل الذين كنت أعتز باقتناء الكتب التي تحمل توقيعهم.

لم تستهوَ المهمة صديقي الذي يستثقل ظل كتب التراث، لكنني رجوته أن يؤجل اعتذاره لكيلا تطير منا المهمة التي نويت أن أستقدم الفتاة التي أحبها لكي تشاركنا فيها، فتكون تلك فرصة لكي أراها في شهور الصيف التي يعزّ فيها اللقاء، وتعهدت لصديقي بأنني سأقوم عنه بأغلب العمل مع الاحتفاظ بنصيبه في المكافأة، حتى تحلّ فتاة أوهامي خلفاً له، وحاججث عن حق بأن التردد على معهد المخطوطات العربية لساعات محددة كل يوم، أرحم وأبرك بكثير من التنطيط طيلة اليوم بين المسارح واستوديوهات التصوير "لاستلقاط" أخبار زهيدة الثمن والمضمون، والتحايل على الفنانين والفنانات ومساعدتهم ليتغاضوا عن كوننا طلبة

نكرات، ويسمحوا بمنحنا حوارات صحفية لا يعرفون - ولا نعرف - من سيقراها.

حين اقتنع صديقي بما قلته وذهبنا في أول مهامنا إلى شارع محيي الدين أبو العز الذي يقع فيه المعهد التابع لجامعة الدول العربية، وبدأنا في استخدام أجهزة الميكروفيلم الذي يحتفظ بعدد مهول من المخطوطات، اكتشفنا أن المهمة أغلّس وأصعب مما تخيلت، وكنت قد اكتشفت قبل ذلك أن المهمة هي في الحقيقة بعيدة عما يقوم به الأكابر من محققي التراث، فقد أعطانا الدكتور نسخة مصورة من مخطوطات دواوين شعرية متناهية القدم حصل عليها الباحثون الذين نعمل معهم من المكتبة الظاهرية في دمشق ودار الوثائق في إسطنبول، وكان علينا أن نقوم بمقارنة النسخ المصورة التي لدينا بالنسخة الموجودة في مصر، ونرصد أي اختلافات بين كافة النسخ، حتى لو كانت نقطة أو فاصلة، أما كل ما يعقب ذلك من تفسيرات للاختلافات أو شرح للمفردات أو السياقات، فهو أمر لا علاقة لنا به، ولأننا كنا ملزمين بإنجاز حد أدنى من الصفحات كل يوم، فقد اتضح لنا سريعاً أن ما سنكسبه من هذه المهمة، سيروح أغلبه على علاج العيون والرقاب وعظام الظهر وعضلات السواعد والأكتاف التي ستلعبنا بعد عمر قصير.

قبل نهاية الصيف، وحين فشلت قصة حبي البلاء، بدا أن التنطيط بين المسارح والاستوديوهات ألد وأمتع بكثير من "تمقيق" العيون في الخطوط المبهمة والحروف

المدغمة، ولذلك قررت اللحاق بصديقي الذي "فيّص" وأعلن استسلامه بعد أول أسبوع، واعتذرت للدكتور الذي استقبل اعتذاري بابتسامة كاظمة للغيظ، وقال إن اعتذاره أكد له صحة انطباعي عن كوني فقيراً يفضل الهلس على الانضباط، وأن الحياة الأكاديمية التي يرجح أن ألتحق بركابها بوصفي الأول على دفعتي، تتطلب مني التدريب على التصاق المؤخرة بالكروسي واستعواض ربنا في العيون والظهر والرقبة والذراعين، ولم يكن من اللائق أن أصرّحه بأنني أؤمن أن "الحياة هي في مكان آخر" بعيداً عن الجامعة وعقمها، فاكثفت بمشاركته في لوم عزيمة الرخوة وهمتي الكسولة ومؤخرتي الملولة، واستأذنت في الانصراف قبل أن يعود لوصلة بايخة من اللوم والتقطيم، لاعناً شقة مكتبه التي ظننت أنها ستكون ملعباً لغرامي الملتهب، فلم أنل منها إلا خيبة الأمل وطلوع ثمانية أدوار كل مرة، لأن الدكتور وشريكه رفضا ثمانية منهما الاشتراك في دفع فلوس الأسانسير.

لم أكن أعرف أن المخطوطة اليتيمة التي شاركت في تحقيقها ستنال إعجاب الباحث الخليجي، لأنني بفعل هوس التجويد الذي يملكني على الدوام، قررت أن أتصدى لكتابة أوراق تشير إلى باقي ما يوجد لمؤلف المخطوطة من مخطوطات في المعهد وفي دار الوثائق والكتب القومية، ناقلًا بعض ما جاء عنه من معلومات في كتب أخرى وجدتها في مكتبة المعهد، اعتقدت أنها ربما لا تكون متاحة للباحث

في مكاتب بلاده، وهو ما أسعده فطلب من أستاذي وشريكه أن يوصلا لي تقديره مصحوباً بمكافأة إضافية، وهنا قرر شريك أستاذي أن يستغل الفرصة، فاتصل بي بعد تخرجي مباشرة ليعرض علي القيام بكتابة رسالة دكتوراة لباحث خليجي تأخر إنجازها بسبب مشاغله العديدة في البيزنس، ولأن الرسالة ستكون في مجال الإعلام، ملعبي يعني، فلن يكون إنجازها صعباً على جهنم مثلي تخرج للتو بترتيب الأول على دفعته وبمرتبة شرف شجعت الباحث على تفضيل التعاون معي في مهمة لا علاقة لها بالشرف.

حين تلقيت ذلك العرض في ذات المكتب اللعين، كان أستاذي وشريكه قد تحسنت أحوالهما، فاشتركا في الأسانسير، وجذا أثاث المكتب الذي وجدته عامراً بطلبة مستجدين ليس لديهم فرص أفضل تعزز قدرتهم على الرفض، لكن أستاذي نفسه لم يكن موجوداً يومها، ليس لأنه كما عرفت فيما بعد كان يتشكك في قبولي للعرض الكريه، بل لأنه لم يرد أن يرتبط حضوره بعرض صفيق لا يمكن تبريره أو الدفاع عنه، أما شريكه فقد كان يظن أنه لن يحتاج إلى تبرير أو تنظير، بمجرد أن أسمع رقم الخمسة وعشرين ألف جنيه الذي عرضه ثمناً للقيام بالمهمة.

كان من شأن ذلك المبلغ أن يغير حياتي بشكل كامل في تلك الأيام من صيف 1995، يعني، أقلها كان سيتيح لي شراء شقة لا بأس بها في الحارة التي كنت أسكنها في الجيزة، ويخرجني مؤقتاً من الضنك الذي وعدني شريك أستاذي

أنني لن أعود إليه أبداً لو "سببت له نفسي"، وهي عبارة قالها بجدية تامة، لكنني رأيت على الفور قرنين نابتين من رأسه، كالذين وضعهما المخرج الكبير صلاح أبو سيف خلف محبوب عبد الدايم بطل فيلمه (القاهرة 30)، فانفجرت في ضحك حاد وضعت فيه غضبي وإحساسي بالقرف والإحباط، وغادرت المكتب مسرعاً ليكون آخر ما سمعته من شريك أستاذي عبارة: "طب إيه رأيك نخليهم ثلاثين؟".

غضبت من نفسي لأنني اكتفيت بالخروج من المكتب مكتفياً بضحكة هازئة، دون أن أسمع شريك الدكتور كلمتين بايخين في جنباه وجناب أستاذي الذي وافق على أن أوضع في موقف حقير كهذا، أو لعلني غضبت أكثر من نفسي الأمانة بالـ "سو" لأنها لم "تختشي على دمها"، فسارعت بتذكيري بوضعي المادي المتهبب الذي يمكن أن يغيره عرض كهذا يحلم به أي شاب في سني، وكان يمكن ألا أحبكها يعني، وأعتبر رسالة الدكتوراة تلك بمثابة "مية وخمسين تحقيق صحفي في بعض" من ضمن التحقيقات التي أنجزها وأبيعها لمكاتب صحفية لن تضع اسمي عليها، مع فارق مهم أنني لن أحصل على الفتات هذه المرة، بل على خميرة حلوة ستساعدني على التفرغ لمشاريعي الأدبية التي أحلم بها وأعلم أن السعي وراء لقمة العيش ودفع الإيجار لن يخلي بيني وبينها لسنين.

كنت محتاجاً لإسكات وسواس نفسي الخناس الذي لم يكتف بفكرته العامة القوية، بل أخذ يفصصها إلى أرقام وأشكال توضيحية، جامعاً بين أدوار المغوي والسمسار

ومدير الأعمال، ولم يكن هناك أفضل لمساعدتي على إخراسه من أصدقاء جدعان دعوتهم إلى المقهى، ليشاركوني الاشمئزاز مما حدث، ولعن سنسفيل الزمان الرديء الذي خرب الذمم ورخص المعاني، ومع أنني كنت الوحيد الذي تلقى عرضاً رسمياً لبيع مبادئه، إلا أننا تشاركنا الفخر بنفوسنا الأبية التي ترفض البيع وتأبى الدنية، ولم أكن أعلم أن أحد الشاخرين والمتفاخرين في تلك الجلسة سيحمل إلي بعد أسابيع قليلة عرضاً مشابهاً لذلك الذي لعنا عرض عارضه حتى قلنا بئس.

لم ينس صديقي اللئيم وقائع سهرتنا الصباحي، ولذلك صاغ عرضه الجديد في قالب درامي افتتحه بنزر يسير من ذم الزمان وقدر أكبر من لعن تصاريفه التي تكسر إرادة الناس وتجبرهم على الانحناء لعواصف الدهر والتعایش مع بعابيص الزمان، ثم دخل في الموضوع حاكياً عن اللواء ذي الشنة والرثة الذي يعمل تحت إمرته في صحيفة (القوات المسلحة) التي يشارك صديقي في تصميمها وإخراجها الفني، وكيف جاء جناب اللواء إليه متجهماً، وطلب منه أن يوصله في سرية تامة بباحث إعلام المعني وابن حلال ليساعده في إنجاز رسالة الدكتوراة التي تقدم لنيلها من كليتنا الموقرة، والتي تمنعه مشاغله العسكرية من إنجازها في سرعة أصبح يحتاجها لتحسين موقفه وسط قادته ومنافسيه وحاسديه الذين لا يكفون عن ضرب الزئبب والمهاميز فيه ليل نهار.

حين استبق صديقي كل ما يمكن أن أقوله له من لوم

وتأتيت وتقطيم وقاله بنفسه عن نفسه، ظننته راغباً في الفضفضة ليس إلا، وأخذت أواسيه وألتمس له العذر لأنه بحكم طبائع الحياة العسكرية، لن يستطيع أن يقول للجنرال بعضاً مما قلناه لبعضنا في ليلتنا تلك، وحين طمأنه كلامي المتعاطف، ربّت على كتفي بود، وطلب مني أن أشكر الله لأنني لم أدخل الجيش وأوضع في اختبار كهذا لم يكن ممكناً أن أقابله بما هو أقل من الـ "تمام يا افندم"، ثم باغتني وطلب مني أن أساعده في إقناع الباحث الذي وقع عليه اختياره لإنجاز المهمة "القومية" التي ستكون سبباً في لطع الدال والنقطة قبل اسم سيادة اللواء في أسرع وقت ممكن.

كان يتحدث بالتحديد عن صديقي الأريب الذي لم يستهوه تحقيق المخطوطات، والذي كان يقضي وقتها أتعس أيام حياته في مركز التدريب الكائن في معسكر كسفرية في محافظة الإسماعيلية، حيث أوقعه حظه الذكر هناك في قائد شزاني مكتظ بالعقد والكلاكيك لم تعجبه شمخة صديقنا التي ظهرت على وجهه ذات مرة، فقرر أن يتسلى بكسره والعكنة عليه بأشكال متعددة كان ألغنها رفض طلباته بمغادرة مركز التدريب لزيارة أمه مريضة الكبد التي تم إسعافها إلى المستشفى بعد تدهور حالتها الصحية، وكانت أمه سيدة من أجمل وأطيب من خلق الله من أمهات وكنت أعلم تأثيرها الشديد بابتعاد ابنها عنها في ظل ظروفها الصحية السيئة، وهو وضع تعيس كان سيتغير على الفور لو قبل صديقنا بالمهمة الموكلة إليه، والتي رجاني عارضها اللعين أن أقوم

بإيصالها إليه في أقرب زيارة، لكيلا يرتبط رفضه المحتمل لها بشكل شبه رسمي بسيادة اللواء أو أحد من طرفه، وحين بدت ملامح التردد عليّ قال إنني لن أسامح نفسي لو ماتت أم صديقي قبل أن يراها أو يكون إلى جوارها، وأنني في النهاية لا يجب أن ألوم نفسي لأن "ناقل الكفر ليس بكافر"، وحين ذهبت إلى زيارة صديقي في كسفرية في اليوم المخصص للزيارة، ونقلت له الرسالة، لم يأخذ العرض طبعاً غلوة في تفكير صديقنا الذي فرّج علينا الناس يومها، حين انفجر في بكاء حاد لأنه سيرى أمه قريباً ويرتاح من رزالة قائده اللعين.

بالفعل، قضى صديقي باقي فترة التجنيد بين بيت أمه المريضة ومكتب سيادة اللواء الذي كان يطلع على ما يكتبه له صديقي في رسالة الدكتوراة أولاً بأول، فيعني على براعته العلمية وسرعته في التأليف والتحرير و"التشطيب" بكفاءة فائقة نالت إعجاب أعضاء لجنة تحكيم الدكتوراة من الأساتذة الأجلاء الذين تناوبوا العناء على براعة اللواء الدكتور والمعيته ونظرتهم العسكرية العاقبة التي أثرت ميدان البحث العلمي في مجال الإعلام العسكري، ومنحوه الدرجة العلمية الرفيعة في ليلة مفترجة شرفها بالحضور قاداته وأسرته وأحبابه والراغبون في تملقه من المدنيين والعسكريين، ولم تخل صحيفة أو مجلة من أخبار تلك الأمسية العلمية المرموقة التي حاولت عابثاً إقناع صديقي بحضورها، ليرى ثمار تعبها في الدكتوراة التي نالها دون

ماجستير، ويفرح بتقريظ الأساتذة لمجهوده، لكنه كان أعقل من أن يستمع لوسواسي الهجّاص، وإن كان صديق خبيث لنا توقع أن يكون جناب اللواء قد حرم صديقنا من حضور المناسبة وهدده بكسر رجله إن رآه في المكان وما يجاوره.

"ودارت الأيام، ومرت الأيام"، وتضاعفت نجومية السيد اللواء الدكتور، وبعد أن تقلّب على عدد من المناصب الإدارية الرفيعة مصحوباً في كل منصب بطنطنة إعلامية مستمرة، تم تعيينه أخيراً في منصب محافظ وكان الكل يعلم أن ذلك سيكون موقعه الذي يسبق توليه الوزارة أو برئاسته الحكومة التي لن ينقذها إلا شخصية فذة مثله، أما صديقي فقد ترك البحث العلمي والصحافة والإعلام والبلد بحالها، وسافر ليعمل مترجماً في شركة دولية مرموقة لكي يتمكن من الإنفاق على زوجته وأبنائه، ولم يرجع إلى البلاد من ساعتها.

حين أوشكت أن أنسى قصة صديقي مع جناب اللواء الدكتور، اتصل بي أحد أصدقائي، ورجاني أن ألتقي بشاعر وأديب سيأتيني من الصعيد الجوّاني حاملاً ملفات مهمة تضم وثائق ومستندات تكشف فساد السيد الدكتور اللواء، متعشماً أن أنشر بعضها في العمود الذي كنت أكتبه كل يوم في صحيفة (الدستور) في عام 2007، وحين التقيت بالشاعر الصعيدي، أبدى تأثره وامتنانه لأنني تحمست للقاءه ورؤية ما لديه من وثائق، لأنه كان يخشى أن أصده كما صده آخرون كان يتوسم فيهم الخير، لمجرد أنهم سمعوا أن ما

سيأتيهم به من وثائق يمس سيادة الدكتور اللواء المهيب.

هالني ما استمعت إليه من وقائع فساد لم يكن ممكناً أن أنشر منها إلا المقترن منها بالوثائق والمستندات، ومع أنني لدواعٍ قانونية نشرته على هيئة رسالة وصلتني من الشاعر والأديب الصعيدي، وطلبت من اللواء "الدكتور" أن يرسل رده عليها لكي أقوم بنشره في عدد قادم، إلا أن اللواء الدكتور المهيب قرر التصعيد وقام بتقديم بلاغ عاجل في مكتب النائب العام اتهمني فيه أنا والشاعر بسبه وقذفه والإساءة إلى مكانته العسكرية والاجتماعية والعلمية، وهو اتهام تطلب مني قدرة هائلة على جهاد النفس ومنعها من الشخر في حضرة وكيل النائب العام الذي كان من حسن حظي أن يكون من المعجبين بأفلامي، ولذلك عاملني برفق بالغ، ونصحني لوجه الله أن أخلي مسؤوليتي عن القضية، وأقول إنني لست مسئولاً عما ورد في رسالة الشاعر الصعيدي، وإنني فقط أتحت له فرصة النشر التي أتيحها لكل من يقصدني من المواطنين، لكنني أكنّ خالص التقدير والاحترام لسيادة اللواء الدكتور وأقدر مكانته العسكرية والاجتماعية والعلمية.

لم يمر وقت طويل حتى اكتشفت أن اللواء الدكتور كان ينتظر مني أن ألتزم بنصيحة وكيل النيابة التي لم يكن وراءها رقة أو رفق بل اتفاق مسبق، ليسهل عليه افتراس الشاعر الصعيدي بدلاً من الدخول في خصومة معي ومع (الدستور)، ولم يكن يتوقع أن أعلن تضامني مع الشاعر الصعيدي، وأقول إنني أتحمل المسؤولية كاملة عن كل ما

نشرته، لأنني تحققت من وجود وثائق ومستندات تثبت صحته، وإلا لما كنت نشرته، وأضيف أنني كنت أتمنى أن يتعامل اللواء الدكتور بصورة تليق بكونه حاصلاً على الدكتوراة في الإعلام كان يجب أن تجعله أحرص على تنوير الرأي العام واحترامه، فيقوم بالرد على تلك الاتهامات بشكل مفصل بدلاً من أن يستسهل اللجوء إلى النيابة، ولم يفهم وكيل النيابة سر حماسي للتصعيد، ورفضى الإسهام في تلبيس القضية للشاعر الذي قال اللواء الدكتور في بلاغه إنه ليس سوى موظف غير كفء يحقد عليه ويرغب في تشويه إنجازاته.

بعد ساعات من خروجي من مكتب وكيل النيابة، اتصل بي صحفي كبير من الأصدقاء "الأنتميم" اللواء الدكتور، حاملاً إلي عتاب جنابه الذي يكن لي كل تقدير واحترام ويحب القراءة لي ومشاهدة أفلامي، ولذلك لم يكن يتوقع أن أتضامن مع حاقدين يرغبون في تشويهه، فقلت للصحفي الكبير إنني لم أفعل شيئاً أبعد من ممارسة عملي ككاتب، وأن ما نشرته عن جناب اللواء سبق أن نشرت مثله عن مسئولين كان من بينهم قبلها بأسبوع رئيس مرفق مياه الشرب في القاهرة الكبرى، ولا أدري لماذا طُق في دماغي أن أضيف قائلاً إنني لست شريكاً في مؤامرة كما يتصور جناب اللواء الذي يوجد بيني وبينه أصدقاء مشتركون أبرزهم فلان الفلاني الذي كان يعمل معه في صحيفة القوات المسلحة، وأنه يستطيع أن يسألهم عني، ولم أشأ ذكر اسم صديقي الذي قام بكتابة

رسالة الدكتوراة، لأنني لم أكن متأكداً وقتها هل عاد إلى مصر أم لا زال خارجها، ثم كررت عرضي بأن يرسل اللواء الدكتور رداً شافياً على ما نشر في حقه، بدلاً من أن يلجأ إلى النيابة، وختمت حديثي بالإشارة إلى اتفاقي مع المحامي القدير عصام سلطان لكي يتولى مهمة الدفاع عني، وأنني ذاهب إليه الآن بما لدي من وثائق ومستندات تخص القضية.

يومين والثالث، واتصل بي الصحفي الكبير ليبلغني أنه أقنع سيادة الدكتور اللواء بأن مقاضاة كاتب صحفي أمر لا يليق به، خاصة أنه يستطيع أن يحصل على فرصته في الرد كاملة، ولذلك قرر أن يسحب البلاغ الذي قدمه في حقي، وسيتخذ الطريق الإداري لشكوى الشاعر الذي اتهمه بالفساد، وسيرسل إلي خطاباً يتضمن رداً على ما جاء في رسالة الشاعر، فأعلنت له عن استعدادي لنشره، وحين عرض علي أن يرتب للقاء مع اللواء الدكتور للتعارف وتبادل وجهات النظر، شكرته على لطفه، وطلبت منه أن يخليها بظروفها التي كان يعلم معلما أعلم أنها لن تأتي.

تركت صحيفة (الدستور) بعدها بفترة قصيرة، لكنني تابعت في الصحف تصريحات نارية أدلى بها اللواء الدكتور، هاجم فيها الحاقدين عليه والمشككين في نزاهته، وتوعدهم بالملاحقة القضائية، وانقطعت عني أخبار الشاعر الصعيدي الذي اتضح بعد قيام ثورة يناير صحة ما وجهه من اتهامات للواء الدكتور الذي نشرت الصحف والمجلات أخبار التحقيقات معه في أكثر من قضية فساد تورط فيها هو

وابنه، ليتم حبسه على ذمة تلك القضايا ويحال إلى المحاكمة الجنائية، ويثبت أن ما قاله الشاعر الصعيدي لم يكن سوى غيظ من فيض فساد عارم عرمرم.

لم يكن غريباً بعد عودة البلاد لمجاريها، أن يخرج سيادة اللواء الدكتور المهيب كالشعرة من عجين قضايا الفساد التي تم تضبيبها وتستيفها، وأن يعود ليحتل شاشات التلفزيون بوصفه الخبير الاستراتيجي اللوذعي الذي يجمع بين الرؤية الأكاديمية والخبرة العسكرية، وهو ما أثار استغراب بعض المثقفين "الطيابة" المصدقين حتى الآن في وهم الدولة الشامخة، والذين قرأت لبعضهم تساؤلات عن سر السكوت على ما يقوله اللواء الدكتور في برامج التلفزيون من هبد مثير للسخرية والشفقة، لكن استغرابهم زال وتحول إلى زعر موجب للصمت، حين رأوا جناب اللواء يجلس في حضرة الرئيس القائد المفدى في أحد احتفالات نصر السادس من أكتوبر، ليغني طبيب الفلاسفة على اللواء الدكتور الذي كان قائده في بدايات خدمته العسكرية.

بالطبع لم يفوت اللواء الدكتور الفرصة وحكى للحاضرين بصوت متهدج عن عبقرية القائد التي ظهرت فور تخرجه من الكلية الحربية، ولأن القتال كان قد انتهى زمنه وبارت ميادينه، فقد تجلّت تلك العبقرية في مطبخ الوحدة العسكرية التي كان يخدم فيها القائد وهو برتبة الملازم أول والذي حصل على تقدير امتياز، لأن عاصفة رملية هبت على الوحدة العسكرية، فقام القائد بفتح الطريق الذي سده الرمل، ولم

يكتف بذلك بل سأل المطبخ عن الإفطار الذي سيتم منحه للضباط والجنود فقالوا له "فول وجبنة بيضاء وشاي"، فطلب منهم أن يستبدلوا ذلك بوجبة من العدس الساخن لمساعدة العساكر على تحمل الجو البارد وطلب منهم استبدال الجبنة البيضاء بالجبنة النستو لتكون أسهل في الأكل، وهو ما جعل اللواء الدكتور يرى أنه "ضابط صاحب قرار ورؤية"، ويطلب منحه تقدير امتياز دون أن يعلم أن هذا الضابط الذي استبدل العدس بالفول "سينقذ مصر بعد أربعين سنة"، ولم يتمالك اللواء الدكتور نفسه وهو يحكي، فبكى من فرط مشاعره الجياشة نافياً عن نفسه التملق والنفاق، بينما حبس القائد المفدى دموعه التي لا تنزل إلا في الشديد القوي، أما أنا فقد كان لا بد أن أشخر، لأنني لم أكن في مكتب وكيل نيابة هذه المرة، ولا أظنك تلومني أبداً.

قفا نبك من فرط الجوى بسياتل!

لم تكن زيارة (سام) من أولوياتي، ولذلك ذهبت إليه من باب تأدية الواجب الثقافي، أو لأنني لم أجد شيئاً مفيداً أفعله في يومي الأخير في مدينة (سياتل).

يطلقون عليه (سام) اختصاراً لاسمه القصير (متحف سياتل للفنون)، وبرغم كونه أعرق متاحف الفنون في المدينة الشهيرة الواقعة في أعلى الساحل الغربي الشمالي في الولايات المتحدة، إلا أن عدد زواره كان أقل بكثير من زوار متحف الفنون والثقافة الشعبية الذي زرته في اليوم السابق والذي لا يحتوي على أي قطع فنية نادرة أو ذات قيمة أثرية، ومع ذلك فقد كان كامل العدد بسبب معارضه الممتعة التي تستعرض أجمل تجارب الفنون والثقافة الشعبية الأمريكية بشكل يمتع الرواد على اختلاف أعمارهم وتفضيلاتهم الفنية والثقافية.

كان عدد زوار (سام) المسكين) أقل أيضاً من عدد زوار متحف العلوم ومتحف الكمبيوتر ومتحف تاريخ الصناعة، وهي أمثلة على المتاحف النوعية المتميزة التي تحفل بها المدينة، لكن زوار هذه المتاحف كانوا على أية حال أقل بكثير من زوار أول فرع تم افتتاحه من سلسلة مقاهي (ستاربكس) التي تنشر قهوتها رديئة المذاق في جميع أرجاء العالم، وهي السلسلة التي يتباهى مسئولو مدينة (سياتل) بأنها كانت موطن ولادتها، مثلما يتباهون باستضافتهم للمقرات الرئيسية

لشركات عملاقة مثل (ميكروسوفت) و(أمازون)، وهو تباؤ لا يشاركهم فيه الكثير من سكان المدينة القدامى، الذين قلبت هذه الشركات العملاقة مدينتهم وحياتهم رأساً على عقب ورفعت أسعار المعيشة في المدينة بشكل جنوني.

ذكرني خواء أروقة متحف (سام) بحالة الخواء التي تعاني منها أروقة أغلب متاحف بلادنا، وهو خواء كان جديداً علي في كل ما زرته من متاحف غربية وبالأخص في أمريكا التي يتفنن مسئولو المتاحف في تسويقها وجذب الزوار إليها، ولم يفسر لي سبب الخواء أنني ذهبت إلى (سام) في منتصف الأسبوع، فقد كنا في عز الصيف حيث يصبح للمتاحف في أيام منتصف الأسبوع زبائنها الهاربين من زحام نهايات الأسبوع الخانق، لأجد أن التفسير الأقرب لخلو المتحف من الزحام، أنه كما يفيد موقعه الإلكتروني، لا يحتوي على أعمال كثيرة للأسماء الشهيرة التي تجذب الحشود إلى المتاحف، فليس به في قاعة الفن الأوروبي سوى أعمال لم تشتهر للرسامين الكبار كلود مونييه وهنري ماتيس وروبن وجويا ورامبرانت، وهو ما يتكرر أيضاً في القاعات المخصصة للفن الأمريكي التي لا تضم أعمالاً لفنانين مشهورين إلا لوحة للفنان أندي وار هول يلعب فيها على طريقته الشهيرة مع المطرب الأشهر ألفيس بريسلي، ولأنها اللوحة "الحيلة" فقد وضع المتحف بالقرب منها إشرافاً أمنياً بدا ملفتاً للنظر في المتحف الذي لم أشهد في قاعاته حضوراً أمنياً كالذي تلاحظه العين في المتاحف الكبيرة التي أصبح المسئولون

عنها مؤخراً أكثر خشية من نوبات الجنون المفاجئ للرواد وخصوصاً من بعض نشطاء البيئة والتي يمكن أن يروح ضحيتها أعمال فنية نادرة وشهيرة، فباتوا حريصين على ملء أركان القاعات بمشرفين أمنييين يقفون بالساعات الطويلة على حيلهم، تحسباً لأي هجمات مباغتة على اللوحات والتماثيل.



بدا غريباً أن يطلب مسئولو (سام) من مشرفة الأمن ألا تقف إلى جوار لوحة أندي وار هول الأعلى ثمناً، بل أوقفوها في مواجهتها، إلى جوار لوحة فن حديث ضخمة الحجم أطلقت عليها اسم (صفار مسود)، لكنها في الوقت نفسه بدت لي أكثر معقولة من لوحات حديقة أخرى - بفتح الألف - رأيتها في متاحف سابقة وعرفت أنها أغلى ثمناً وأكثر قيمة، مع أنها تدخل في رأيي تحت بند المثل الشعبي القائل: "ربك

بيرزق العبيط عشان يغيظ الناصح"، وهو رأي لم أعد أصرح به أصدقائي من ممارسي الفن الحديث ومتذوقيه، منعاً لنشر العداوة والبغضاء واحتراماً للأذواق، حتى وإن كانت لا تستحق الاحترام ببصلة، لكنني في الوقت نفسه حرصت على تطبيق نصيحة أصدقائي الذواق، التي تطالبني بأن أشتبك إنسانياً مع أي لوحة لا تروق لي، لأصنع من اشتباكي معها تجربة خاصة، حيث لفت انتباهي قبل مغادرة القاعة أن ضوء النهار القادم من نوافذ القاعة، انعكس على اللوحة فزادها صفاراً، وزاد وقوف مشرفة الأمن إلى جوارها عبثية، وهو ما حرصت على تسجيله في صورة أتذكر بها ذلك المتحف، الذي بدا لي حتى ذلك الوقت مقلباً يثبت أن المتزاحمين على زيارة المتاحف "لا يجتمعون على باطل".



سرعان ما أؤكد لي (سام) مشكوراً خطأ ذلك الإثبات،

لاكتشف أن المتخاذلين عن زيارته حرموا أنفسهم من كثير من الجمال، الذي لا يرتبط بالأسماء الشهيرة، التي يستحق أغلبها شهرته المبنية على تميز حقيقي، لكن من يربط نفسه بتلك الأسماء الشهيرة وحدها يحرم نفسه من رؤية جمال حقيقي كالذي رأيته في العديد من جنابات وأروقة (سام)، وعلى رأسها مساحته المخصصة للفن الإفريقي التي جاءت مفاجأة منعشة لي، حتى أنني لم أعد مهتماً بقراءة اللافتات المثبتة إلى جوار كل عمل لأعرف أصله وفصله، بل تركت نفسي للاستمتاع بالفرجة على ما حوته القاعة من لوحات وتمائيل وأزياء ومفروشات ومنسوجات، لأعود بعد ذلك إلى أعمال بعينها فأعرف حسبها ونسبها، فيدهشني أن بعض ما شاهدته من أعمال أبدعه فنانون معاصرون، بعضهم لم يبلغ عامه الثلاثين بعد، وربما ما كانوا ليجدوا مساحة كبيرة تتيح لهم فرصة لعرض أعمالهم، في متحف مزدحم بالأسماء الشهيرة التي تخطف الأبصار عن كل ما حولها.



لفت انتباهي أن مسئولي (سام) اختاروا أن تكون المساحة المخصصة للفن الأفريقي في ممر يفضي إلى قاعة الفن الأوروبي التي توجد فيها لوحات ماتيس ومونيه وغيرهما، فلم أدر هل جاء ذلك الاختيار عفويًا، أم كان مقصوداً منه أن يتم اختيار مساحة لا يمكن لأي زائر للمتحف أن يتجاهلها، لأن ما سيراه من جمال خلال عبوره إلى قاعة المشاهير سيجبره على التوقف أكثر، وهو ما حدث لي وللقلائل الذين عبروا الممر من بعدي.

أخذت أراجع الطريقة التي كنت أفكر بها خلال زياراتي لكل ما زرته من متاحف، حيث أبحث في دليل المتحف عن أشهر وأهم ما لديه، لأقضي أغلب الوقت في تأمله، ثم أخصص ما تبقى من وقت وطاقة لمشاهدة المعرض الذي يلفتني موضوعه، مفضلاً اللوحات على الآثار، والرسومات على التماثيل، والكلاسيكي على الحديث، مذكراً نفسي بأن الحياة أقصر من أن يحيط الإنسان فيها علماً بكل شيء، وأن قدرة الركبتين على المشي والوقوف أضعف من قدرة العينين على الفرجة.

لم يكن تمهلي لمشاهدة ما حفلت به المساحة المخصصة للفن الأفريقي من أعمال، لأنني أجبرت على السير وسط تلك الأعمال، بل لأنني كنت خالي البال خلال تجوالي في المتحف، غير مندفع إلى رؤية ما سبق أن اتفق الجميع عليه أنه رائع ونفيس ويستحق الفرجة، ولولا ذلك لما حصلت لي هذه الحالة من (المزمزة) الفنية التي جعلتني حين اكتشفت أن هناك ممراً صغيراً به أعمال فنية حديثة، لا أتجاوزها إلى ما سواها، بل أدخل إلى الممر لعلني أجد فيه جميلاً يستحق الفرجة، فوجدت عملاً فنياً عبارة عن ثلاثة خوازيق معدنية متقاطعة مع بعضها، لفت حولها أسلاك شائكة وضعت بداخلها إضاءة ملتوية، فلم أجد نفسي هذه المرة ميلاً للسخرية مما رأيت، بل فكرت أن وجود هذا العمل في متحف بمدينة (سياتل) بالذات، ربما كان يحيل إلى ما جرى في المدينة من معارك شوارع عنيفة بين قوات الشرطة والمحتجين على

سياسات العولمة والنيو ليبرالية، خلال قدوم أبرز ممثليها إلى المدينة لحضور اجتماع منظمة التجارة الدولية في عام 1998، ولكيلا يخيب تفسيري قررت ألا أراجع بطاقة بيانات العمل، معتبراً أنني حققت بذلك اشتباكي الخاص معه.



قادني الممر الصغير بدوره إلى مساحة خصصها مسئولو سام لرواد المتحف، ليمارسوا فيه الرسم بأنفسهم على

أجهزة الكترونية متخصصة في الرسم، ليصبح من حقهم بعدها أن يحتفظوا بما رسموه أو يرسلوه لأنفسهم على البريد الإلكتروني، فقررت أن أجرب الرسم بعد أن كان الفن الأفريقي الجميل قد رُوق مزاجي، وجعلني أسير في المتحف الخاوي على أقل من مهلي. كان مصممو (سام) قد وضعوا إلى جوار كل جهاز عدداً من الكتالوجات وكتب الفن، كأنهم يقولون لزائر المكان: لا بأس لو حاولت تقليد ما تراه، إن لم تكن راغباً في رسم شيء جديد.

رأيت إلى جوار أحد الأجهزة كتالوجاً يضم بعض رسومات سلفادور دالي البديعة، فتذكرت زيارتي قبل سنوات لمعرض في لندن ضم أجمل لوحاته، وكيف خرجت من المعرض متأثراً بما رأيته، لدرجة أنني ظللت لمدة أيام أقلده برسومات كانت تستحق سخرية بناتي من فرط رداءتها، فقررت أن أستغل روقان المكان والمزاج لأبهرهن بمحاولة أكثر إتقاناً، مستغلاً ما وفره لي (سام) من إمكانيات، ولم أكتشف إلا بعد أن انتهيت من رسمتي أنني تأثرت أكثر من اللازم بعمل الخوازيق المتقاطعة، ولذلك اشتبكت معه فيما رسمته، لكنني لم أفهم لماذا قررت أن أضع لبطل لوحتي عضواً ذكرياً أصفر خرجت منه قطرات سوداء، حين انطلقت نحوه رصاصات زرقاء، خرجت من مسدس غامض لا يحمله أحد، ولا لماذا حمل بطل اللوحة على رأسه شمعداناً يخرج منه هلال و صليب ونجمة داود لم يكتمل رسمها من باب مقاومة التطبيع ربما، ولا لماذا كتبت في لوحة سوداء أحرف ورموز

غير مفهومة، لكنني برغم كل تلك الألغاز شعرت بتقدير كبير للوحتي، ومع ذلك عزمت على ألا أريها لبناتي، على أن أهديتها لأي صديق متخصص في التحليل النفسي للفن، تاركاً له مهمة إطلاق اسم عليها يلخص دلالاتها المشحونة أو الخاوية، لا أعلم.



عاودت التجوال في أروقة (سام) بروح مختلفة عن تلك التي دخلت بها إليه، فأنا الآن لم أعد مجرد متذوق متعجل، بل صرت زميلاً لهؤلاء الفنانين الذين لا يفرقني عنهم سوى الحظ الحسن والتفرغ الكامل والموهبة الفياضة، لكن ذلك الإحساس لم يعيش طويلاً بعد أول عشرة لوحات شاهدها في قاعة الفن الأوروبي التي حفلت بأعمال إعجازية لم أسمع بأسماء فنانيتها من قبل، لأبدأ في تسجيل أسمائهم، لأبحث عن أعمالهم في متحف (جوجل) الدائم الذي ربما عزّاني عن

خيبة أمني في لوحتي البائسة، أنها على الأقل ستنضم إلى أروقتة الافتراضية يوماً ما.

في كل قاعة دخلتها من قاعات (سام)، تبدى لي جمال الأوقات التي يمكن أن تقضيها في متحف رائع غير مزدحم، يعني هل كان يمكن أن تجلس هذه الشابة متأملة على أقل من مهلها في تفاصيل لوحة جميلة في قاعة الفن الأمريكي المعاصر؟ هل كان يمكن أن يتاح لي أن آخذ راحتي على الآخر في تأمل المنمنمات والزخارف والرسوم البديعة التي حفلت بها قاعة الفن الإسلامي الصغيرة والفاتنة؟ ألا تضطر عادة إلى أن تلقي نظرة خاطفة على كل قطعة تمر بها، لتترك فرصة لمن يكاد يلتصق بك من فرط الزحام؟ فإن وجدت ما يخطف قلبك قررت ألا تلقي لجارك بالاً، وتظل متسماً في مكانك أمام القطعة التي تحب أن تتأملها، لتترك له الخيار: هل يشغل نفسه بتأمل عمل مجاور وينتظرك حتى تفرغ، أم يشاركك في تأمل نفس القطعة حتى ولو تضايق كلاكما من ذلك، أم يتجاوزك على أمل العودة إلى العمل ثانية حين يصفو المكان له؟



أليس جميلاً أن تتذكر أنك لست مضطراً إلى الإسراع في تطوافك بالأركان والأروقة، لأن المتحف كله على بعضه مكنّذ مملوم، تكفيه وزيادة ساعات الزيارة المحددة، دون أن تضطر للخروج منه حزنان أسفاً، لأن موعد سفرك قد حل دون أن تطوف سريعاً سوى بأكبر وأشهر قاعاته؟ أليس جميلاً أنك أصبحت تملك علاقة شخصية ببعض لوحات هذا المتحف وأعماله، لدرجة أنك تستطيع أن تصفها من الذاكرة لصديق، أو تستحضرها في خيالك دون أن تبحث عنها على الإنترنت أو في كتالوج أو كتاب، في حين أنك اضطررت إلى معاودة التأمل على الإنترنت في تفاصيل لوحات شهيرة، كنت قد رأيته معلقة على حوائط هذا المتحف الكبير أو ذاك، لكنك لم تقض في مشاهدتها إلا ثوان معدودة محشورة بين الاكتاف والأنفاس والروائح التي لا تملك حق الاعتراض على

الزاعق منها، أملاً في أن تجد من يتجاوز عنك، في الأيام التي تعمل الرطوبة عمايلها مع الكل.

لحسن الحظ، احتفظ (سام) لي بأجمل ما لديه، بعد أن كدت أنتهي من تطوافي به، فلم أدر هل ألومه لأنه لم ينبهني إلى ذلك، لكيلا أطيل تجوالي بباقي قاعاته، أم أشكره لأنه ختم زيارتي له خير ختام؟ كان أجمل ما لدى (سام) هو قاعة فنون السكان الأصليين الذين تعودنا أن نطلق عليهم استسهالاً اسم (الهنود الحمر)، والتي ظننت لأول وهلة أن كل ما تظمه في جنباتها الواسعة أعمال قديمة من تراث السكان الأصليين، لكنني سرعان ما أدركت خطأ ظني، حين رأيت عملاً فنياً جميلاً تم وضعه في صدارة القاعة، كان عبارة عن عدد من علب رقائق الذرة أو "السيريال" أو الكورن فليكس من ماركات شهيرة، اشتبك معها فنان من السكان الأصليين اسمه سوني آسو من مواليد عام 1975، وقام بتحويلها إلى قطع فنية تعبر عن الأكاذيب والخدع التي مورست على السكان الأصليين، وتشير إلى بعض القضايا والمظالم التي كانت سبباً في نزاعات دامية خاضوها مع السلطات الفيدرالية التي اغتصبت أراضيهم.



عدت إلى تحية مسئولى (سام) والثناء على حسن اختيارهم، حين لاحظت أنهم بنفس الطريقة الرائعة التي تم بها تصميم قاعة الفن الأفريقي، لم يقوموا بترتيب الأعمال المعروضة في القاعة الكبيرة طبقاً لقدمها أو لقيمتها التاريخية، بل قاموا بوضع أعمال حديعة مثل علب سونى آسو، إلى جوار أعمال يعود عمرها إلى مئات السنين، ليتركوا لك الاختيار، هل ترغب في قراءة اللوحة المثبتة إلى جوار كل عمل لتعرف تاريخها، أم تترك نفسك للجمال المناسب في أرجاء القاعة؟ لتدرك بعدها حين تعود إلى التدقيق في التفاصيل، أن الروح المبدعة التي قامت قبل مئات السنين بحفر رسومات بديعة على قطعة خشب أو على حجر، لا زالت حية وحاضرة في إبداع شباب يستلهمون تراث أجدادهم ويعيدون صياغته في أعمال مبهرة، ليضفي ذلك الامتزاج والاندماج بين الأجيال المتعاقبة مزيداً من الجلال والجمال الذين اكتسبتهم القاعة التي فقدت هدوئها فجأة حين دخل

إليها بطلنا الباكي وصديقه المرتبكة.

كنت قبل أن يدخل بطلنا الباكي وصديقه المرتبكة إلى المشهد، أقول لنفسي إنني لم أر في شوارع (سياتل) ما كنت أتوقعه من حضور لافت للسكان الأصليين، ذلك الحضور الذي كنت قرأت عنه في قصة شهيرة بعنوان (ما ترهنيته أنتِ أستعيده أنا) كتبها كاتب مهم من أبناء السكان الأصليين اسمه شيرمان أليكسي، وترجمها الدكتور علي القاسمي ضمن مختاراته لبعض أجمل القصص الأمريكية في القرن العشرين، وقد اختار في ترجمته أن يستخدم مصطلح (الهنود الحمر) بدلاً من مصطلح (السكان الأصليين)، ربما لأنه لا يحوي في استخدامنا العربي الدلالات السيئة التي يحويها استخدامه في الإنجليزية، وهو ما ستجده مثلاً لدى مترجمين عرب من بلدان وأجيال مختلفة يستخدمون مصطلح (زنجي) في الإشارة إلى الأمريكيين السود، أو الأمريكيين من أصل أفريقي دون أن يجدوا مشكلة في ذلك.

تشير قصة شيرمان أليكسي التي نشرت في تسعينيات القرن الماضي إلى ظاهرة انتشار الهنود الحمر المشردين في شوارع مدينة سياتل، حيث يأتي كثير منهم إلى المدينة قادمين من ولاية ألاسكا التي تضم أعلى نسبة سكانية لهم في الولايات المتحدة، لكن القصة تتجاوز وصف الظاهرة للحديث عن محاولات ساكن أصلي من المشردين في شوارع سياتل استعادة بدلة رقص تراثية تعود ملكيتها إلى جدته، بعد أن رآها بالصدفة معلقة في واجهة محل رهونات، كان

بطل القصة قد رأى جدته ترقص بالبدلة قبل خمسين عاماً، قبل أن يسرقها شخص ما فتختفي من حياة العائلة، لكنها لم تفارق ذاكرة البطل الذي لم ينس ريشها الملون وخرزها الذي كانت تستخدمه الجدة لخياطة ملابسها. حين طلب المتشرد من صاحب محل الرهونات أن يعيد إليه بدلة جدته المسروقة التي هي من حق أسرته، طلب منه صاحب المحل برهاناً على امتلاك عائلته لها، فقال له المتشرد إن بني قومه لا يؤمنون بفكرة الكمال لأن الكمال لله وحده، ولذلك كانوا يتركون شقوقاً في ثنايا بدلات رقصهم، ويخفون فيها أشياء صغيرة تخصهم، أسرته مثلاً كانت تضع في ثنايا ملابسها خرزة صفراء لا يمكن العثور عليها بسهولة.



بدافع الفراغ أو ربما التحدي، قام صاحب المحل بالبحث عن الخرزة الصفراء، ليفاجأ بها مخفية بالفعل في ثنايا البدة، ولكي يثبت احترامه لوعده، قال للمتشرد إنه سيعيد إليه بدلة رقص جدته، فقط لو قام بدفع مبلغ 999 دولار ثمناً لها، لأنه اشتراها بمبلغ ألف دولار، ووافق المتشرد على العرض برغم أنه لا يعرف كيف سيقوم بجمع المبلغ. خلال تجواله في شوارع سياتل محاولاً جمع المبلغ، أخذ بطل القصة يتذكر جدته أجنز التي توفيت بفعل مضاعفات سرطان العدي الذي أصيبت به بسبب التلوث الذي أحدثه في المحمية منجم يورانيوم قامت الحكومة الفيدرالية بحفره، لكن أمه كان

لها تشخيص مختلف لمرض الجدة، حيث رأت أنه بدأ حين كانت الجدة عائدة ذات ليلة من مهرجان ديني للهنود الحمر، فدهستها دراجة نارية وكسرت ثلاثة من ضلوعها، لتعالج تلك الضلوع المكسورة بطريقة خاطئة، وحين لم تلتئم بصورة صحيحة، كان ذلك بداية رحلة الجدة مع المرض، حيث تعتقد الأم أن الأورام السرطانية تظهر فقط حين لا تلتئم الجراح ولا الكسور بصورة صحيحة.

خلال رحلته العبية في شوارع سياتل لاستعادة بدلة جدته، تساءل المشرد عما إذا كان سرطان جدته قد بدأ يتشكل في اللحظة التي سرق أحدهم بذلتها للرقص التي كانت قريبة إلى قلبها؟ وقال لنفسه: "ربما بدأ السرطان في قلبها المحطم ثم تسرب إلى ثدييها، أعلم أنه نوع من الجنون، ولكنني تساءلت عما إذا كان في وسعي إعادة جدتي إلى الحياة إذا اشتريت بذلتها المرهونة"، وحين أدرك صعوبة جمع المبلغ المطلوب، ذهب إلى منظمة متخصصة في مساعدة فقراء الهنود الحمر تحمل عنوان (الصرف الحقيقي) وتعلن أن رسالتها هي التنظيم والتثقيف وإيجاد حلول لمشكلتي التشرد والفقر المنتشرين في أوساط الهنود الحمر، "لمنح صوت للفقراء في مجتمعنا"، لكنه فشل في إقناع مسؤولي المنظمة بأهمية سعيه لاستعادة بدلة جدته، ولم يجد تضامناً سوى بالكلام وبمشاعر التضامن من الهنود الحمر الكثيرين الذين يجدهم في حانة (القلب الكبير)، والذين "يحبون الشعور بالانتماء ولهذا فنحن جميعاً نتظاهر

بأننا أبناء عمومة"، لكنه برغم كل ما يلاقيه من صعوبات، أخذ يواصل تشرده في شوارع سياتل حالماً باستعادة بدلة جدته قبل أن تضيع منه ومن أسرته إلى الأبد.

لم أجد شيئاً من هذه الأجواء الدرامية في شوارع سياتل حين زرتها مؤخراً، لم يكن عدد المتشردين في شوارع المدينة كبيراً مثل عدد المشردين في شوارع مدينة بورتلاند عاصمة ولاية أوريجون القريبة، والتي قدمت منها إلى سياتل، قال لي من سألتهم إن سياتل كانت تشهد وجوداً مكثفاً للمشردين من كل جنس ولون، لكن ذلك اختفى بعد "الانفجارية" الاستعمارية التي حدثت في المدينة خلال الأعوام الأخيرة، والتي كانت شركة (أمازون) العملاقة أبرز وجوهها، لا أذكر أنني رأيت خلال الأسبوعين الذين أقمتهما في المدينة وجوداً ملفتاً للمشردين، اللهم إلا لمتشردة بيضاء خفيفة الظل، قررت بذكاء استثمار مشاعر الكراهية المتنامية في المدينة لدونالد ترامب، فصنعت لافتة من الكرتون تلعن فيها سنسفيل دونالد ترامب، لتحث كل من يتوقف لقراءة اللافتة أن يعطيها قدراً من الدولارات يكافئ كراهيته لترامب.



على سلم ترتيب الولايات الأمريكية التي تشهد حضوراً
كثيفاً للسكان الأصليين، تحتل ولاية واشنطن وعاصمتها
سياتل المركز السابع، بتعداد يصل إلى أكثر من مائة ألف
مواطن بقليل ينتمون إلى أكثر من 29 قبيلة، دفعتهم حروب
الإبادة والتطهير إلى التركيز في ثلاث محميات أو تجمعات
كبيرة في الولاية، ولأن المدينة تمتلك حساً سياسياً وثقافياً
مميزاً، لم يكن من الغريب أن أجد لدى عدد من بائعي الصحف
في المدينة صحيفة ومجلة مخصصتين لشئون وقضايا
السكان الأصليين، لكنني في الوقت نفسه لم أشهد حضوراً
مميزاً لهم كما أوجت لي بذلك قصة شيرمان أليكسي، بل
إنني لم ألتق وجهاً لوجه بأحد هؤلاء السكان الأصليين الذين
قرأت عنهم كثيراً من قبل، إلا داخل تلك القاعة التي ختمت
بها زيارتي لمتحف (سام).

كان صوت صديقه العالي هو ما لفت انتباهي إليه في
القاعة الخاوية، كانت السيدة قد صرخت بمجرد دخولها إلى
القاعة: "يا إلهي يا إلهي أنا سعيدة يا حبيبي أنك صحبتني

إلى هنا"، وحين رأى أن صوتها لفت انتباهي نظر إلي مبتسماً بحرج، ثم احتضنها وهمس في أذنها بكلمات لم يكن يصعب أن أتخيلها طلباً بالهدوء، لكنها لم تستجب لطلبه طويلاً، فقد عادت بعد لحظات للتعليق بصوت عال على كل قطعة فنية يقفان أمامها: "يا إلهي أنتم حقاً قوم مبدعون، لم أكن أتصور أنكم رائعون هكذا، أنا فخورة بك حبيبي"، مستغلة كل فرصة ممكنة لتقبيله واحتضانه بشكل أزعجه فقرر أن يفلت يدها التي لم تفارق يده منذ دخلا إلى القاعة، ليأخذ مسافة أبعد عنها، مستغرقاً في تأمله للأعمال التي كان يبدو جلياً أنه يراها لأول مرة، في حين كانت هي مشغولة به وبمشاعره أكثر من انشغالها بما هو معروض في القاعة.

لو كان في القاعة سوانا نحن الثلاثة، لكانت مراقبة تفاصيل تلك العلاقة الملفتة أسهل بالنسبة لي، لذلك اكتفيت بالتقاط صورة سريعة لهما، وعدت لتأمل الأعمال الجميلة المنتشرة في القاعة، لكيلا أسلم نفسي لغواية الحلقة التي يمكن أن توقعني في حرج مع هذه السيدة الصاخبة التي لا تكف عن التلفت في كل اتجاه، غير ما هو معروض على حوائط القاعة. اقترب الاثنان مني أكثر، ووقفوا أمام قطعة من قارب خشبي يعود عمره إلى مئات السنين، كانت قد حُفرت عليه رسومات لا يمكن أن تتبين معالمها إلا إذا انحنيت مقترباً من القاترين الزجاجية التي وُضعت القطعة النادرة خلفها. لم أكن أتوقع أن ذلك الرجل الكُبارة جامد الملامح سينفجر في البكاء فور تبينه للتفاصيل المرسومة على القطعة الخشبية، لم يكن

بكاءً متدرجاً، بل كان انهياراً مفاجئاً أربكني وأربك صديقتي التي كنت بعد نظرات سريعة متلاحقة إلى وجهها قد أدركت أنها أكبر منه بسنوات قليلة، اقتربث منه وأخذت تربت عليه وسألته عما يبكيه، فعلا صوت بكائه أكرم، همت باحتضانه فأبعدها عنه برفق وقال لها بصوت مسموع: "آسف يا حبيبتي أريد أن أكون لوحدي الآن"، بوغثت بما قاله، وتجمدت في مكانها للحظات، ثم انهارت هي الأخرى في البكاء، لكن شيئاً ما في بكائها العالي أزعجه، وجعله يدفعها برفق أقل، حين حاولت احتضانه من جديد، مكرراً طلبه بأن تتركه لوحده قليلاً.



كنت قد آثرت الابتعاد قليلاً مع علو نشيجه، لكنني لم أقو
على تجاهل الموقف، لتقع عيني في عينها وهي تقف مرتبة
مكبوسة لا تجرؤ على الذهاب إليه في ركن القاعة الذي خلا
بنفسه فيه وأخذ يواصل البكاء، ابتسمت لي محرجة، وكأنها
وجدت في التقاء عينينا فرصة للخروج من غرابة الموقف
الذي لم يكن أحد ليتوقعه على الإطلاق، والذي ذكرني بصورة
شهيرة رأيته لمواطن عراقي يقف باكياً أمام آثار

عراقية تم نهبها عقب الاحتلال الأمريكي لتستقر في متحف بريطاني، لكنني في الوقت نفسه - ربك والحق - لا أذكر أنني ضبطت نفسي أشعر بالحزن حين أرى أثراً فرعونياً في أي متحف أزوره، بالعكس دائماً ما كانت تملكني مشاعر الفخر الممزوجة بالارتياح لأن هذا الأثر وجد طريقه إلى "حد أمين" يوفر له فرصة عرضه كجزء من ذاكرة الإنسانية، بدلاً من أن يستقر في جنبات قصر فخيم، ليتفشخر به عليّة القوم على بعضهم البعض.

جلست لأراقب الموقف على كنية بلا ظهر تم وضعها أمام شاشة تعرض فيلماً تسجيلياً عن تاريخ السكان الأصليين في ولاية واشنطن، مر الفيلم مرور "الكرام" على أشهر الحروب التي خاضوها مع الغزاة الذين هاجموا مناطقهم والتي كان من بينها حرب ياكوما التي استمرت ثلاث سنوات كاملة، ليخصص وقتاً أطول لعادات وتقاليد السكان الأصليين ويعرض نماذج لرقصاتهم وأغانيهم وطقوسهم في الصيد والزراعة والرعي، لكنني حين رأيت السيدة تقف في ركن قريب مرتبكة وباكية، قررت الذهاب إليها لأسألها هل هي بخير، كان سؤالاً تقليدياً لكنني لم أكن أملك غيره كمدخل للحديث معها، لم تتقبل سؤالني بجفاء، بل قالت لي وهي تحاول التوقف عن البكاء: "شكراً، أنا بخير، لكنني قلقة عليه"، وبعد صمت قصير قررت أن تبتعد عنه أكثر وتسير معي إلى حيث كنت أجلس، شاغلة نفسها بالنظر إلى الشاشة التي كانت تعرض طقوس موكب صيد تصاحبه أهازيج أو

ربما تراتيل، لتقول لي بعد قليل وهي تغالب البكاء: "كنت غبية حين اقترحت عليه أن نأتي إلى هنا، لم أكن أتصور أنه سيتأثر إلى هذه الدرجة".



بعد لحظات صمت عادت السيدة ثانية إلى بكاء حرصت على أن يكون مكتوماً لكيلا يبلغ مسامعه، خاصة أن صوت نشيجه كان قد خفت نوعاً ما، انحنت ووضعت وجهها بين يديها وهي تحاول التماسك، فلفت انتباهي وشم على

ذراعها يظهر امرأة ترتدي فستاناً زاهي الألوان، وتنظر إلى شيء يشبه الشمس، وحين توقف صوت نشيج رجلها الذي كان قد اختفى عن أنظارنا قليلاً ثم عاد إلى محط أنظارنا، رفعت رأسها واعتدلت في جلستها متطلعة إليه، وابتسمت بسعادة حين رأت أنه قد تمالك نفسه وعاد ليستغرق في تأمل اللوحات والأقنعة والتماثيل، ثم نظرت إلي وقد أشرق وجهها بابتسامة وقالت: "هل تصدق أن هذه أول مرة أراه فيها يبكي، نحن صديقان منذ خمسة سنوات تقريباً ولم أسمع صوت بكائه ولا مرة، حتى حين يشرب كثيراً لا يبكي، أنا التي أبكي دائماً بعد كأسين أو ثلاثة، مع أن أحزاني لا تقارن بأحزانه"، وقبل أن أسأل عما تقصده بذلك أضافت: "يكفي ما حدث لقومه، أحياناً تتصور أن هذه الأشياء يمكن نسيانها والتعامل معها كذكرى لا تخصك، ثم تأتي إلى مكان كهذا فتكتشف أن ذلك غير صحيح".

كانت حريصة على أن تتحدث بصوت خافت، بعد أن رأت كيف ساعد خواء القاعة على تضخيم صوت نشيجه وبكائها، مدت ذراعها الأيسر نحوي، وأرتني بفخر ساعة جميلة الشكل اتضح أنها مطرزة برسوم من رسومات السكان الأصليين، ثم قالت بسعادة وهي تشير نحوه: "أهداني حبيبي هذه الساعة بعد عام من علاقتنا، قال لي إنها تعني له الكثير"، ثم مالت علي أكثر وقالت: "كنت أفكر في أن أشتري له من متجر المتحف تذكراً مما أعجبه هنا، لكنني لن أخاطر بذلك بعد ما حدث". حرصت على ألا أنطق إلا بما يفيد التعاطف

والتضامن، مع أنني كنت أملك ألف سؤال وسؤال عنهما وعن علاقتهما وكيف التقيا ومتى وأين، وقبل أن أختار سؤالاً مما لدي لأصل به حبل حديث، ربما يصير حبل مودة بعد ذلك، عاد صوت صاحبنا للنشيج من جديد، وعادت هي للتطلع إليه مرتبكة وقلقة.

نظرت إلي بعد لحظات من الارتباك وقالت: "لا أعتقد أن من المناسب أن أذهب إليه، لم أره منهاراً هكذا من قبل"، هزرت رأسي موافقاً وقلت لها إننا لن نفهم مشاعره إلا حين نتعرض لتجربة احتلال أرضنا مثل ما حدث لقومه، وأنني حين رأيته يبكي بكل هذه الحرقنة تذكرت قصيدة كتبها شاعر فلسطيني عن تفكيره في مشاعر الهنود الحمر، حين رأيت مشاعر الدهشة على وجهها مما قلته، تذكرت أنها مواطنة بيضاء صالحة، ربما لا تعرف أصلاً موقع فلسطين على الخريطة، كان على يسارنا بالمناسبة خريطة لأماكن تواجد السكان الأصليين على طول الساحل الشمالي الغربي، فانشغلت بالنظر إليها، وأنا أجتهد في تذكر مطلع القصيدة التي كتبها محمود درويش، والتي لم أعد أذكر شيئاً عنها، سوى أنها كانت منشورة في ديوان (أحد عشر كوكباً).

عاد صاحبنا الباكي إلى الصمت من جديد، وكنا قد عدنا للتشاغل بمشاهدة الفيلم الذي اتضح أن مدته لم تكن طويلة، وأنه يعاد تلقائياً بمجرد انتهاء عرضه، وحين عرضت الشاشة مشهداً لرقصات تقليدية مبهجة، نظرت إلي مبتسمة وقالت: "هل تصدق أنني لم أذهب إلى المكان الذي يسكن فيه أهله

حتى الآن؟"، وقبل أن أسأل أو أعلق أضافت: "ليس الأمر سهلاً، أنت تعرف كيف يفكر الناس، يعني أبنائي لم يتقبلوا الفكرة بسهولة، لم يرفضوا علاقتي به لأنهم لا يملكون الحق في ذلك، لكن يعني، أنت ترى في الوجوه أشياء كثيرة مما يمكن أن يقال، لديهم أيضاً هناك من يأخذون مثل هذه الأمور بجدية، يمكن أن تفهم موقفهم بعد كل ما فعلناه، لكن المسألة كلها غبية، أليس كذلك؟"، هزت رأسي بقوة محاولاً ألا أنطق بتعليق يربكها ويدفعها ثانية إلى الصمت، لتقول بعد قليل: "أعتقد أن ما يجعله عاطفياً أكثر أنه يشعر بذنب لأنه لم يزر أهله منذ سنوات، لذلك كان متردداً في المجيء إلى هنا، يكره كثيراً حين أحدث أحداً عن عرقه وأصله، ولا يمكن أن ألومه، لأن الأسئلة الغبية تتوالى بسرعة، حتى حين تكون حسنة النية وطيبة، تجعله يشعر أنها تلغي وجوده الشخصي ويصبح موضوعاً للفرجة أو التعاطف، أتصور أنه كان يكتم هذه المشاعر وقتاً طويلاً ولذلك انفجرت هنا"، وبعد أن ضحك ضحكة مقتضبة قالت: "لن أفهم مثل هذه المشاعر أبداً على ما يبدو، يعني حين دخلنا قاعة الفن الأوروبي لم أشعر بأي حنين إلى أي لوحة رسمها فنان ألماني، لا أعرف شيئاً عن ألمانيا ولا أبي ولا أمي ولا حتى جدي ولا أريد أن أعرف".

على عكس ما تمنيت، لم يدم وقت حديثنا أطول، بعد أن قطعه صاحبنا الذي توقف عن البكاء منذ فترة، حين قدم نحونا قررت هي بحركة أنعوية لطيفة أن تتجاهل قدومه

وتركز في الشاشة كأنها ليست مهتمة بمجيئه، وقد كان لديه من الذكاء العاطفي ما يجعله يلتقط إشارتها المتغاضبة مما فعله، وحين وصل إلى الكنبه التي نجلس عليها استغل أفضل استغلال كونها بلا ظهر، جلس على الناحية المعاكسة مسنداً ظهره إلى ظهر صاحبه، وحين لم تتجاوب معه على الفور برغم أنني رأيت ضحكتها تضيء وجهها، أمال رأسه إلى الخلف أكر ليلامس رأسها فخلعت القبعة السوداء التي كانت ترتديها وأمالت هي رأسها إليه، وبدا أن أسلم ما أفعله هو ترك الكنبه على الفور لأتيح لهما فرصة العتاب والتصافي، لكنها حين وقفت أمسكت بيدي في حركة مفاجئة، ثم التفتت إلى صاحبنا بلطف قائلة له كأنها تواصل حديثاً بينهما لم ينقطع: "أحب أن أعرفك على صديقي، كاتب من مصر"، استدار وصافحني بحرارة وقال لي مبتسماً: "شكراً"، ولم أكن بحاجة إلى أن أسأله عن سبب شكره لي، كانت تنظر إلينا بسعادة ونحن نتصافح، ثم قررت فجأة أن تشير إلى ساعتها وتقول له مبتسمة: "حكيت له عن الساعة وعن مكانتها لديك"، شعرت أنه ارتبك للحظة حين أدرك أننا لم نكن نجلس فقط صامتين في انتظاره، وربما لذلك قرر أن يعطيني فكرة أكر عما أبكاه، فوقف مشيراً إلى القطعة الخشبية التي فجرت بكاءه، وقال لي بصوت متهدج إنها تعود إلى أسرته، وأنه تم الاستيلاء عليها في عام 1860، وأنه حين رأى اسم أسرته وقبيلته مكتوباً على البيانات المجاورة للقطعة لم يتمالك نفسه وبكى.

بادرت صديقه لاحتضانه فلم يخيب أملها هذه المرة، قلت له إنني أفهم مشاعره جيداً، كنت قد تذكرت أن قصيدة محمود درويش بعنوان (خطبة الهندي الأحمر)، وأن اسم (سياتل) يرد في أحد أبياتها التي لا أذكر منها شيئاً، لكنني لم أكن متأكداً هل سيكون من الصواب أن أترجم له عنوان القصيدة وأشرح له فكرتها، لذلك حدثته سريعاً عن الدكتور منير العكش الذي كتب أكثر من كتاب باللغة العربية عن المذابح التي تعرض لها السكان الأصليون منذ بدأ إنشاء الولايات المتحدة. هز رأسه دون حماس ولم يعلق، وشعرت صديقه أنه لم يسعد كثيراً بما قلته، فقررت تخفيف التوتر، وأشارت إلى الشاشة وسألته عما إذا كان يحب أن يشاهد الفيلم التسجيلي الذي تعرضه، وقبل أن تواصل امتداح الفيلم، قال لها إنه يفضل أن يغادر المكان لأنه جائع جداً، وحين مد يده ليسلم علي ويقول إنه سعيد بلقائي، وجدت نفسي أبادر لأن أطلب منه أن ألتقط صورة لهما، وحين استغرب الطلب المفاجئ، قلت له إنني أرغب في الكتابة عن لقائي بهما إذا لم يكن لديهما مانع، ولكي يغلق الباب أمام أي أسئلة قد أفكر في طرحها، قال لي بحسم: "لن أسألك عما ستكتبه، اكتب ما شئت، لكن اعذرني لن أجيب على أي أسئلة إضافية، ستلتقط لنا الصورة ثم سنغادر لأننا نقيم خارج سياتل ولا نريد أن نتأخر".

حاولت السيدة أن تخفف حدة رد رجلها، فقالت ضاحكة: "لو كان في هذا المتحف أحد غيرنا لطلبت منه أن يلتقط

لنا صورة معاً، لكن صورنا الأول ودعنا نلتقط سيلفي بعد ذلك"، ثم اقتربت من رجلها واحتضنته مستعدة لالتقاط الصورة، لكنه أشار نحو ركن من أركان القاعة، وقال بجدية: "سيسعدني أكثر أن نلتقط الصورة أمام ذلك البساط الذي نهبوه من قبيلتي". توجهنا إلى الركن الذي علقوا فيه البساط البديع. ارتمت السيدة في حضن حبيبها مجدداً، فأبعدا عنه قليلاً كأنه يطلب منها أن تكون الصورة جادة وأقل حميمية، ثم وضع يده على كتفها، واستعدا لالتقاط الصورة، بعد أن نزع النظارة الشمسية التي كان يعبتها في رأسه، وفجأة قال لي بجدية: "ألن تكون الصورة أجمل لو لم أضع يدي على كتفها"، جفلت هي قليلاً، لكنها ضحكت حين فوجئت به يضع يده على أعلى مؤخرتها وهو يبتسم لأول مرة.





بعد أن غادرا القاعة، جلسث على كرسي يواجه تمثالاً بعنوان (المحارب الهندي)، تقول بطاقة بياناته أن عمره أكثر من ثلاثمائة عام، أحالني شفيع الحيارى (جوجل) مشكوراً إلى قصيدة درويش الجميلة، فأخذت أقرأها بصوت مسموع في القاعة الخالية كأنني أقرأ ورداً مقدساً أو ترتيلاً مباركاً:

"سنسمع أصوات أسلافنا في الزياح، ونضغي إلى نبضهم في براعم أشجارنا. هذه الأرض جذتنا مقدسة كلها، حجاراً حجاراً، هذه الأرض كوخ لآلهة سكنت معنا، نجمة نجمة، وأضاءت لنا ليالي الصلاة.. مشينا خفاة لتلمس زوح الكصى

وَسِرْنَا غِرَاءً لَتَلْبَسَنَا الزَّوْخُ، رَوْحُ الْهَوَاءِ، نَسَاءً يُعَدْنَ إِلَيْنَا هَبَاتِ
الطَّبِيعَةِ، تَارِيخُنَا كَانَ تَارِيخُهَا. كَانَ لِلْوَقْتِ وَقْتُ لِنَوْلَدَ فِيهَا
وَنَزْجَعَ مِنْهَا إِلَيْهَا: نُعِيدُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْوَاحَهَا زُوِيداً زُوِيداً.
وَنُخَفِّظُ ذِكْرِي أَحَبَّتْنَا فِي الْجِرَازِ مَعَ الْمَلْحِ وَالزَّيْتِ، كُنَّا نُعَلِّقُ
أَسْمَاءَهُمْ بِظُيُورِ الْجِدَاوِلِ وَكُنَّا الْأَوَائِلَ، لَا سَقْفَ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَزُرْقَةِ أَبْوَابِنَا وَلَا خَيْلٍ تَأْكُلُ أَغْشَابَ غِزْلَانِنَا فِي الْحُقُولِ، وَلَا
غُرَبَاءَ يَمْزُونَ فِي لَيْلِ زَوْجَاتِنَا، فَاتَّزَكُوا النَّايَ لِلزَّبِيحِ تَبْكِي عَلَى
شَغَبِ هَذَا الْمَكَانِ الْجَرِيحِ.. وَتَبْكِي عَلَيْكُمْ غَداً".

ثم قرأت السلام على (سام) وأرواح ساكنيه، وغادرت
المكان.



أنا وقاهر العفاريات

طوب الأرض حذرنى من تبعات إغضابه لكنني أصررت على مواجهته في حوار "ناري"، لعل ذلك يساعدني على تثبيت موقعي المهني المرتبك في تلك الفترة.

قبل أن أذهب لإجراء الحوار، قال لي زميل مخضرم ومحثك في الشأن الروحاني إن انتقاد الحكومة ومعارضتها سيكون أكثر أمناً من انتقاد "مولانا" أو حتى مشاغبته، وإذا كانت الحكومة قد أغلقت صحيفة (الدستور) التي أعمل بها قبل أشهر من إجراء الحوار، فالذين يخاوهم مولانا قادرون - اللهم احفظنا - على غلقي أنا شخصياً وجعلي عبرة لمن أعتبر وأن أهون الأضرار التي يمكن أن أتعرض لها هو أن أظل "مربوطاً" طيلة عمري فلا أنفع طيلة ولا طار.

واحد من أعز أصدقائي اختفى من حياتي لمدة شهر بأكمله عقب إجرائي للحوار، ولم أر وجهه من جديد إلا حين اطمأن إلى أنني لست ملبوساً أو عرضة للانتقام سفلي غادر أنا ومن يحيطون بي، وقريبة لي زعلت حين رفضت طلبها بالتوسط لدي جنابه لكي يفك اللعنة التي أصابت ابنتها فجعلتها غير مرئية للعrsان، وحين قلت لها إن مولاهما لن يكون سعيداً بما سأكتبه عنها وسيزيد موقف ابنتها سوءاً، كادت أن تسب لي ولم تجد تفسيراً لموقفي العدائي من مولاهما سوى أنني "فقري ومستبيع"، وقالت إنها ستشكوني لأمي، ليس لأنني سأكبر لها وأستجيب للطلب، بل لكي تأخذ حذرهما ولا يصيبها

أدى أو مس من تحت رأس غروري وقلة تمييزي.

للأمانة، كانوا جميعاً محقين في خوفهم وقلقهم، فقد كان الرجل في تلك الأيام من عام 1998 ملء السمع والبصر، فكتبه العشرة التي أصدرها خلال سنوات قليلة صارت من الأكثر مبيعاً في مصر وكثير من الدول العربية، وكل الصحف والبرامج التلفزيونية التي تستضيفه لا تذكر اسمه: حسين شاهين، إلا مسبقاً أو متبوعاً بلقب (قاهر العفاريات) الذي كان يحبه ويعتبره ماركة مسجلة تميزه عن غيره لدي هواة الصنف، وقنوات التلفزيون المصري الحكومية تستضيفه في برامجها بعد أن كان نجمه ساطعاً في الفضائيات فقط، وتعد له أكثر من عشرة صحف ومجلات جلسات منتظمة لعلاج الجن تفرد الصفحات لتفاصيلها لكي تضمن زيادة توزيعها، ولأن حكاية الصحافة استهوت قاهر العفاريات فقد قرر إنشاء جريدة ملاكي لحسابه، والذي زاد وغطى أنه شارك في تأسيس مركز لحقوق الإنسان، مفاخراً بما كان يتلقاه من شهادات في حقه أدلى بها أشهر نجوم ذلك العصر وأخطرهم تأثيراً: الشيخ محمد متولي الشعراوي والدكتور مصطفى محمود.

لن أكذب عليك، كنت خائفاً منه، ليس من مسألة "الربط" فقد كانت "القياجرا" حديعة الاختراع كفيلة بقهر عفاريته التي يخاف الرجال من ربطها لهم، ولكن لأنه كان قد تسبب في حبس صحفي بتهمة التشهير به، وقام بعدها وربما لأول مرة في تاريخ الصحافة بحبس قارئة نشرت شكوى ضده

في بريد قراء إحدى الصحف، ولذلك حرصت على تسجيل حوارى معه لكيلا يتهمنى بعدها بتزوير أقواله أو تشويهها، وحين اعترض فور أن رآنى أحمل جهاز التسجيل، قلت له إننى أعانى من التهاب فى أعصاب يدي يجعل الكتابة وراءه بسرعة مستحيلة، وأننى حريص أن يصل كلامه المهم لقراء المجلة بمنتهى الدقة، فوافق على مضمض وبدأ حوارنا الذى اختار أن يتم فى مركب سياحى فاخر كان راسياً على النيل، وقد اتخذته وقتها مقراً لإدارة أعماله واللقاء بضيوفه وكبار زبائنه، لكنه رفض الإقرار بأنه يمتلك المركب، وقال لي إنه ملك لرجل أعمال صديق طلب منه أن يبارك المركب بحضوره إليه من حين لآخر.

"اللبش" المحيط باللقاء جعلنى أستمع إلى نصيحة الأصدقاء الخائفين من أن يدس لي شيئاً فى المشروب، فاعتذرت عن تلبية دعوة قاهر العفارىت لشرب أي شيء بحجة أننى صائم، وكذبتى التى ربما جعلته يستشعر خوفاً ويستبشر خيراً بأننى سأكون محاوراً سهلاً ومنبهاً بقدراته الخارقة، جعلتني أقرر تجنب بدء الحوار بالحديث النظري عن مسألة العلاج بالقرآن وقدرته على الشفاء من المس الشيطاني، واخترت بداية الحوار معه بسؤاله عن اتهامات النصب التى تم توجيهها له بشكل رسمي فى بلاغات قضائية ونشرت الصحف أخباراً عنها قبل لقائى به، فنظر إليّ بخيبة أمل ثم قال وهو يحاول ضبط انفعاله:

"كل شجرة مثمرة تقذف بالطوب، ودائماً الإنسان القذر هو

اللي بيحارب الإنسان الحلو، وتقدر ببساطة تشوف مين اللي حاربوني طول الفترة اللي فاتت، كلهم خدت عليهم أحكام، وفيهم صحفيين كانوا عايزين يبتزونني.

- زي مين؟

مش هاقدر أقول أسماء.

- لكن، أنا باكلمك عن اتهامات محددة فيها صور لشيكات بدون رصيد وكلام عن معاملات مالية؟

ده كلام فارغ، أنا مثلا لو تاجر في السوق ممكن أعطيك شيك دلوقتي، ولوجود اختلاف في التوقيع أو أي سبب عند البنك يقولوا إن الشيك حصل له رجوع في السحب، هل ده معناه إن ما فيش رصيد؟ وبعدين المهم دلوقتي: هل في حد بيطلب جنيه واحد مني؟ أتحدى، ومش كل واحد عايز يولول يقول كلام فاضي، ويفتكر إنني هاسكت، لا، أنا هالجا إلى ساحة القضاء زي ما عملت مع الصحفي إبراهيم نصر اللي القضاء الحمد لله أصدر عليه حكم بالحبس 6 شهور.

- بمناسبة الصحافة، ما الذي دفعك من الأساس للتفكير في إصدار صحيفة؟

عشان باحب الصحافة وبأحب أنشر رأيي فيها، ولاحظت إن في حصار مفروض علي في الصحف والمجلات طول الفترة اللي فاتت، فقررت أعمل صحيفة أنشر فيها آرائي.

- طيب بما أنك تحب الصحافة، أليس غريبا أنك لم تكتف

بحبس صحفي، بل وتعتبر أول من تسبب في تاريخ الصحافة المصرية في حبس قارئة هاجمتك في بريد القراء؟

زي ما في فرق بين الصحفي المحترم والصحفي غير المحترم، هناك فرق بين القارئ المحترم والقارئ غير المحترم.. أنا لكي أنتقد لازم أتبع منهج {وجادلهم بالتى هي أحسن}، لكن هذه السيدة قالت عني في اللي كتبتة أنني اقود مملكة الشياطين، طيب هل هي تعلم الغيب؟ كيف تقول هذا الكلام؟

- لماذا لم تجادلها إذن بالتى هي أحسن وترد عليها في الصحيفة بدلا من الحبس؟

(بعد زفرة ضيق) شوف، هذه السيدة أصلا زوجة صديق لي، بمعنى أصح صديق سابق، وهو أصلا رسام كاريكاتير، وكنت توجهت إليه في بيته، وأصلا بيننا علاقة طيبة، لكن لا تعرف النفس البشرية بيجيلها الغل إزاي.. واحد قاعد بياكل ويشرب معاك وما تعرفش اللي جواه.. وبعد الكلام اللي نشرته هذه السيدة، قلت لصديقي: زوجتك أخطأت في حقي، وكانت موجودة في جلستنا ونصحتها بالاعتذار، فقالت إنها مسئولة عن كلامها، فلجأت للقضاء، أنا لا أكذب وأسأل زوجها، حتى الصحفي إبراهيم نصر قبل ما أقاضيه، قلت له اللي بتعمله غلط، وأنا أرفض أسلوب الابتزاز تحت أي وجه.

- طيب الصحافة وفهمناها، لكن ما دخل العلاج الروحاني في حقوق الإنسان؟

أنا باحِب حقوق الإنسان وأحب أدافع عن حرية الكلمة.

- لكنك فُصِلت من هذا المركز كما يقال؟

هذا كذب وكلام فاضي.

- لكن، من ناحية أخرى، الأرقام التي تنشر في بعض الصحف عن ثروتك، تطرح سؤال مهم: هل يعقل أن تكون قد جمعت هذه الثروة فقط من العلاج بالقرآن؟

أنا عندي 43 سنة، وعملت في أعمال تجارية كثيرة من سنين طويلة، ولعلمك أنا صرفت على العلاج بالقرآن ولم أتكسب منه، لأنني كنت أبلغ رسالة. الحاجات التي كسبت منها هي الصحف والكتب التي أطبعها حوالي 10 كتب منها كتاب طبعنا منه 12 طبعة.

- يعني سيكون باع كام؟ 100 ألف نسخة مثلا؟

(بضيق) هو أنت شغال تبع الضرائب؟

- لا، ده سؤال استفهامي، أصل مثلا يعني كتب نجيب محفوظ أو الدكتور زكي نجيب محمود ما بتوزعش الأرقام دي، عشان كده عايز أعرف رقم توزيعك؟

(بابتسامة تحدي) لا، اتطمن.. باوُزع كويس والحمد لله.

- حين تم نشر صور شيكات حصلت عليها بمبلغ مئة ألف دولار قلت إن هذا تبرع؟ هل هذا معقول؟

ده شيء عادي، والهدايا موجودة والرسول عليه الصلاة

والسلام قبل الهدية، كما أن أخذ أجر عن العلاج بالقرآن ليس خطأ، لكن أنا شخصياً لا أخذ أجر، وهو كلام لن يصدقه الذين يقومون بمهاجمتي في الصحف والمجلات، ولو مش عايزين يصدقوني ومصرين يهاجموني فهم أحرار في رأيهم، أنا أبرزت شيئاً موجوداً منذ الأزل، وأظهرت شيئاً موجوداً في القرآن الكريم، يقول ربنا على لسان سيدنا أيوب {رب أني مسني الشيطان بنصب وعذاب}.

- يعني تفسير هذه الآية وعلاقتها بالمس الشيطاني فيه كلام كثير لا يتسع له المقام الآن، والأهم بالنسبة لي حين تتحدث عن قدرتك على العلاج بالقرآن، أن أسألك: ما هي مؤهلاتك؟

في بداية حياتي بعدما تزوجت أصبت برباط، ولم أستطع إتيان زوجتي، ولم ينجح الأطباء معي، وأجبرني أهلي على الذهاب للمشايخ، وأنا غير مقتنع، وتم شفائي علي يد شيخ قال لي انت عندك قوة روحانية.

كيف وأنت مصاب بضرر من الجن كما تقول؟

صدقني هذا حدث، والشيخ الذي عالجني اسمه منير الصفتي، وأصلاً وأنا عندي 6 سنين اكتشفوا في هذا الأمر، القوة الروحانية، كنت ألعب مع الأطفال في المدرسة، ولما كنت أبص للطفل في عينيه يقع على الأرض، وده عمل مشاكل لأسرتي، وكانوا يقولوا لهم: ابعدوا ابنكم عن هنا وشوفوا ماله، وعندما اكتشف الشيخ منير هذه القدرة بعدها

بسنيين تعلمت على يديه.

- لكنك لم تجب على سؤالي: ما مؤهلاتك؟

أنا أساسا دارس ميكانيكا في معهد عالي صناعي، لكنني استمررت لمدة 3 سنوات أتعلم على يد الشيخ منير، وبدأت أمارس ما تعلمته في نطاق ضيق في أسرتي حتى جاء عام 90، وقمت بإخراج الجن من منزل في جرجا كان يتعرض للحريق بصفة مستمرة، وكتبت عني الجرائد.. وفوجئت بأن هناك مشاكل بالآلاف تريد تدخلتي.. وأنا أوجه نداء للسادة المسؤولين ورجال الأزهر بأن يقتنوا هذا العلاج، لكي يلجأ له الناس وهم آمنون، لأن أغلب المشاكل اللي بيعاني منها الناس هو إن الحمامات عندنا بقت عاملة زي الديسكو فده بيسهل سيطرة الجن على الناس.

- وكيف يمكن أن يتم إعطاء الإذن لشخص مئلك بالعلاج، وكل مؤهلاته أنه دارس الميكانيكا؟

من هو الذي سيختبرني؟ لا يصح أن يقيمني صحفي، أنا يقيمني رجال الدين ومش كلهم كمان. الشيخ الشعراوي قال عني: " تلك هبة من الله "، وما أفعله ليس وراءه الدراسة، هذه هبة من أشياء كثيرة بتحصل على يدي وما أعرفش لها تفسير، وبعدين د. مصطفى محمود قال عني إن مش كل واحد بيعالج بالقرآن الكريم يعمل اللي أنا عملته.

- يعني عندك قدرات خاصة؟

في قدرات خاصة من عند الله تعالى طبعا، ولعلمك بعض

الفنانين طلبوا مني ممارسة السحر ضد زملائهم ورفضت، زي ما رفضت أستخدم قدراتي ضد الصحفيين الحاقدين اللي بيهاجموني".

لم أجفل من تلويح قاهر العفاريت بقدراته "الخارقة" التي يرفض استخدامها ضد "الصحفيين الحاقدين"، فقد كان الوقت الذي مضى منذ التقيته كافياً لكي تزول رهبتي منه، وتزيد رغبتي في فهم قدرته الخارقة الوحيدة والأكيدة، وهي قدرة شخص ضحل ومهزوز مثله على إيهام الكثيرين بأنه صاحب قدرات خارقة، خصوصاً حين يكون هؤلاء من ذوي الثهي والأفهام.

حين عاد للمرة السابعة في حوارنا للتفاخر بشهادة الشيخ الشعراوي والدكتور مصطفى محمود في حقه، قلت له إنه يتحدث عن آراء انطباعية لا يمكن أن نعتمد عليها بشكل قاطع، في حين نتجاهل آراء علماء كبار استندوا إلى الشريعة الإسلامية في استحالة دخول الجن لجسد الإنسان أو قدرته على إيذائه، وقبل أن أسرد له نماذج من هذه الآراء قاطعني قائلاً:

"طبعاً، الجن لا يمكن أن يؤذي الإنسان المؤمن فقط، لكن شوف، المشكلة اللي بتحصل في أيامنا دي إحنا المتسببين فيها، عشان احنا لا نبسمل قبل الأكل، فالشيطان يأكل معنا، ولا ندعو عند دخول الخلاء. الحمامات عندنا دلوقتي عاملة زي الديسكو، الجرنال تقرأه في الحمام، والسيجارة تشربها في الحمام، زمان كنا نسميه "بيت الأدب"، دلوقتي بقي بيت

المسخرة.

- يعني الحمامات وراء كل ما تتحدث عنه؟

آه طبعاً، الحمامات مسكونة بالشياطين مثل الأماكن المهجورة، هناك أحاديث يرويها ابن القيم عن وجود الصرع وعن علاج الرسول (ص) لطفل مصاب بالصرع بقراءة الفاتحة والمعوذتين.

- لكن العلماء الثقات قالوا إن هذه الأحاديث ضعيفة ودعني أقرأ لك نصوص كلامهم؟

(مقاطعاً) يقولوا اللي يقولوه، لو شفت شيء بعيني يبقى انتهى كل شيء.

- لكن بنفس المنطق الشرعي الذي تتحدث عنه، نحن نرى وقوع السحر بأعيننا، فلماذا لا يكون ما تفعله سحراً كما يقول القرآن (سحروا أعين الناس واسترهبوهم)؟

(بغضب) سحر إيه؟ لما تجيب واحد بيتشنح أو مهلوس وبقي له سنين ويشفى، إزاي أكون سحرته؟

- ومين اللي يقدر يحكم إنك عالجتة إذا كنت ترفض وجود إشراف طبي على ما تفعل؟

لإنهم مش هيقدرُوا يفهموا المنطق اللي أنا شغال بيه، هما عايزين كل حاجة ليها تفسير وفي حاجات كتيرة مالهاش تفسير واللي باقوله يشهد عليه ناس كتيرة.

- كم عدد الذين ترددوا عليك خلال السنوات الماضية؟

أولف في كافة بقاع العالم، مرة جاني أحد مسئولي دولة عربية بعد ما لف على لندن وباريس جاءني إلى القاهرة بزوجته المشلولة وبعد أسبوع وجد زوجته تمشي على قدميها، أنا الحمد لله كل شغلي قدام الصحف وكاميرات التلفزيون، وكل من يهاجمني هم بعض الحاقدين من الصحفيين، وأنا باتكلم هنا بوصفي صاحب صحيفة ويهمني أمر الصحافة.

- طيب ليه ما فكرتش تسخر قدراتك الروحانية ضد الحاقدين دول؟

لو كنت عندي هذا المبدأ لما اشتهر عني العلاج بالقرآن، ناس كتير يسألوني: ليه بتلجأ للقضاء لما عندك القدرات دي؟ في إنسان غبي عميد كلية كتب مرة هذا الكلام، سهل جداً إنني أعمل لحد مشكلة لكن ما اشتهر عني عكس ذلك.

- هل هناك مشاهير ترددوا عليك للعلاج؟

كل الطبقات عالجتها.

- يعني عالجت مسئولين ورجال أعمال وفنانين؟

من الألف للياء، لكن المشاهير بالذات بيعوزوا واحد يساعدهم، إن فلان عايز يطلع على كتف فلان وفلانة عايزة تطلع على كتف فلانة. لكني لا أقوم بهذا أبداً.

- هل عالجت أساتذة جامعة وأطباء؟

كتير.

- لماذا لم يذهب هؤلاء للطب النفسي في رأيك؟

لأن بعضهم يعتبر الذهاب للطب النفسي أمر معيب، لذا يفضل إنه يروح لحد ثاني بشكل "توب سيكريت"، لعلمك أنا عالجت مرة طبيبة نفسية وسألتها "بتعملوا إيه لما بيجي حد يقول إن عنده جن بيكله بلغات أخرى" قالت لي: "بنعطيه مهدئات ينام 3 أو 4 أيام لو صحي وما بقاش كويس يروح لدكتور ثاني"، هل ده كلام؟ أغلب الطب النفسي مهدئات أو مسكنات، زمان كان فيه تحليل نفسي. أنا مرة عالجت في بداية حياتي ابن اختي. كان رفيع جداً وبياكل كل اللي في الثلاجة، واتضح أنه ملبوس بجني عندما وقع مرة في المقابر، والجني كان اسمه عبد الله وبعد ما خرجته لقيت صوت نسائي بيولول، قالت لي "أنا اسمي فاطمة.. رجّع لي جوزي.. ومعايا هنا ولادي وأبويا"، وعشان كده أنا أحسن أولادي بالقرآن وأشربهم ماء عليه آيات الحفظ.

غلبتني ابتسامة ساخرة خلال حكاية حسين شاهين عن ابن أخته وعلاقته بالثلاجة، فغضب جداً واعتبر ذلك سخرية من كلامه تستحق إيقاف الحوار الذي طال أكثر من اللازم في رأيه، ولم أستغرب عصبيته فقد بدا لي منذ البداية متوتراً ومفتقداً إلى الكاريزما الطاغية التي ترتبط عادة بالدجالين والمشعوذين، والتي كنت قد لمستها خلال لقاء بمشعوذ سابق خلال سنوات، وهو ما فسرته فيما بعد صديقي المحنك في الشأن الروحاني بأن أُمي "داعية لي" ولذلك كان كعب ملاكي الحارس الحاضر معي أعلى من كعب أسياد مولانا، فأربكوا

حساباته فلم يتمكن من السيطرة علي ولا من "ربطي" أو
إيذائي بعد انتهاء الحوار، ولذلك أوصاني صديقي المحثك
بأن أحرص على عدم إغضاب أُمي لأنني سأظل مرصوداً من
أسياده حتى ينتقموا له بسبب ما كتبتة عنه.

لم تكن ابتسامتي الساخرة سبب غضب حسين شاهين
الوحيد، فقد انفعل حين طلبت منه أن يواجه لجنة من
الأطباء والمتخصصين للحكم على الأشخاص الذين يقول
إنه عالجه، وانفعل حين حاولت أن أقرأ له مقاطع من
كتاب بعنوان (استحالة دخول الجانّ بدن الإنسان) للباحث
إيهاب بن حسن الأثري قام فيه بمناقشة كل الآيات القرآنية
والأحاديث النبوية التي يستند إليها المتاجرون بالقرآن في
سبوبة علاج المس الشيطاني واللبس العفاري، وكان هذا
الباحث قد زارني قبلها بعام في صحيفة (الدستور) لي شكرني
على مقال كتبتة عن متاجرة بعض الشيوخ بالأكاذيب
المنسوبة زوراً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأعطاني
كتابه وبعضاً من أبحاثه، وشكا لي من تجاهل مشاهير
المشايخ لأبحاثه برغم أنه ينطلق من منطلقات شرعية بحتة،
ولم أستغرب ذلك التجاهل، كما لم أستغرب إصرار قاهر
العفاري على ذكر اسم الشعراوي والدكتور مصطفى محمود
كلما حاولت مناقشة ما يزعمه عن وجود أسانيد شرعية لما
يقوم به.

لم أستغرب أيضاً حرص حسين شاهين على التفاخر
المستمر في كل الحوارات التي يجريها بالحكم القضائي الذي

جاء لصالحه في القضية التي رفعها على القارئة آمال عبد الرحيم لأنها كتبت في صحيفة (عقيدتي) الحكومية التابعة لمؤسسة الجمهورية مقالاً تنتقد استضافة الفنانة إسعاد يونس له في برنامجها (مساحة حرة) الذي كانت تقدمه على قناة أوربت، واعتبر المقال سباً وقذفاً في حقه، وحصل في مايو 1998 على حكم بحبس القارئة ستة أشهر في حكم صادم استخدمه بقوة في الدعاية لنشاطه، وكان ذلك الحكم المستفز سبباً في زهابي لمحاورته.

لم يكن انحياز القضاء لأمثال قاهر العفاريات المزعوم جديداً، فقد سبق أن أصدرت محكمة الجيزة للأحوال الشخصية عام 1984 حكماً بتطليق امرأة من زوجها بعد أن ثبت للمحكمة بشهادة الشهود أن الزوج قد تزوج بأخرى من بنات الجن وأنجب منها طفلين، وأن الضرة الجنية تسيئ معاملة ضررتها الإنسية، ولولا أنني قرأت مقالاً للشاعر الدكتور نصار عبد الله يعلق فيه باستفاضة على الحكم في أحد أعداد مجلة المصور الصادرة بتاريخ 11 يناير 1985 لما كنت قد صدقت إصدار القضاء لحكم كهذا. كان الدكتور نصار قد أشار فيما كتبه إلى مقال نشرته صحيفة (الأهرام) في عام 1997 لواحد من رجال القضاء البارزين بعنوان (أبناء الشياطين) يتحدث فيه عن بعض الحالات التي يمكن فيها للمرأة الإنسية المتزوجة من إنسي أن تحمل سفاحاً من الجن وتلد أولاداً هم من ضلب الجن بينما الزوج الإنسي يتوهم أنهم من ضلبه، ويرجع سبب هذه الحالات في رأي "سيادة المستشار" إلى

أن الزوج لا يبدأ بالبسملة قبل أن يجامع زوجته أو يجامعها بدون غطاء فيقوم الشيطان بمضاجعتها.

لحسن الحظ، لم يدم رضا القضاء عن حسين شاهين طويلاً، فبعد أشهر من لقائي به، صدر حكم قضائي نهائي ببراءة القارئة آمال عبد الرحيم من تهمة سبه وقذفه، وكنت قد تعرفت عليها عقب نشر حوارتي معه في مجلة (صباح الخير)، حين دعاني زوجها رسام الكاريكاتير طه حسين لزيارة منزلهما في شارع السودان بالمهندسين، وكانت الأسرة وقتها تعيش في حالة رعب من تأييد القضاء للحكم الذي صدر بحبسها، خصوصاً أنها كانت تتعرض لحملة تهديدات متوالية دفعت الأسرة لتغيير رقم هاتف المنزل، وبدأ بعض الأقارب والأصدقاء ينصحون بتغيير عنوان السكن، أو بالاعتذار لحسين شاهين درءاً لشهره، لأنه لم يصل إلى ما وصل إليه من شهرة ونفوذ إلا لأنه كان مدعوماً من بعض أصحاب النفوذ وعلى رأسهم لواءات شرطة وجيش والدكتور محمد عبد العال أحد رؤساء الأحزاب الكرتونية المرتبطة بجهاز أمن الدولة، والكاتب سمير رجب المقرب من حسني مبارك والذي فتح لحسين شاهين صفحات صحيفة (المساء) الحكومية أيام كان يرأس تحريرها.

بعد نشر الحوار الذي أعقبته بتفنيد شرعي لآراء من يزعمون وجود أصل في الشريعة لدخول الجن بدن الإنسان، وصلتني رسائل تكشف بعضاً من الماضي الأسود لحسين شاهين الذي فوجئت أنه نجا من حملات شرسة وموثقة شنها

قبل سنوات من لقائي به صحفيون من أبرزهم الصحفي عبد الرحمن إسماعيل بصحيفة (الشعب) والذي كشف أن نقابة المهندسين أثبتت في خطاب رسمي موجه لمحكمة الزيتون الابتدائية أن قاهر العفاريث كان ينتحل صفة المهندس لسنوات وأنه ليس مسجلاً في النقابة على الإطلاق، ثم اتضح أنه كان يعمل فنياً بإدارة الطب البيطري بالمحلة منذ عام 1975، ثم سافر إلى الأردن عام 1983 وعمل بأحد الفنادق وتم اتهامه في جريمة سرقة مولد كهربائي وشُجّلت ضده جناية في عام 1985، لكنه تمكن من الفرار إلى سوريا، وعاد إلى مصر في ثياب قاهر العفاريث ليحصل على ثروة مكنته من فتح شركة لتسفير العمال إلى الخارج في المحلة الكبرى.

بعد فترة من توسع نشاط الشركة، انكشفت الألاعيب التي مارسها قاهر العفاريث على العمال الحالمين بالهجرة، فصدرت في حقه عدة أحكام بالسجن، نُقِذ منها حكماً بالسجن لمدة شهر وحكماً آخر بالسجن لمدة ثلاثة أشهر، لكن ذلك لم يمنعه من التوسع في الدجل والشعوذة، لتنتشر صحيفة (الوفد) فضيحة له بطلتها طالبة في الجامعة الأمريكية قرأت عن فتوحاته ضد العفاريث في صحيفة (الأخبار) الحكومية فذهبت إليه ودعته إلى منزلها لطرد العفاريث التي تقلق أسرتها، فاستولى على مجوهراتها هي ووالدتها بدعوى كتابة تعاويذ عليها، وأقنع الطالبة بنت الأكابر بأن العفاريث لن تخرج من حياتها إلا إذا هو دخل شخصياً إليها، وتزوجها بدون علم أبيها الذي كان يعمل في السعودية،

وحيث علم الأب وصمم على طلاق ابنته طلب منه مئة ألف جنيه مقابل الطلاق.

لكن كل هذه الحملات لم تفلح في فضح حسين شاهين وكسر صورة (قاهر العفاري) المدموغة ببركة الشيخ الشعراوي ومديح الدكتور مصطفى محمود، ولم تتوقف الصحف الحكومية وبعض القنوات التلفزيونية عن استضافته، لكن حدة تلميعه خفت بشكل ملحوظ بعد أن أحدث الحكم الذي حصل عليه بحبس السيدة آمال ردود أفعال غاضبة دفعت الكثير من الكتاب والصحفيين إلى استنكار الحكم ومهاجمته، وزادت وتيرة الهجوم عليه بعد صدور حكم براءتها في 17 يناير 1999، وأذكر أنني طلبت من السيدة آمال أن تكتب شهادة عن تجربتها المؤلمة، نشرتها يوم 31 يناير 99 في باب أسبوعي مختص بقضايا الصحافة والإعلام كنت أحرره بصحيفة (الجيل) التي عملت فيها لفترة قصيرة بعد إنشائها، واخترت لشهادتها عنوان (المرأة التي قهرت قاهر العفاري تتحدث)، وبعد أن قالت في نهاية شهادتها إنها سترفع دعوى قضائية ضده تطالب بالتعويض عما أصابها من ضرر مادي ومعنوي ونفسي، تضامن معها عدد من المحامين البارزين معلنين استعدادهم للمرافعة عنها وتمثيلها مجاناً.

بعكس ما توقع الكثيرون، لم يشن حسين شاهين حملات مضادة يستخدم فيها أصدقاءه للالتفاف على الحالة التي أحدثها الحكم، ولم يرفع المزيد من القضايا على "الحاقدين"،

بل اختفى فجأة، لأن الأيادي التي كانت تحميه تخلت عنه،
وقيل إنه نفذ تهديده بالسفر إلى "من يعرفون قيمته" خارج
مصر حيث لا يوجد "صحفيون حاقدون" يقرشون ملحته،
وبالطبع، توقعت أن يكون اختفائه مؤقتاً، وأن يعاود الظهور
في ثوب جديد كما فعل من قبل، لكنه ويا للعجب لم يظهر من
جديد، ولم تصبني لعنته، حتى الآن.

حرامي كتب ولا أفتخر

قبل عدة سنوات، كنت ستقرأ هذا العنوان كما كان ينبغي له أن يكون: "حرامي كتب وأفتخر"، لكنني الآن أصبحت أباً، و"بناتي على وش امتحانات"، ولا أظنه يرضيك أن تقرأ إحداهن مقالة أفتخر فيها بسرقاتي للكتب وأنا صغير، فيغريها ذلك بالاقتداء بي، فتذهب إلى مكتبة جامعته العامرة بالكتب، لتسرق منها ما خف حمله وغلا ثمنه، وحين تُضبط متلبسة، لأنها لن تكون موهوبة في سرقة الكتب مثل أبيها، كما أرجو وأتمنى، ستقول لهم بالتأكيد إنها لم تفعل سوى ما كان يفعله أبوها من قبل، ومن شابه أباه فما ظلم، لذلك كان مهماً أن أبدأ حديثي عن تجربتي في سرقة الكتب بإعلان عدم الفخر، ثم أتبع ذلك بإدانة سرقة الكتب أبشع إدانة، والتأكيد على أن السرقة ليس فيها سرقات صغيرة بريئة وأخرى كبيرة مدانة، فالجريمة واحدة، سواء إذا تمكنت من سرقة مجلدات الموسوعة البريطانية، أو كنت حصيفاً واكتفيت بسرقة "السي دي" الذي توجد عليه تلك المجلدات.

ولأن كتابة كهذه تهدف بالأساس إلى الوعظ وضرب الأمثال ونشر العبرة، دعني أؤكد لك أنني توقفت عن سرقة الكتب، بمجرد أن أصبح لدي ما أكسبه، وأنفق منه على شراء الكتب، وأني بدأت سرقة الكتب لأسباب لا علاقة لها بالحرمان الطبقي وغياب العدالة الاجتماعية، فقد بدأت فعل ذلك من باب التمرد والعند، نكاية في أبي رحمه الله الذي كان يحب كتبه حباً جماً، فكان يغلق عليها غرفة المكتبة، نعم كان

هذا اسمها، فمحبوبك نشأ في بيت به غرفة كاملة متوسطة الحجم اسمها المكتبة، تمتلئ من أم سقفها إلى أخمص أرضيتها بدواليب محملة بالكتب، من بينها عشرة رفوف على الأقل، تفيض حتى الحواف بكتب للأطفال والبراعم والزهور والفتيان والناشئة والطلائع، ومع ذلك فقد كان الاقتراب من الغرفة وكل ما فيها أمراً محرماً على الكل، إلا في وجود أبي الذي كان ناظر مدرسة قد الدنيا، لكنه على ما يبدو كان لديه حلم شخصي مجهض بأن يكون أمين مكتبة، ولذلك فقد كان يشترط أن يكون مرور الكتب من خلاله وحده لا شريك له، لتكون قراءتنا لها طبقاً لأولوياته الشخصية، التي كان على رأسها القصص الدينية، والتي لم أحب منها سوى (قصص الحيوان في القرآن) للكاتب الكبير أحمد بهجت، والتي أحببتها أولاً من خلال رسوم الفنان الكبير إيهاب شاكر البديعة التي كانت تصاحبها.

بدأت مشواري في سرقة الكتب ذات يوم قرر فيه أبي أن يمنحني أنا وإخوتي جولة حرة في المكتبة، سمح لنا فيها بتصفح الكتب دون اختيارها، ويومها وقعت عيني على مجموعة كبيرة من كتب كامل كيلاني، الكاتب الرائد الذي لا يدرك الكثيرون عظيمته وأهمية دوره حتى الآن. سحرتني أغلفة تلك الكتب التي كانت دار المعارف تختار لها فنانين في غاية المهارة والإبداع، وحين طلبت من أبي أن يعطيني بعضاً من تلك الكتب التي كانت تحتل رفأً بأكمله في أحد الدواليب، قال إن سني ليس مناسباً لقراءتها بعد، وحين اعترضت على

القرار، اعتبر أبي ذلك قلة أدب تستوجب حرمانى أصلاً من دخول المكتبة في جولات تالية، والاكتفاء بانتظار ما يختاره لي من كتب، ليتدخل الشيطان مشكوراً، ويقترح عليّ حلاً وسطاً، يحقق رغبتى في قراءة ما يحلو لي من كتب دون أن أغضب أبي وأعكر صفوه، وهو أن أقوم بسرقة مفتاح غرفة المكتبة، الذي يحتفظ به أبي في سلسلة مفاتيحه، التي لا تفارقه أبداً، إلا حين ينام، لتختلط شهوة استغفال الأب وتحدي قوانينه، بالرغبة العارمة في المعرفة الحرة، وينتج عن ذلك الخليط براعة في اللصوصية لو لم تكن في سبيل القراءة وحدها لما أتيت بذكرها أبداً.

كان أبي يحرص بعد عودته من المدرسة على القيلولة كل يوم، لينام لمدة ساعة ونصف بالدقيقة، قبل أن يستيقظ لصلاة العصر، ولأن نومه كان "نوم شقا"، فقد كان ذلك يسهل مهمتي في اختلاس سلسلة مفاتيحه بأقل قدر ممكن من الضجة، قبل أن أغادر الغرفة دون أن ينتبه أحد إخوتي، أو تضبطني أمي التي كانت لحسن الحظ قد ثبتت ذلك الوقت بالذات، ليكون مخصصاً لتحضير الدروس التي ستقوم بتدريسها في المدرسة في اليوم التالي، قبل أن يصحو أبي وتتوالى مطالبه.

ولأن الإنسان في لحظة الخطر يكتشف مواهبه المكبوتة، يدهشني الآن أن أتذكر كيف كنت في كل مرة أحرص على اختيار عدد وحجم الكتب التي أنتقيها، لكي أنجو من عواقب الانجراف وراء النهم إلى الكتب ذات الأجزاء، والتي يمكن

لغيابها أن يثير شبهات أبي، خاصة وقد كان تفقد أرفف المكتبة من رياضاته المفضلة، ولم أكن أدري وقتها الفائدة التي سأكسبها من جراء العناء الذي كنت أعيشه، حين أتوقع مسار القصة التي قرأت جزءها الأول، حتى أكمل جزءها الثاني في اليوم التالي، فتصيب هذه التوقعات حيناً، وتخيب أحياناً، وهو ما كان سبباً في اكتسابي عادة معارضة القصة التي لم تعجبني تطوراتها، لأقوم بكتابة نسختي الخاصة منها في كشاكيل كنت أحرص على إخفائها أكثر من حرصي على "تخبية" عدد مجلة (بوردا) لملابس البحر، الذي سرقته هو الآخر من دولاب أمي لأسباب معرفية مغايرة.

كان أسوأ ما في الأمر أنني كنت مضطراً في الوقت ذاته لقراءة الكتب التي كان يختارها لي أبي، لأن أبي كان يحب أن يناقشني فيها، ليتأكد من إدراكي عِظَات تلك الكتب وعبرها، وقد كان الكثير منها كتباً "فيها العبر" بالفعل، ومع أن بعضها كان لطيفاً جداً مثل الكتب التي كان يؤلفها محمد عطية الإبراشي في سلسلة (المكتبة الخضراء)، التي قمت بشرائها لبناتي، ثم اكتشفت أنها لن تناسب أذواقهن التي تشكلت في عصر مختلف. وبغض النظر عن تباين المستوى الفني للكتب التي كان أبي يختارها لي، فقد كان إجباري على قراءتها يجعلها ثقيلة على قلبي، فضلاً عن أنني بعد فترة من الاستمتاع بقراءة الكتب المسروقة، أصبحت "أستتفه" الكتب التي يختارها أبي، بعد أن تجاوزت مضمونها الطفولي السهل، وأصبحت أفضّل قراءة الأساطير اليونانية والإغريقية

والملاحم الفارسية وقصص التاريخ الفرعوني وحكايات التراث العربي والروايات العالمية التي كان كامل كيلاني يعيد كتابتها بأسلوب شديد الإمتاع.

يحضرني الآن بالتحديد كتاب كان لون أوراقه غريباً جداً، برتقالياً ربما أو شيئاً من هذا القبيل، أذكر أنه كان من تأليف الكاتب الكبير عبد التواب يوسف، وكان يحكي في الكتاب عن بعض من أساطير اليونان والفرس، والتي تسرد صراع الآلهة مع بعضهم على مصير الكون، وكان يفصل بين القصص رسوم لا أذكر اسم مبدعها، لكن ذاكرتي مسكونة حتى الآن برسم من تلك الرسوم يصور من يفترض أنهما إلهان فارسيان، لكل منهما جسم مقاتل يرتدي درعاً ورأس أسد، ويشهر كل منهما سيفاً في وجه الآخر، وبعد أن قرأت ذلك الكتاب حدثت في مدرستي واقعة مدوية، حين تم ضبط زميل لنا دأب على سرقة سندوتشات زميل آخر، كانت أمه تتوضى به في السندوتشات كل يوم، وقرر مدرس الدين الأستاذ عبد الباسط، أن يلقي علينا حديثاً حاراً عن عاقبة السرقة، تطرق فيه إلى عقوبة قطع اليد التي قررها الله على السارق، حفظاً للمجتمع من الضياع، ولأن الأستاذ عبد الباسط كان موهوباً في وصف مشاهد الجحيم والعذاب أكثر من أي شيء آخر، فقد ظللت لفترة أعاني بعد حديثه من كابوس مفزع، أرى فيه إلهاً فارسياً برأس أسد، يخرج من جيب بنطلون أبي، كلما امتدت يدي إليه لسرقة سلسلة المفاتيح، ثم ينهال على يدي بسيفه ليقطعها، فأصحو صارخاً من شدة

الرعب، وهو ما فسرته أُمي مَسَاهَا الله بالخير بأنني أفرط في العشاء أكثر من اللازم، وهو ما أدى إلى حرمانني من نصف كمية العشاء لعدة أيام، إلى أن تمكنت من جمع شتات نفسي لأستعيد كامل عشاءي وكامل متعتي بسرقاتي المعرفية المنتظمة.

شوف، لا يشكر في نفسه إلا إبليس، ولذلك لن أقول لك إن عدم ضبطي ولو لمرة خلال عام بأكمله، كان وراءه مهارتي الفائقة في السرقة فقط، فقد كان وراء ذلك حسن حظي أولاً، وانتظام عادات أبي وأُمي اليومية ثانياً، وهو ما جعلني أجهز في وقت قياسي على رفوف كتب الأطفال، ثم أنتقل منها إلى كتب الفتيان والناشئة و"الطلائع" التي كان أبي يدخرها لكي أقرأها بعد سنوات، وحين انتقلت بعد انتهائي منها إلى الأرفف المجاورة، اكتشفت خلوها من الروايات والقصص والكتب الأدبية، التي لم يكن أبي محباً لها، ولم أجد إلا بعضاً من كتب التراث التي تم تقريبها، بأسلوب يشبه ما فعله كامل كيلاني، أذكر من بينها سلسلة كتب بعنوان (السمير المذهب) التي جمعها علي فكري وكانت تحوي عدداً من الطرائف والواردات التراثية، وكانت سبباً في محبتي اللاحقة لهذا النوع من الكتب، ثم حدث في ذلك الوقت أن وجدت مع شقيق أحد زملائي، قصة من قصص سلسلة (المغامرون الخمسة) التي كان يبدعها الكاتب الرائع محمود سالم وتصدرها دار المعارف، لاكتشف أنني لم أقرأ مثل هذا النوع من قبل، لأن أبي لم يكن من هواة شراء الألبان والقصص البوليسية،

وحين سألت شقيق زميلي من أين حصل على تلك القصة، قال إنه اشتراها من مكتبة قريبة من مدرستي، ومن هنا جاء انتقالي إلى المرحلة التالية من السرقة التي كانت أكثر جراءة وتعقيداً.

لن أتهم إبليس باقتراحه تلك الفكرة، لأنني لا أذكر وجوده بالجوار حين طرأت على ذهني تلك اللعبة الخطيرة، والتي كنت أقوم فيها بسرقة مفاتيح المكتبة من جيب أبي، ثم أدخل المكتبة وأفتح بحذر شديد السلم الذي كان يستخدمه أبي في الصعود إلى الأرفف القريبة من السقف، فأختار من كل رف كتاباً أو اثنين قبل أن أعيد ترتيب الرف، وأذهب في اليوم التالي بعد خروجي من المدرسة إلى المكتبة لأقول لصاحبها إنني أريد مبادلة الكتابين ببعض القصص البوليسية، لأن أبي مسافر إلى الخارج للعمل، وما يرسله لي ولأمي المريضة وإخوتي يكفي بالكاد للإنفاق على الأسرة، وهي قصة كانت تجعل الرجل لا يلقي بالأنوعية ما أحضره له من كتب، فقد كان يقبله أياً كان، ربما لأنه لم يتخيل أن تخطر كذبة بهذا التعقيد على عقل طفل في سنة رابعة ابتدائي.

كنت مبتهجا بكذبتني ونتائجها السريعة المبهرة، التي جعلتني أعيش لفترة في ضاحية المعادي بصحبة تختخ وعاطف ومحب ونوسة ولوزة والشاويش فرقع، ثم بصحبة ثلاثة مغامرين آخرين لم أعد أذكر أسماءهم الآن لعبوا بطولة سلسلة مشابهة أقل جاذبية، دون أن أدري أن تلك الكذبة اللعينة، ستكون سبباً في انهيار صرح البهجة الذي بلغت به

عنان السماء، لأن تسارع وتيرة سرقتي للكتب التي يضعها أبي في أماكن قصية من رفوف مكتبته، جعل صاحب المكتبة يشك في أن يكون لدى أسرة فقيرة كل هذا القدر من الكتب التي لم أكن أعرف أن بعضها نادر ومهم، فبدأت أسئله تنهال علي في كل زيارة، لأضطر إلى الكذب على الهواء دون تفكير أو تخطيط، فتتضارب معلومات حديثة مع سابقات لها، فأفقد ميزة "الكذب المتساوي" التي أوصتنا بها الحكمة الشعبية القائلة: "كذب متساوي ولا صدق مجزف"، فيضعني الرجل في دائرة الشك والتحري، حتى حلت النهاية المؤسفة، حين دخل المكتبة جار لي أثناء جلسة تحقيق، فقررت فور رؤيته أن أجري من المكتبة مسرعاً، تاركاً الكتاب الذي أحضرته معي، ودون حتى أن أحصل على الغنيمة المبتغاة، ليدور بين صاحبها وجاري حوار عرف منه أنني ابن ناظر المدرسة القريبة من مكتبته، ولأن أخاه الأصغر كان طالباً فيها، فقد قرر الرجل أن يشتري مستقبل أخيه على حساب مستقبلي، ليذهب في اليوم التالي إلى أبي في مكتبته، حاملاً الكتب التي سرقتها من مكتبته، مخلياً مسئوليته ومتقمصاً دور الناصح الأمين القلق على شخصيتي من أن تقع أسر الإدمان الأبدي للكذب.

حسناً، أنت تحب بالتأكيد أن تعرف ما حصل بيني وبين أبي بعدها، وأنا لا أحب تذكره بالتفصيل لأسباب تتعلق بأمانتي النفسي وهييتي أمام بناتي، ولذلك سأكتفي بإخبارك أن مواجهتي مع أبي تسببت في حرمانني من المدرسة أسبوعاً،

حتى تختفي آثار الكدمة المريعة التي تسبب فيها ارتطام وجهي بدولاب معبت في الحائط، بعد أن جريت هرباً من لسعة سلك الكاسيت الذي كنت أسميه (العبان الأقرع)، وأن الدم الذي سال من وجهي أنقذني من حيث لا أحتسب، خاصة أن أمي شكلت وقتها درعاً بشرياً يحتضني، حتى هدأت ثائرة أبي الذي ظل لفترة يلقي مونولوجاً ملحمياً تختلط فيه مشاعر خيبة الأمل في ابنه الأكبر بمشاعر الأسى على الفضيحة التي سيرويها صاحب المكتبة لكل زبائنه بالتفكير في خطط عاجلة لاحتواء الأزمة، كان من بينها اقتراح رائع من ست الحبايب بضرورة إسكات لسان صاحب المكتبة بالاتفاق معه على شراء أسبوعي للقصص والألغاز البوليسية، فضلاً عن اتخاذها الأمر ذريعة لفتح موضوع إتاحة المكتبة لي ولإخوتي، ولو لساعتين كل يوم، مذكرة بمبدأ "الممنوع مرغوب" الذي اتضح أنها كانت قد أثارتة مراراً دون علمي، وحين وافق أبي على التفكير في إتاحة المكتبة بشكل أسبوعي بشرط أن تتحمل هي مسؤولية ما يتم أخذه من كتب ويكون له حق الرقابة عليه، وجدت نفسي منقسماً بين كتم ألم الارتطام وكتم فرحة التغيير، لكيلا يستفز ذلك أبي، فيعود لفش غله في.

كان ذلك آخر عهدي بسرقة الكتب، داخل المنزل على الأقل، لأنني نفذت بعد ذلك عدة عمليات خاطفة، داخل مكتبة الواشي اللعين، بهدف الانتقام مما فعله بي، وكان أبرز غنائمي منه، بعضاً من أعداد سلسلة الشياطين الـ 13، التي لم أحبها

أبداً، وكان آخر غنائي مجلد لأعداد مجلة (سوبر ميكى) لا زلت أذكر أن غلافه كان أحمر اللون، وقد كانت فرحتي به عارمة، لدرجة أنستني أهمية اختيار مخبأ جيد وغير متوقع، مما جعله يقع في يد أمي، التي أسقط في يدها، وبعد وصلة من التقطيم والتعبير عن خيبة الأمل، كان تهديدها لي واضحاً وصريحاً: إما إعادة المجلد إلى المكتبة والاعتذار لصاحبها، أو تصعيد الأمر إلى أبي، لتكتمل وصلة "الغبان الأقرع" التي لم يُكتب لها الاكتمال، ومع أن ذلك لم يكن خياراً محيراً، لكنني قلت لها بكل صلابة - أو بجاجة بمعنى أصح - إنني سأعيد المجلد دون أن أعتذر، مطمئناً إياها بأن صاحب المكتبة لن يشعر بذلك، لأنني كنت أتعهد تنفيذ غاراتي عليه، في الوقت الذي تتردد على المكتبة طالبات المدرسة الثانوية اللواتي يذهلنه عما حوله، وحين ذكرتني أمي في ختام جلستنا، بعقاب الله الذي يحل على اللصوص، وجدت نفسي أتذكر الإله الفارسي حامل السيف، ليقلب لي ذلك ابتسامة خاطفة جلبت لوجهي صفة حُظافية، جلبت بدورها لأذني صغيراً متقطعاً لازمني عشية وضحاها.

هذا وإنه ليطيب لي إبراءً لذمتي وإراحة لضميري، تحذيرك من أن تظن أنني نجحت في الإفلات من عواقب سرقاتي، فالدنيا دَوّارة و"الباد كارما" لا تغادر كبيراً ولا صغيراً إلا واقتضت منه، فبرغم أنني أقلعت عن سرقة الكتب منذ زمن طويل، إلا أن الله أرسل إلي من يسرق من مكتبتني، كما كنت أسرق من مكتبة أبي، بل وشاءت عدالته السماوية التي أنزلها

من قبل على استاد باليرمو الدولي، أن يكون السارق الأثيم المتسلسل واحداً من أعز أصدقائي، لأذوق مرارة مزدوجة بدلاً من أن أشعر بمرارة المسروق والمتعرض للخيانة كلاً على حدة، ولأفهم أخيراً ذلك التعبير المؤلم الذي ارتسم على وجه أبي في يوم اكتشاف سرقتي، والذي لم أر مميلاً له إلا على وجه ميل جيبسون في فيلم (القلب الشجاع)، حين نزع القناع عن وجه غريمه في المعركة، فاكشف أن العدو الشرس الذي كان يبارزه، لم يكن سوى الحليف الذي أقسم على مساندته، وهو ما شعرت به بحذافيره حين فهمت بعد فوات الأوان، لماذا ظل أعز أصدقائي يتهرب من دعوتي إلى زيارة شقته الجديدة لأشاهد المكتبة التي أخذ يباهي بها الجميع.

يومها، ذهبت إليه بصحبة صديق ثالث، لنطمئن على صحته، بعد أن غاب عنا عدة أيام، وحين أدخلتنا زوجته إلى الريسبشن الذي زينته المكتبة التي كان يتفاخر بها، وذهبت لتوقظه من نومه، فوجئت بعد مرور سريع على دواليبها، بأنه قاتله الله، خصص رفاً كاملاً للكتب التي سرقها من مكتبتني، وضع فيه ما خف حمله وغلا ثمنه من الروايات المترجمة الواردة من بيروت ودمشق وكتب مؤسسة السينما السورية التي كانت تنفذ فور قدومها إلى معرض الكتاب، ولم يشأ اللعين إمعاناً في الاحساس بالانتصار أن يفرق مسروقاته على الأرفف، فقرر تجميعها في رف واحد، ليشعر كلما نظر إليه بنشوة استغفالي، حتى أصبحت على يقين أنه حين

يشعر بالاكئاب ويبحث عن بهجة سريعة، يقرر تقليد ضباط
الداخلية في تفننهم في رص مضبوطاتهم من المخدرات
والأسلحة، فيقوم برص الكتب التي سرقها مني بطرق
مبتكرة، ثم يتصور معها على أمل أن تأتي فرصة لأشاهد هذه
الصور بعد أن يهرب يوماً ما خارج البلاد، مصطحباً مسروقاته
من كتبي الغالية، فتكتمل بهجته وتدوم إلى الأبد.

ولعلك الآن تكون وصلت إلى العبرة، التي ما كتبت هذا
الكلام إلا من أجل أن تصلك فتتعظ بها ومفادها: "حين يتعلق
الأمر بالكتب لا تحدثني عن حقوق الصداقة، ولا تتردد في
تفتيش أعز أصدقاءك قبيل خروجهم من بيتك، ولا تستبعد
أبداً الأماكن الحساسة لحظة التفتيش ثقة منك في راحة
عقل زائرك، فلسرقة الكتب شهوة تدور لها رؤوس أطيب
الأطفال وأعقل الرجال وأعز الأصدقاء".

ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

شيء عَفِن في الزبداني!

وصلنا إلى مجرى النهر فلم نجد النهر، بل وجدنا مكانه
تجمعاً مائياً هزياً، صدمتني تفاهته أكثر مما صدمت زوجتي
التي كانت تزور دمشق لأول مرة، أما أنا فقد رأيت قبلها
بخمسة أعوام، كيف يدوي الماء هادراً في مجرى النهر، ولذلك
حكيت لها قبل مجيئنا إلى سوريا عن تأثري بجمال النهر فور
أن رأيته وأنا أتسكع متجهاً صوب الجامع الأموي في قلب
دمشق القديمة، وكيف وقفت يومها جوار النهر منتشياً، أدندن
أغنية محمد عبد الوهاب الجميلة التي جعلتني أحن لرؤياه
قبل سنين من لقائه: "سلام من صبا بردى أرق.. ودمع لا
يكفكف يا دمشق".

لم يكن لمنظر النهر الراهن أدنى علاقة بما حكيت عنه،
ولذلك أخذت أعتذر لها بكثافة رأيتها مبالغاً فيها، في حين
كنت أشعر بالمسئولية عن دقة وعودي كعريس، فقد كنا في
أسبوع العسل الثاني والأخير بعد أن قضينا الأول في تركيا
التي كانت أروع مما توقعنا، وكنت قد اخترت دمشق لأنها
بصراحة كانت الأنسب لميزانيتي المحدودة، ولأن انطباعاتي
عن زيارتها الأولى خلال رحلة عمل قصيرة كانت رائعة، برغم
صدمتي مما رأيته من خوف رهيب من السلطة يغلف المدينة
ويغل أهلها حتى عن الهزار العابر الذي يمس رئيس البلاد
ومسئوليها.

حين رأيت بَرْدَى للمرة الأولى، بدا لي كتعريف جديد لكلمة

(النهر) التي كانت مرتبطة في ذاكرتي بنهر النيل وحده، حيث يزيل هدير الماء توجسك من السكون الخادع للنهر العُرم مترامي الأطراف، ويذكرك تطاير رذاذ الماء المندفِع بموج البحر حين يروق مزاجه، أما في المرة الثانية التي رأيتها فيه فقد كان من الصعب الإعجاب بتلك القناة الممتدة في وسط المدينة والخابِوة من أي تدفق مائي، لنفهم من أولاد الحلال أن حال بَرْدَى مرتبِظ بأوان زيارته، فقد كنا في أوائل الربيع "يوم أن قابلته أول مرة"، ولذلك كان فائضاً حتى حافتيه بالمياه الذائبة من ثلوج الجبال التي تحيط بمنبعه في ريف دمشق، أما الزيارة الثانية فقد كانت في أوائل شهر يوليو الذي يكاد فيه النهر أن يجف، ويخنق حر "تقوز" المدينة وأهلها، فيفرون نحو المصايف القريبة والبعيدة.

يومها كنا في صيف 2005، ولم تكن الهواتف الذكية قد فرضت سلطانها على الحياة، وإلا لكان الصديق العزيز جوجل قد أغنانا عن سؤال الغشيم، ذلك المواطن الصالح الذي أفتى لنا ونحن على ضفة "سرسوب" بردي، بأننا إذا رغبتنا في رؤية النهر في حال أفضل من هذه، فعلياً أن نذهب إلى منبعه في منطقة الزبداني التي تبعد عن قلب دمشق نحو نصف ساعة بالسيارة.

ما إن سمعتُ كلمة (الزبداني) حتى عاد أحمد بك شوقي ومحمد أفندي عبد الوهاب إلى صدارة المشهد مجدداً، فلطالما قرأت عن حبهما للتصنيف في حداثق الزبداني وبلودان الغناء، التي يرتادها أهل دمشق الفيحاء، ولذلك

شعرت أن لدي فرصة أخرى، لاثبت لعروستي أن قرار المجيء إلى سوريا في أسبوع العسل الثاني، لم يكن محض استرخا، بل كان قراراً موفقاً كسائر القرارات التي ستأتي بعده.

تحقّسنا أكثر للمشوار الذي لم يكن مُدرجاً على جدولنا حين عرفنا أن درجة الحرارة في الزبداني تقل عن دمشق بخمس درجات. لم يكن انطباع زوجتي عن دمشق سلبياً برغم الحر الخانق، فقد أحببت بالذات أحياءها القديمة التي سكنا بالقرب منها، أما أنا فقد كنت منذ وصلنا، أكتّم رغبتني في التعبير عن خيبة أُملي، لأن المدينة فقدت زهوتها التي شعرت بها أول مرة، ولم يكن الحر هو السبب الوحيد، فنحن لم نكن قادمين من اسكندنافيا يعني، ولم يكن وراء ذلك فقط معاناتي المريرة في مقاهي الإنترنت خلال بحثي عن موقع محترم غير محجوب، لأقرأ فيه ما يعينني على كتابة مواد صفحة (قلمين) التي كنت أحررها في صحيفة الدستور كل أسبوع، بل كان ما سمعته عن أحوال البلاد وهموم العباد، من أصدقائي الذين زاد عددهم واختلفت مواقعهم عبر السنين، والذين كان بعضهم في زيارتي الأولى قبل سنوات مستبشرين بقيادة الأسد الشاب، الذي حلم المتفائلون منهم، بأنه سيحدث في البلد تغييراً سياسياً وإعلامياً، ولو محدوداً كالذي أحدثه ملكا المغرب والأردن الشابين، ثم صفصفت أحلام التغيير على كوابيس كان أقساها أن وطأة القمع لم تتغير، في حين اشتدت وطأة الفساد، وزادت وتيرته بشكل

تجسدت أمامي كل خيبات الأمل تلك في يومنا الدمشقي قبل الأخير، الذي زرنا فيه دار الكتب الظاهرية العريقة، ونحن في طريقنا إلى زيارة قبر صلاح الدين والجامع الأموي، فما ظنناه في البدء تساهلاً محموداً في دخول الزائرين إلى المكان، اتضح أنه مظهر لإهمال كارثي يفوق ما كنا نعهده في مواقعنا الأثرية في مصر، ففي حين نشكو لدينا من كثرة الموظفين وثقل حضورهم ومبالغتهم في الظهور بمظهر حماة المخطوطات والكتب النادرة من الزائرين ومن نفسها، كانت دار الكتب الظاهرية خاوية على قاعاتها من موظفيها وزائريها، وحين دخلنا إلى قاعة تضم مئات الدواليب المكتظة بالكتب والمخطوطات، فوجئنا بمظاهر الإهمال والقذارة التي تحيط بالمكان، حيث تراكت كراسي خشبية مكسورة في ركن من القاعة، وأنبأتنا بيوت العنكبوت الموجودة حولها أنها لم تنبعث من مرقدتها هذا منذ زمن طويل، في حين ألقيت عشرات الكتب القديمة بإهمال شديد على المكاتب فغطاها التراب، وإذا نظرت إلى السقف لن تجد أجهزة إنذار ضد الحريق، وإلى الحوائط فلن تجد معدات إطفاء منتشرة بكثافة، كما يُفترض بدار من أقدم وأعرق دور الكتب في العالم، ليوسوس إليك الشيطان بأن سرقة بعض هذه الكتب النادرة سينقلها إلى مكان أكثر أماناً مما هي فيه، وتلوم نفسك لأنك لم تأت لزيارة الدار حاملاً حقيبة كبيرة، ودون زوجتك التي لن تفهم تخريجاتك الأخلاقية لسرقة تستأنف فيها

يومها ظننا أو أردنا أن نظن أننا أسأنا فهم ما شهدناه من إهمال، فلربما كان المكان مراقباً بكاميرات خفية تصطاد العابثين والمتجاوزين. أخذت أتوغل في جنبات مكان كُتب عليه أنه قسم ترميم المخطوطات، لأرى المكان خاوياً على عروشه وترابه وورثاته، قبل أن أنظر من الشرفة، فأرى الموظفين متحلقين في بهو المكان، مستأنسين ومكتفين بصحبة بعضهم عن كل ما سواها، لأسمع بعد ذلك أن ما رأيته لم يكن مصادفة، بل كان هماً مقيماً تعيشه الدار التي تمتلك تاريخاً من المعاناة مع الإهمال والفساد، وحين قرأت بعد ذلك بسنوات عن نقل مخطوطاتها وكتبها إلى مكتبة الأسد الوطنية لترميمها وتحويلها إلى نسخ رقمية، تذكرت ما جرى في دار الكتب المصرية من مهازل وجرائم باسم الترميم والرقمنة والتطوير، وتذكرت ما قاله صديق سوري عن أننا نظل في مصر أحسن حالاً، لأن وتيرة السرقة والنهب للتراث والآثار ستكون أبطأ بفعل وجود مساحة من الحرية الإعلامية - بحكم ما كان طبعاً - يمكن أن يستغلها حماة التراث بشكل أو بآخر، وهو ما يغيب تماماً في سوريا في ظل صحافة مؤمنة تعيسة وقنوات تلفزيونية ميتة، إذا أردت أن تأخذ فكرة عن مدى تعاسة وبؤس أحوالها، فألق نظرة على الصحف والقنوات الحكومية المؤممة الآن.

في صباح اليوم التالي، اتجهنا إلى الزبداني، لعل رحلتنا تكون خير ختام لزيارتنا الدمشقية التي كانت أقل بكثير

مما تمنيت، وحين ذهبنا إلى موقف سيارات الأجرة المتجهة إلى الزبداني، وجدنا أننا مطالبون بتسجيل أسمائنا وأرقام جوازات سفرنا وهواتفنا، في كشف يلزم كل سائق سيارة بتسليمه لضباط الأمن قبل تحركه، تعطلنا بعض الشيء لأنني نسيت جواز سفري في الفندق، ربما لأنني أعاني طول الوقت من فوبيا تضييعه لو حملته معي، أو لأنني صدقت لافتات الترحيب بالإخوة العرب في وطنهم الأول والتي تنتشر في كل مكان، وإن كانت لا تتفوق بالطبع على معدلات انتشار صور الأسد الشاب وأبيه في كافة الأحجام والأوضاع، وحين نزلنا من السيارة لكيلا نُعطل بقية ركابها، اقترب سائقها اللطيف مني، وهمس في أذني أن أكتب أي رقم يقارب رقم جواز سفر زوجتي، لأن حضرة الضابط المسئول، لن يخرج من مكتبه في هذا "الشوب" والحر الخانق للتدقيق، إلا إذا حدثت مصيبة، وحين رأى نظرة توجس صدرت مني باتجاه بقية الركاب، ضحك مطمئناً وهو يردد عبارات عامية مصرية مستقاة من عدة أفلام ومسرحيات، لم تكن دقيقة تماماً في مناسبتها للموقف، لكنها كانت كافية للطمأنينة اللازمة لارتكاب حماقة كهذه.

هَلَّت الطراوة من الشبابيك بمجرد سيرنا نحو منطقة الزبداني، التي تصلها إذا سرت في الطريق الدولي المتجه نحو بيروت ثم تتجه يمينا، كنا قد جلسنا في مقدمة السيارة فأتاح ذلك فرصة للدردشة مع السائق الذي أصبح شريكاً لنا في "الجريمة"، حين أغفل إلزام الأمن له أن يتفقد جوازات

سفرنا بنفسه، ويطابق أرقامها على ما هو مكتوب في الكشف،
سألنا عما إذا كنا ذاهبين إلى مكان بعينه في الزبداني، وحين
قلنا إننا نزورها لأول مرة ولا نعرف أحداً هناك، استغرب أننا
لم نقم باستئجار تاكسي للتجول في المنطقة التي لا يمكن
الإحاطة بمعالمها مشياً كما تصورنا، وحين غالبت حرجي
وقلت إننا نفضل عادة استكشاف جمال الأماكن بأنفسنا،
ظننت أن ضحكته تعبر عن تفهمه لرغبتني في التوفير،
وتأكدت من ذلك حين قال إنه بعد أن ينزل الركاب وسط
المدينة، سينزل بنا نحو النهر الذي قلت إنه مقصدنا الأول من
الزيارة، ثم يعود بنا إلى مكتب حكومي مخصص لاستقبال
السائحين، لنجد هناك من يساعدنا على استكشاف المنطقة.

أنزل سائقنا ركبته في ميدان صغير بقلب المدينة التي
تنتشر على سفوح الجبل، قبل أن يهبط بنا نحو سهل قريب
لتكتحل أعيننا برؤية النهر الموعود، كانت الخضرة المحيطة
شحيحة وشاحبة على عكس ما رأيت في صور سابقة
للمكان، فقلت لعله الحر الذي يطفئ توهج الخضرة، لكننا
فور أن اقتربنا من التجمع المائي الذي أشار السائق نحوه
وقال لنا إنه النهر، داهمتنا رائحة كريهة تتفوق في حدتها
على "تلك الرائحة" الكريهة التي كنت تشمها إن عبرت إلى
جوار الملاحات في نهاية الطريق الصحراوي المتجه إلى
الإسكندرية، قبل أن يردموها في السنوات الأخيرة.

كنا كلما اقتربنا من الماء أكثر زادت حدة الرائحة، وحين
وصلنا إلى مطعم يقع على ما يفترض أنه النهر، صدمنا لون

الماء الذي بدا أشد خضرة من الأشجار، كدليل على شدة ركوده وامتلائه بالطحالب. رأى السائق صدمتنا الواضحة، فقال بمزيج من الأسى والسخرية، أنه لم يرد أن يصدمننا حين حدثناه عما نتوقعه من جمال المنطقة، ثم استدرك أن المنطقة كانت جميلة بالفعل، قبل أن يخربها "أخوات الشرمو.."، وقبل أن يكمل الشتيمة اعتذر لزوجتي، دون أن يضطر للتلف حول في كل اتجاه، كما يفعل السوريون دائماً حين يذكرون ولاية أمورهم الشراميط بما يستحقونه، فلم يكن في السيارة سوانا.

شرح السائق لنا سر الرائحة الكريهة، وهو يشير إلى أعلى الجبل حيث توجد قصور وفيلات فخمة متباعدة عن بعضها، على عكس العمارات المتجاورة والبيوت المتقاربة التي بنيت في موضع أدنى، والتي تزداد كثافتها العددية كلما نزلت نحو الشارع الرئيسي للمدينة الذي كنا فيه قبل قليل، كانت القصور والفيلات التي أشار إليها مملوكة إما لكبار مسؤولي الدولة وقادة أجهزتها الأمنية والقيادات البعثية رفيعة المستوى، أو لكبار الأثرياء الخليجيين الذين يحبون ارتياد المنطقة في الصيف، والبعض منهم يؤجر قصور وفيلات المسؤولين بأسعار فلكية، والجميع يقومون بنزح الماء إلى أعلى الجبل من السهل عبر طلمبات قوية لتبقى فيه مياه قليلة شبه راكدة مسكونة بالطحالب، في حين يقومون بإفراغ الصرف الصحي للفيلات والقصور في السهل نفسه، فتتسرب مياهه الكريهة لتختلط بما تبقى من مياه، وتتمالاً

الرائحة النفاذة جنبات السهل الذي كان من السهل أن نفهم لماذا كانت مطاعمه خالية من السياح.

في طريقه نحو مكتب السياحة الذي سيوصلنا إليه قبل أن يعود مسرعاً إلى دمشق، كان السائق الجدد محرجاً منا، وهو ما دفعه للحديث المستفيض عن أمجاد المنطقة كما سمعها من أبيه، الذي حضر بعض حفلات عبد الوهاب وعبد الحليم التي كان الناس يتحاضرون بها وإن لم يحضروها، ثم نصحنا بأن نعود في الربيع، لأن تدفق مياه العلوج الذائبة يخفي ما رأيناه من ركود وما شممناه من روائح، وقبل أن ننزل طلب منا أن نسلم على عادل إمام، ولم يفهم جدتي حين قلت له إنني لم أقم بتفعيل خاصية التجوال قبل سفري، وإلا لكنت اتصلت به ليسلم عليه بنفسه، ولعله ظن أنني أهلوس من تداعيات صدمة الرائحة. أشار إلى المكتب الصغير التابع لوزارة الثقافة والسياحة، وسلم علينا ومضى مصحوباً بمودتنا الغامرة ودعواتنا الصادقة أن يكفيه الله شر الطريق والبوليس وحزب البعث.

بدا ظهورنا في مكتب السياحة مربكاً لجميع من فيه، وكنا مؤهلين لولا اختلاف لهجتنا لإعادة تمثيل دراما (المفتش العام) للكاتب الروسي الشهير جوجول. طلب منا موظف أمن كثيف الشارب غليظ الحضور أن ننتظر الموظفة المختصة أمام المبنى، لأنها في مهمة عمل طارئة، وبعد نحو ساعة من انتظارنا، أقبلت نحونا موظفة تفيض حيوية ولطفاً واعتذرت بحرارة عن تأخرها، لأنها كانت توصل "إخوة من

الخليج العربي" إلى فندق ممتاز ترشحه لنا للإقامة، وقبل أن تسترسل في ذكر مزايا مطعمه وطهاته، قلنا أننا مهتمون بزيارة سريعة للمواقع الأثرية التي سمعنا عنها، لأننا سنعود إلى دمشق بعد ساعات، فاستأذنتنا للحظات ودخلت إلى المبنى، ثم عادت لاهثة وهي تمد يدها بكتالوج فقير الحال فاقع الألوان، فيه تعداد لأبرز المواقع الأثرية والسياحية المحيطة بالمكان، شكرناها على لطفها، وقلنا إننا سنبحث عن سائق ليصحبنا لبعض المواقع الموجودة في الكتالوج، فقالت محرجة إنها لا تملك نسخة أخرى منه، وأن علينا قراءته قبل أن نعيده لها، وأنها ستعطينا المجال الكافي لقراءته، ونقل أسماء الأماكن التي نرغب في زيارتها، فلم نجد كلاماً حقيقياً نرد به.

قررت في لحظة زهق عبقية أن أقول لها أننا صاعدون للتو من السهل، وأن الروائح الكريهة هناك أزكمت أنوفنا، وأن أحد المواطنين قال لنا إن فساد قيادات الدولة والحزب وراء المصير المؤسف الذي صارت عليه منطقة الزبداني، فشاهدت الضحكة السياحية العريضة وهي تموت على وجهها، وتستحيل رعباً فورياً، فتقول إننا يمكن أن نحتفظ بالكتالوج كما نحب، لأنها تذكرت وجود نسخة أخرى منه، ثم تجري عائدة نحو المكتب، ونجري نحن مبتعدين عنه، ونحن نضحك من قلوبنا، فلم نكن ندري أن الرائحة العفنة التي سادت المكان، ستختلط بعد سنين من الفساد والقمع، بروائح البارود والدم والخراب المبين، الذي تذهل وطأته الناس

عن كل شيء، فتنسيهم أن أسبابه كانت محيطة بهم طول الوقت، وأنها هي التي قادت إلى تلك النتائج الدامية التي لا يعلم سبيل الخلاص منها إلا الله.

"ودمغ لا يكفكف يا دمشق".

الرجل البقدونس

لا أذكر الآن من بالضبط الذي أطلق عليه لقب "الرجل البقدونس"؟ لكنني أذكر أننا اعتمدنا اللقب لأنه كان مستفزاً لنا بوصفه حاضراً على الدوام في كل مكان أو قعدة أو مناسبة دون أن يكون له حضور يُذكر أو رأي يُناقش أو موقف يُعتبر، فكان بذلك أشبه بالبقدونس الذي يفترش كل أطباق المشويات والمقليات على اختلافها: كباب، كفتة، كبدة، جمبري، أسماك، مخ، ومع أن البقدونس يلعب دوراً مهماً هو امتصاص الزيوت والدهون التي تنزّها عليه محتويات الأطباق، إلا أن صديقنا كان يشبه البقدونس فقط في تواجده المستمر والدائم في أي مشهد، دون حتى أن يلعب أي دور مهم كالبقدونس.

لماذا كنا نكرهه إلى ذلك الحد وهو الذي لم يتسبب لنا بأذى مباشر؟ يعني، ربما كان وصف مشاعرنا له بأنها "كراهية" مبالغاً فيه بعض الشيء، الأدق أن تواجده الدائم بيننا وحولنا دون أن يكون له أي حضور أو بصمة كان أمراً مزعجاً لنا في سنوات الشباب التي يحرص الإنسان فيها على أن يُعرّف بعداواته مثلما يُعرّف ب صداقاته، بل ويحب أحياناً أن يُعرّف بعداواته أكثر من تعريفه ب صداقاته، لكن الغريب أنه لم يكن يعادي أحداً على الإطلاق، بل كان "صديق الجميع" في وقت كان إعلان العداوات رياضة موسمية مفضلة نزجي بها أوقات فراغنا وننقّس فيها عن طاقتنا السلبية نحن الذين لا نملك سوى المقاهي الرخيصة مساحة للتنفس ومكاناً للهروب من

"قَدَرُ الغُرفِ المَقْبُضَةِ" على رأي الكاتب الكبير عبد الحكيم قاسم.

حتى الأشد تنافراً وعداوة من بيننا، كان للرجل البقدونس طريقة مريبة في الجمع بين صداقتهم، وحين كان يُطلب منه أن ينحاز لطرف من المتعادين دون آخر، لم يكن يرد على ذلك الطلب بالخير أو بالشر، بل كان يختفي فجأة من حياة طرفي العداوة، وبعد فترة حين تختفي العداوة أو تقل حدتها، يظهر ويتضح أنه ظل على علاقة ودودة بالطرفين، وأنه استمر في كسب ود الأضداد جميعاً، على عكس الذين تورطوا باتخاذ موقف مع هذا أو ذاك، وكان ذلك من الأسباب التي تحوّل الانزعاج منه إلى كراهية ونقمة يشعر بها من خسروا أعز أصدقائهم بسبب ذلك الانحياز اللعين.

حين كنا نختلف على كتاب أو فيلم أو قصيدة أو مسرحية، فنقضي الساعات على المقهى نتساجل ونتناقر كأننا ننتصر لأنفسنا بالانتصار للعمل أو بالانتصار على صانعه، كان الرجل البقدونس يكتفي بالاستماع والصمت والبهلقة في وجه من يعبر بحماس عن رأيه المحب أو الكاره، المتحمس أو المخذول، ولا يبدو على وجهه أدنى علامة تفيد الموافقة أو الرفض أو الحيرة أو الدهشة، وحين يكتب بعدها بفترة مقالاً عن الفيلم أو الكتاب أو القصيدة أو المسرحية محل الخلاف، يكتفي بعرض تقريره تفصيلي لمضمون العمل، ثم يقوم بتلخيص كل الآراء المختلفة حوله دون أن ينحاز لأي منها، فإن استنكرت عليه أنه لم يعلن موقفه من العمل بوضوح،

قال بهدوء إنه يفضل أن يضع القارئ في الصورة ويترك له الحكم على العمل بنفسه، ولكيلا يبدو أنه بذلك يقلل من شأن الذين يتبنون آراء نقدية حادة أو صريحة في الأعمال الفنية والأدبية يضيف بهدوء أنه لا يرى نفسه أهلاً للحكم النقدي، فما هو إلا مجرد عارض للأعمال الأدبية والفنية ومعلن عن صدورها، مشيراً في بعض الأحيان التي يحتدم فيها النقاش إلى سخریتنا منه، وهو يقول بابتسامة تثير الاستفزاز من فرط وداعتها إن علينا أن نعتبر كتابته "مجرد طبقة من البقدونس التي تصاحب الأعمال التي يكتب عنها"، وتتسع ابتسامته بعدها ليؤكد لنا أنه لا يجد مشكلة في اللقب الذي أطلقناه عليه.

لم يكن يغضب من مقالاته أحد ممن كان يكتب عنهم، لأنه كان شديد الحذر والدقة في صياغتها، يعقب الرأي المنتقد برأي آخر يمتدح العمل ويشيد به لنفس النقطة، ولذلك كان صناع الأعمال التي يكتب عنها يشعرون بالسعادة لأنه يقوم بتغطية ردود الأفعال حول أعمالهم بدقة وهدوء، دون أن ينشر صياغة ما تجرحهم أو تسيء إليهم، ودون أن يثير حفيظتهم بتبني موقف واضح من أعمالهم أو أعمال منافسيهم، ولذلك أيضاً كان مسئولو مكاتب الصحف والمجلات العربية في القاهرة، يفضلونه أكثر من غيره ويختارون نشر مقالاته التي كان أحد أصدقائنا محقاً حين وصفها بأنها تشبه في طعمها "الجبنه الثلاثه صديقه المرضى"، لأنه كان يقدم فيها الخدمة الصحفية المطلوبة

في الإعلان عن العمل الفني والأدبي دون أن يضع مسئولية الصحف والمجلات في مآزق مع أصحاب تلك الأعمال، خصوصاً لو كانوا من ذوي النفوذ في الحياة الفنية والثقافية.

حين بدأنا نكبر أكثر وتتعدد علاقاتنا ببعضنا، أصبحت شخصية (صديق الجميع) أكثر استفزازاً للمرهقين منا، فلم يعودوا يكتفون بوصفه بـ "الرجل البقدونس"، واختاروا ألقاباً أكثر عدائية للتعبير عن اختياره أن يكون على الدوام "معاهم معاهم عليهم عليهم"، فأصبح في نظرهم "اللطزانة" أو "الدلول" أو "شُزابة الخُرج" أو "البضين"، وهي ألقاب لم تكن تُقال له علانية لأنها ستجرحه بعكس لقب "الرجل البقدونس" وقد تدفعه لصدام غير مستحب، ثم تغير ذلك حين تجرأ صديق سكران كان قد خسر قبلها بأيام صديقاً عزيزاً له لأنه كتب عن روايته وقال فيها ما نسي أن يقوله مالك في الخمر، لأنه شعر أن تضليل القراء بمدح تلك الرواية أو التعامل معها بوصفها رواية أصلاً هو أمر لا يتحمله ضميره، ولذلك اختار التضحية بالصدقة ليكون على قدر مسئوليته النقدية التي ستحاسبه عليها الأجيال القادمة، فلعن سنسفيل صديقنا وكل من أقنعوه بكتابة الرواية أو شجعوه عليها، وأعقب نشر المقالة تشابك بالأيدي والأرجل والرؤوس بينهما، كان ختاماً مؤسفاً لصدقة ظن البعض أنها ستدوم أطول من صداقة جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر.

في المقابل لجأ الرجل البقدونس إلى منهجه اللولبي الأثير، حين كتب عن الرواية التي كانت بشعة عن حق، فأشار إلى ما

أثير حولها من انتقادات وأتبعه بردود المؤلف عليها، ثم ختم مقاله بحديث وعظي دافئ عن أهمية أن ندع مئة زهرة أدبية تتفتح ولو أدمتنا أشواكها، لأن الساحة الأدبية تتسع لجميع الأساليب والمشارب، وهو ما جعل صديقنا السكران الملتاع من آثار مسئوليته النقدية، يقف في المقهى ملقّباً اصبعيه الوسطيين للرجل البقدونس وهو يردد هتاف يوسف وهبي المسرحي الشهير: "آه يا جوليا يا مراة الكل يا مزيلة"، وكان من الواضح أنه كان يرغب أن يكون ذلك الهتاف مجرد جز رجل لخناقة حامية، لكن صديقنا البقدونسي أجهض خطته، حين نظر له مبتسماً وقال بنبرات الهادئة إنه مات من الضحك حين قرأ هذا الهتاف أول مرة في كتاب لمحمود السعدني يسخر منه بطريقة اللاذعة، وأنه كان يتمنى أن يرى يوسف وهبي وهو يجلس به على خشبة مسرح رمسيس في وجه فاطمة رشدي أو أمينة رزق، ومضى في حديث متصل عن يوسف وهبي وأهميته المسرحية وكأنه لم يشعر بأي إهانة وجهت له قبل لحظات.

اسبهل صديقنا الغاضب هنيهة، ثم أصدر شخرات حادة متقطعة وانهال بعدها على الرجل البقدونس بكل الشتائم التي كانت تتور حوله، واتهمه بأنه سرطان في جسد الساحة الثقافية لا بد من استئصاله لكي تتعافى ويصبح فيها الرجاء، واصفاً دور "صديق الجميع" الذي يقوم به بأنه تعريض أخطر من التعريض الصريح الذي ينفر منه القراء، بينما يقبلون على كلامه البقدونسي اللزج الذي يجعل للخراء سعراً ويخلط أبو

قرش بأبو قرشين فيساهم في تدني المعايير الأدبية وتزييف
أذواق القراء، وهو كلام توقعنا أن يقابله الرجل البقدونس
بالغضب أو التجهم أو حتى الانسحاب قصراً للشئ، لكنه
لم يفعل أيّاً من ذلك، بل قام منطوياً من كرسیه واحتضن
صديقنا السكران بقوة، ثم قال إنه يتفهم غضبه وسيفكر فيه
ويسعى لتطوير ما يكتبه في المستقبل، فما كان من صديقنا
السكران إلا أن حاول ضربه بأقرب كرسي، وحين فشل في
حمل الكرسي ووقع على الأرض، أجهش بالبكاء وأخذ يدب
على أرضية المقهى المفروشة بنشارة الخشب والمغمورة
بالبصاق، لاعناً كل شيء وطالباً الحساب وسرعة إخراجه من
المقهى فوراً قبل أن يرتكب جناية.

تركت المواجهة العاصفة أثرها على صديقنا البقدونسي،
ولكن بشكل يشبه روحه وشخصيته، فمع أن كتابته لم تتغير
أبداً في منهجها وطريقتها كما وعد، ومع أنه كتب بعد أسبوع
مقالة مفعمة بالود الكاذب عن مقالات صديقنا الناقد الغاضب
ودورها في تنقية الحياة الأدبية من الشوائب، إلا أن شيئاً
ما انكسر بداخله منذ تلك المواجهة، فلم يعد يظهر كثيراً
في مقهانا والمقاهي المجاورة له، وعرفنا أنه التحق بالعمل
العابت في مكتب صحيفة خليجية عريقة أصبح بعد فترة
وجيزة مشرفاً على صفحاتها الثقافية، وهناك قرر أن يتوسع
بنفس طريقته في الكتابة لتشمل كثيراً من أعمال الكتاب
العرب من كافة البلدان والأجيال، وسرعان ما بدأت تنهال
عليه الدعوات لحضور المهرجانات والمؤتمرات الأدبية

والثقافية في كافة الأقطار العربية، وبدلاً من تضييع وقته في مقاهي وسط البلد أصبح بمثابة دليل سياحي وأدبي يصاحب جميع الأدباء العرب القادمين إلى القاهرة لحضور معرض الكتاب أو أي مناسبة ثقافية، ولم يكن يفرق بين أحد منهم حسب جيله أو مكانته أو سنه، بل كان يعاملهم جميعاً بنفس الاهتمام والمودة، ويقدمهم بمنتهى الحماس لأبرز الفاعلين في الساحة الثقافية والفنية، وهو ما كان يثير نفور وضيق العديد من زبائن ورواد مقاهي وسط البلد الذين بدأوا يطلقون عليه لقب "خزتي الثقافة المصرية"، في إشارة إلى "الخُرْتِيَّة" الذين يصطادون فرادى السياح في الهرم والحسين ووسط القاهرة ويطلعون منهم بما تيسر من مصالح وسبابيب، وإن كنت لم تلتق بأحد منهم ربما ساعدك فيلم (رومانتيكا) للفنان زكي فطين عبد الوهاب على معرفة تفاصيل عالمهم.

كان موقفي من الرجل البقدونس قد تبدل تماماً، قبل أن أفارق عالم وسط البلد المليء بالمضحكات المبكيات، حين طلبت منه ذات يوم أن يرد كتباً استعارها مني قبل فترة، فقال إنها موجودة في مكتبته الموجودة في بيت أبيه في حي عين شمس الذي كان قد تركه حين تزوج لينتقل إلى أحد أحياء مدينة ستة أكتوبر التي طلعت في المقدر جديد، وطلب مني أن أصحبه إذا كان لدي وقت لأخذ الكتب، وأسلم على أبيه الذي كان معجباً بما أكتبه، ولأنه كان قد اشترى سيارة بعد أن ظهرت عليه آثار النعمة، بدا المشوار سهلاً

ومغريباً بالتعرف عليه أكثر، وحسناً فعلت حين ذهبت معه لأنني اكتشفت فيه جوانب لم أكن أعرفها، أبرزها أنه كان باراً بوالده الذي أقعده المرض والذي كان يعيش بمفرده في بيت الأسرة بعد وفاة الأم، ولم يكن يتأخر عن الذهاب إليه كل يوم برغم طول المشوار ليقضي معه ساعتين أو ثلاث ساعات، يلعبان الطاولة والدمنة ويتحدثان عما قرأه في الصحف والمجلات وشاهده في البرامج، ويقوم بالإشراف على تنظيف الشغالة للبيت وطبخها لآكل الأب وتنظيف ملابسه من آثار المرض الثقيلة.

اكتشفت أيضاً طيلة مشوار المرواح والمجيء الطويلين، أن صديقنا لم يكن عَفَّ اللسان دمث الخلق على الدوام كما كنت أتصور، فقد استمعت منه إلى نخبة منتقاة من أحظ وأسفل الشتائم التي انهال بها على كثير من السائقين والعابرين للطرق، ومع أن بعضهم كان يستحق الشتيمة التي كان يطلقها بصوت منضبط لا يسمعها إلا أنا وهو، إلا أن أغلب شتائمه بدت مبالغاً فيها وغير مستحقة، وهو ما جعله يفسرها لي بقوله إنه لا يستطيع أن يكمل قيادة السيارة دون أن يفرغ طاقة الغضب والتوتر التي تشتعل فيه بوصفه حديث العهد بشوارع القاهرة والسواقة فيها، وقبل أن أنزل من سيارته أمام بيتي، قال مبتسماً وهو يصافحني: "بس إيه رأيك، ما طلعتش بقدونس أوي زي ما انت فاكرك؟"، لأنفجر من الضحك، ولا أجد ما أقوله سوى الشد على يديه بإعجاب شديد، لأنه كان يعرف ما يفعله منذ البداية، ربما لأنه أدرك

أن أسلم وسيلة للنجاة في غابة وسط البلد هو ارتداء القناع
البقدونسي المنجي من مهالك الانحياز.

باعدت بيننا الأيام أكثر، ولم أعد ألتقيه أبداً، لكنني
احتفظت بصداقته الفيسبوكية، وأصبحت أرى كيف جنى ولا
زال يجني ثمار صداقاته العربية التي كان ينفق عليها الكثير
من وقته وماله، ليس فقط لأن أغلب من كان يحرص على
مودتهم والاحتفاء بهم أصبحوا يشغلون مواقع بارزة ومهمة
في بلادهم وحرصوا على رد الجميل له بأضعاف مضاعفة،
بل لأن مقالاته الخالية من الدسم والانحياز تحولت مع مرور
السنين إلى نواة لأرشيف ضخم يمكن أن تعرف منه كثيراً مما
قليل وكُتب عن أغلب الأعمال الفنية والثقافية خلال العقود
الثلاثة الماضية، واكتسب طابعها البقدونسي المحايد معنى
لم يكن يخطر على البال، فقد أصبحت أهم من مقالات نقدية
عنيفة أقامت الدنيا وأقعدتها حين نشرها، لكنها لا تصلح الآن
 للقراءة لمن لم يعاصرها، إما لأنها تبدو حادة أكثر من اللازم
بشكل جعلها تخطئ الهدف وتتجنى في الحكم على أعمال
لم تكن بما تصورته من سوء، أو لأنها تبدو محتاجة إلى أن
يحيط القارئ بسياق كتابتها لكي يتفاعل معها، بعكس مقالات
صديقنا المنضبطة الهادئة التي حولتها الأيام إلى وثائق
حافلة بالمعلومات تُقرأ من خلالها صورة عصرها وتفاعلاته.

بالأمس كنت أبحث عن شيء لا علاقة به بالثقافة والأدب،
بل له علاقة بأفضل الخضروات التي يمكن تناولها مع اللحوم
لمن خاصموا النشويات، فوقع نظري في جنبات الإنترنت

على مادة تتحدث عن الدور المهم الذي يلعبه البقدونس الذي يفترش أطباق الكباب والكفتة وسائر المشويات والمقليات، ليس فقط لأنه يساعد على امتصاص الدهون الموجودة في المأكولات التي تعتليه، ولكن لأنه يساعد أيضاً على امتصاص المواد الهيدروكربونية التي يتم تكوينها أثناء عملية الشواء، كما يلعب دوراً هاماً في امتصاص الأملاح الموجودة في اللحوم مما يساعد مرضى النقرس على تناولها.

وحين صادفني بعدها على "التايم لاين" تدوينة لصديقنا يعيد نشر مقالة قديمة له عن عمل أنصفه الزمن وانحاز له، تذكرت عدداً من أصدقائنا الكارهين لنموذجه المستفز، وتأملت ما فعلته بهم الأيام، حين كسرت بعضهم دون هوادة، وحوّلت البعض الآخر إلى مسوخ، وأنصفت القليلين الذين "صاروا ما أرادوه يوماً ما"، في حين بقي صديقنا الناقد الغاضب كما هو دون أن يتغير قيد أنملة، ولا زلت أقرأ له من حين لآخر تدويناته التي تفوح منها رائحة الكحول ويختلط فيها الحق المبزر بالغضب الممرور، والتي يصب فيها لعناته وشتائمهم على الذين أفسدوا الحياة الثقافية، والتي يخص بالذكر فيها كثيرين على رأسهم صاحب القناع البقدونسي، الذي اضطر إلى حظره من على صفحته قبل سنوات، لأنه بعد أن قرأ تدوينة للناقد الغاضب تلعنه وتهاجم دوره المزري في تفريغ الأشياء من معانيها، اختار التعليق عليها فقط بوضع قلب كبير، لم يكن مصادفة أن اختار له اللون الأخضر، لون البقدونس.

في انتظار الإشعاع

تفاصيل المكان لم يكن تشجع على الضحك إطلاقاً، رديء الإضاءة ومقبض الروح وكثيب التفاصيل، ورخامه الرّخم جعله أكثر برودة من الخارج. كان الدكتور قد قال لنا إن جلسات الإشعاع التي ستتلقاها أمي لابد أن تستمر سبعة أسابيع على الأقل لكي نضمن عدم عودة الورم اللعين الذي أفلحت الجراحة في استئصاله من ركبته، وكنا يومها في انتظار الجلسة الأولى، وفي ظل ذلك الظرف وذلك المكان، كان غريباً أن تنبعث مني ضحكة.

قطعت أمي تسبيحها وقالت لي بصوت راعت أن يكون خفياً: "خير، ما تضحكننا معاك يا سيدي". وأزعم أنها لولا المكان والظرف لقالت: "ما تضحكننا معاك يا روح أمك". فكرت للحظة أن أقول لها ما أضحكني لكنني شعرت أن ذلك لن يكون لائقاً من فرط تفاهة السبب. أنا في العادة لا أخفي عنها شيئاً، حتى لو كان بهدف الحفاظ على مشاعرهما طبقاً لاتفاق غير مكتوب بيننا يتمثل قول الحكيم الشعبي: "يا بخت من بكاني وبكى الناس عليا ولا ضحكني وضحك الناس عليا"، لكنني تذكرت أن معدلات بكاءها تضاعفت بعد العملية، وقد كانت أصلاً قبل العملية معدلات أعلى من المتعارف عليه بين الأمهات كثيرات الإنجاب ثقيات الحمل، واللواتي يؤمن بأن "العياط بيريح"، ولذلك لا مشكلة في الانتظام فيه حتى وإن أتعب من حولهن.

قررت أن أكتب عن أمي سبب ضحكتي منعاً لأي تلكيفة تجعلها تنتحب في المكان وتفزع علينا الناس، وارتجلت قائلاً: "ما فيش والله يا ست الكل.. هم يضحك وهم يبكي.. أصل كمية الإشعاع اللي هتاخديها كانت مصر أولى بيها الفترة دي"، فابتسمت مجاملة أو ربما تقديراً للمعنى السياسي الفج الذي قلته، برغم تناسبه مع أحوال مصر المهيبة في تلك الفترة التي سبقت ثورة يناير 2011 بعدة أشهر والتي تضاعف فيها انقطاع الكهرباء بشكل غير مسبوق وقتها، ولكيلا أتمادي كعادتي، قطمت أمي ابتسامتها ومالت علي وقالت: "بلاش هزار الله يكرمك أحسن حد من القاعدين يسمعنا ونجرح شعوره"، ثم عادت للتسبيح وتركتني قلقاً على جودة ارتجالي في الكذب.

قاعة الانتظار كانت مليئة عن آخرها كشأن كل مكان له علاقة بالطب في مصر، والكراسي المعدنية التي كنا نجلس عليها كانت رديئة بما لا يليق بمستشفى يوصف بأنه استعماري، وبما كنا ندفعه في جلسات الإشعاع يعتبره الملايين ثروة تدعو للحسد أو الأسى على أحوالهم، إلا أن إدارة المستشفى المملوكة لواحد من عتاولة البيزنس الطبي والمنضم حديثاً إلى ركب السياسة ليصبح قيادياً في الحزب الحاكم، استخسرث في المترددين على المركز "شلتاً" تكسو الكراسي المعدنية وتريح مؤخرات المرضى، كأن عذاب المرض ووعاء مصاريفه لا يكفيان لإقلاق راحتهم، وكعادتها لم تشاركني أمي انتقادي لحالة الكراسي، لأنني لا يعجبني

العجب ولأن "كل اللي يجيبه ربنا كويس"، حريصة على رجائي ألا أكتب مقالاً أنتقد فيه أي شيء في المكان فيسبب ذلك لطبيبها أي حرج أو إزعاج، "وأهوه سبع أسابيع وكل واحد يروح لحاله.. إحنا مش هنناسبهم يعني".

كانت الضحكة التي في غير محلها قد انبعثت مني، بعد أن قرأت رسالة نصية أرسلها صاحب صيدلية قريبة من بيتي في شارع سعد زغلول بالقاهرة يسألني عن أخبار صحتي، ويعبر عن شعوره بالقلق لأنني لم أعد أتردد على الصيدلية بانتظام كعادتي، وكان الرجل محقاً في سؤاله غير البريء، فقد كنت من أكثر زبائنه إداراً للأرباح منذ أن توثقت علاقتي بالصيدليات في سنين العقد الأول من الألفية الثالثة.

كنت قبلها مثل غيري من الشباب الطلعة، لا أدخل صيدلية إلا للبحث عن "فكة خمسين جنيه" أو السؤال عن "أي حاجة توقف الرشح بس من غير ما تهذ الجسم"، ثم عندما أصبحت أباً زاد ترددي على الصيدليات للبحث عن الألبان الصناعية والمامبرز والمناديل المبللة وأدوية الأطفال التي لا ينقطع قلقنا عليهم لأسباب حقيقية أو متوهمة، وبعد أن أصبت بمرض السكري أصبحت علاقتي بالصيدليات أكثر انتظاماً، فوجدت في الصيدلاني القريب من البيت معيناً على ضرب الحقن اللازمة، لكن يده العقيلة أكثر من اللازم وجغرافيا صيدليته الضيقة والمفتوحة على الشارع جعلتني أفضل الاستعانة بصيدلية أخرى توصل ضاربي الحقن إلى المنازل مع الأدوية، ولذلك فضلت أن أقول رداً على رسالته إن الله

من عليّ بالشفاء العاجل والحمد لله، وأنتي سأعاود زيارته مع أقرب وعكة، ولأنه شم رائحة الكذب الفاقعة في الرسالة لم يكلف نفسه عناء الرد على ردي.

تذكرت وأنا أغالب ملل الانتظار في مركز الإشعاع الصديقين السينمائيين الذين قررا قبل سنوات أن يفتحا صيدلية، "لأن السينما مش مضمونة طول الوقت"، وعرضا عليّ شراكتهما في الصيدلية التي اختارا لها محلاً تركه أبو أحدهما في منطقة شعبية مكتظة بالسكان أو بمعنى أصح مكتظة بالزبائن المحتملين، لكنني اعتذرت لأن ما طلباه كان أكثر من طاقة مدخراتي. كان ذلك من حسن حظهما وإلا لكنت قد نكحت وَبَر الصيدلية بما سأخذه منها كل أسبوع، وهل يعقل أن ألجأ إلى الغريب ولدي صيدليتي؟

تساءلت في عقل بالي عما إذا كانت فرصة الشراكة لا تزال متاحة وما إذا كانت ستجعلني أضمن العثور على أي أدوية تنقص في السوق من حين لآخر، ثم تذكرت شكوى الصديقين لفترة طويلة من قلة أرباح الصيدلية وكثرة مشاكلها، والتي ثبت أنها كانت رغبة في خزي العين حين فتحا الفرع الثاني للصيدلية في منطقة الشريك الثاني والتي كانت بدورها مكتظة بالزبائن المحتملين، وسمعت قبل فترة أنهما يبحثان عن مقر لفرع ثالث في محافظة خارج القاهرة، ولذلك قلت لنفسي إنني لا أظن أنهما سيرحبان في مرحلة صعود كهذه بمدخراتي غير المتناسبة مع أحلامهما التوسعية وأرباحهما المنهمة.

تذكرت شكواي لهما ذات مرة من تجهم العاملين في الصيدلية التي زرتها بحثاً عن دواء ناقص، فسألني أحدهما بأمانة ربنا عن المرة التي دخلت فيها إلى صيدلية في عموم أنحاء الجمهورية ورأيت صيدلياً يضحك في وجوه زبائنه، وحين قلت له إنني رأيت صيادلة كثيرين يضحكون في بلاد كثيرة زرتها، أخذوا يلعنان اليوم الذي سافرت فيه خارج البلاد، لأعود منهالاً بانتقاداتي على كل شيء يحدث حولي، وأنني بعد أن زادت سفرياتني أصبحت أشبه بشخصية الممثلة هانم محمد التي كتبتها في فيلم (حرامية في كي جي تو)، والتي لا تكف عن الاستشهاد بما رآته خلال سفرها إلى البحرين وتتخذه مقياساً للحكم على كل شيء حولها.

بصراحة كان معهما حق، فالسفر إلى الخارج غير أخلاقي وجزأني على الشكوى والانتقاد، يعني، هل أنسى أنني قبل عشر سنوات ليس إلا كنت أتمنى أن تكون لدي القدرة على علاج أُمي في مستشفى كهذه أو حتى أقل بعد أن واجهت تجربة التعامل مع المرض الخبيث لأول مرة؟ هل أنسى كيف كنت أبكي بدل الدموع دماً وأنا أنتظر استيقاظ أُمي لتأخذ جرعة دوائها، جالساً في بلكونة معهد الأورام المقبض رافعاً من صوت "الووكمان" لكي يعلو على أصوات صراخ المرضى الذين ينادون على الممرضات المنشغلات عنهن بالهيء والميء والدربيء؟

هل أنسى عساكر الحراسة الذين خلعوا الأحزمة وانهالوا ضرباً على المرضى المتدافعين على مدخل المستشفى

وكيف كدت أروح في داهية حين أمسكت بأحدهم من رقبتة
لأمنعه من ضربني أنا وأمي، وكيف أنقذتني واسطة الفنان
الكبير صلاح السعدني التي سعيت لها لأول مرة في حياتي
لأحصل لأمي على موعد مستعجل تجري فيه جراحاتها قبل
أن يتفاقم وضعها، وكيف رفضت أُمي أن تذهب إلى مواعدها
مع الطبيب لأنها لن تأخذ مكان مريض أحق منها، حتى لو
كان فيه موتها، ولم تستجب لتوسلاتي إلا حين اتصل بها
الطبيب وأقسم لها بالله العظيم ثلاثة أنه لن يسمح بأن تجور
على حق أحد، وأنها يجب أن تجري العملية في أسرع وقت
مممكن؟

بالطبع لم أنس كل هذا، لكنه في الوقت نفسه لم يجعلني
أُتصالح مع الكراسي المعدنية القبيحة التي لا تليق بمرضى
مرهقين، ولا مع بركة الماء القذرة الراكدة أمام مدخل
الطوارئ في المستشفى، ولا كومة القاذورات المتصاعدة
والمستقرة بجوار موقف سيارات المستشفى، ولا التجهم
الذي يتعامل به الأطباء والممرضون والعاملون مع المرضى
وأهاليهم، ولا ساعات الانتظار التي طالت أكثر مما ينبغي
برغم رجائي للدكتور ومساعديه أن يعطينا موعداً محدداً
لأخذ جلسة الإشعاع لأن بأمي شفاها الله ما يكفيها من ألم
وضيق.

لذلك ولذلك كله استأذنت أُمي في الخروج للرد على مكالمة
هاتفية عاجلة، واتصلت برقم الوجيه الأمل مالِك المستشفى
الذي كنت قد التقيت به قبل سنوات وكان في

غاية الود معي، وربما لذلك فضلت المجيء إلى مستشفى دون غيره، وحين لم يرد على اتصالي، تركت له رسالة غاضبة كدت ألعن فيها سنسفيله، طالباً منه أن يضع في عينه حصوة ملح، ويضع على كراسي مركز الإشعاع بعض الشُّلت المريحة للمرضى، ويغير إضاءة المكان المقبضة، ويسمح بتقديم المشروبات الساخنة للمرضى ولو بمقابل، ويرفع مرتبات العاملين لعل ذلك يقنعهم بتعامل ألطف مع المرضى، ومع أنني لم أكن متأكداً من وصول الرسالة إليه أو من احتفاظه بالرقم، إلا أن فش غلي في الرسالة ساعدني على قضاء المزيد من الوقت الكئيب في انتظار الإشعاع.

حين انتهت جلسة الإشعاع بسلام، مررنا في طريقنا إلى البيت على سور مجرى العيون، فرأينا رجلاً يتبول على أحد أركانه في وضح النهار غير آبه بما حوله من دوشة وزحام، فانبعثت مني ضحكة أعلى، حين تذكرت كيف مررت في نفس الطريق عام 1998، وأنا أركب سيارة بصحبة سيد الكتابة الأستاذ نجيب محفوظ وسائقه وحارسه، وكان قد عرض علي مشكوراً أن يوصلني في طريقه بعد أن حضرت جلسته في أحد فنادق المعادي للمرة الأولى والأخيرة، وحين وقفنا ليلتها في إشارة مجرى العيون المزدحمة، كان هناك مواطن صالح يتبول على سور المجرى، وكانت الإضاءة الضعيفة في المنطقة قد شجعت على التمهّل في تبوله والتعويم فيه، قبل أن يتشجع أكثر ويقرر أن يعمل الثقيلة في ركن أكثر عتمة، وكان من حسن الحظ أن ضعف نظر الأستاذ

نجيب حماه من رؤية المشهد القميء الذي لم يكن على أية حال سيضيف إليه الجديد عما خبره من عبث مصر.

فوق رأس المتبول بالنهار كان الهواء يمرّج لافتة قماشية تؤيد وتبايع أحد مرشحي الحزب الوطني المستعدين لخوض الانتخابات البرلمانية القادمة التي ستكون من الانتخابات الأكثر فجورا وتزويرا في تاريخ البلاد - حتى حينها - ولم يكن أحد منا مهما كان استنكاره للمشهد سيلوم أخانا المتبول لو كان قد مد يده إلى اللافتة ومسح بها نفسه، لكنه لم يفعل، وحين استدار بعد أن عمل عملته ورأى العيون المستنكرة المتطلعة إليه، وضع وجهه في الأرض خجلاً وأسرع في مشيته.

حين رأيت الطريق الذي سلكه بعد قضاء حاجته، بدا لي أنه بالتأكيد متجه نحو معهد الأورام القريب الذي لا زال كما هو يكتظ بالمرضى وأهاليهم الذين تستكثر إدارته عليهم حق التبول في دورات مياه نظيفة، فضلاً عن حق انتظار أهاليهم في مكان يحترم إنسانيتهم دون أن يتعرضوا للتطاول أو الإهانة، ولم تكن لحظة التنوير وما تبعها من ذكريات مناسبة بالمرّة لتلقي تلك الرسالة النصية التي جاءني من مالك المستشفى الاستثماري الذي يعتذر فيه عن أي تقصير قام به العاملون في المستشفى، ويرجوني أن أبلغ الوالدة اعتذاره الحار إلى أن يلتقي بها في الزيارة القادمة ليعتذر لها بنفسه، ويطمئني أنه أمر بسرعة وضع شِلّت إسفنجية على أعلى مستوى، لكي تريح الجالسين على الكراسي المعدنية في

انتظار الإشعاع.

عبد الله بونج!

كنا ننظر إليه كأعجوبة تستحق الفخر والتقدير، فقد كنا نحن أبناء التعليم الحكومي الكثيان نحسد من يتحدث الإنجليزية بطلاقة، فضلاً عن يترجم عنها وإليها، ونتعامل مع متحدثي الفرنسية والألمانية بوصفهم من علية القوم، فما بالك بمن يترجم عن الصينية بعراقة قدرها وضخامة عدد الناطقين بها؟

لم تكن الصين على قائمة أولوياتنا الثقافية والمعرفية لكي نعرف الفروق بين لغاتها الرئيسية والثانوية، لكن فكرة أن يجيد زميل لنا لغة يتكلمها أكثر من مليار شخص بدت لنا براءة ومثيرة للإعجاب، وهو إعجاب تطور إلى حسد لدى أحد أصدقائنا الذي سخر من تخصص زميلنا المترجم في اللغة الصينية، فأطلق عليه اسم "عبد الله بونج"، نسبة إلى دينج شياو بينج رئيس الصين في تلك الأيام التسعينية الخوالي، باللام أو بالراء حسب موقعك العاطفي منها.

لم يكن المركز الثقافي الصيني قد فتح أبوابه بعد في القاهرة، ولم تكن معاهد وأقسام تعليم اللغة الصينية قد انتشرت كما هي الآن، ولذلك أكبرنا شغف زميلنا بالمعرفة الذي دفعه وهو طالب في الجامعة إلى طرق أبواب السفارة الصينية ليطلب منحة لدراسة اللغة الصينية، بعد أن فشل في الالتحاق بقسم تدريسها في جامعة عين شمس الذي كان قد تم افتتاحه في الخمسينات، فصادف طلبه هوى في نفوس

مستولي السفارة الذين ساعدوه على تحقيق حلمه.

كان زميلنا يعمل في صحيفة منافسة، وحين سمعت قصته سعت للتعرف عليه، وطلبت من أصدقائي العاملين معه أن يعرفوني عليه لكي أطره بأسئلتني عن ذلك البلد الضخم الفلغز، لكنهم قالوا إنه لا يمضي وقتاً طويلاً معهم حين يزور الصحيفة، لأن جدولهم مزدحم بأعمال الترجمة والإرشاد السياحي والعمل غير المنتظم في السفارة الصينية، وهو ما جعله يخذل زملاءه الراغبين مثلي في التعرف على الصين.

حين طلب منه مدير تحرير الصحيفة أن يكتب سلسلة موضوعات عن رحلته إلى الصين وذكرياته مع شعبها، تحجج بأنه لا يجيد كتابة أدب الرحلات مثلما يجيد الترجمة، وحين تكرر الطلب مع وعد بإعادة صياغة المادة الخام التي سيكتبها، كان يسوّف ويماطل معتذراً بضيق الوقت أو بضرورة التحرك سريعاً للعودة إلى قريته في محافظة القليوبية التي كان حريصاً على البيات فيها يومياً بعد أن تنتهي مشاويره في القاهرة.

بعدها طلبوا منه أن يحضر لهم صوراً من رحلته ويحكي قصصها شفويّاً ليتم تحويل ما حكاه إلى مادة صحفية، فقال إن الصور التي التقطها هناك ضاعت مع حقيبته في مطار القاهرة، ولم يكن هناك سبب يدعو للتشكك في روايته التي حدثت لمسافرين شتى، وكان يمكن أن يبقى في الأذهان رمزاً لكفاح الفلاح المصري الذي عبر البحار ليلتقي بفلاحى الصين وعمالها ويصل ما انقطع من أيام عدم الانحياز، لولا أن

الحزب الشيوعي الصيني قرر أن يفضحه ويقطع عيشه.

كان الزميل متخصصاً في ترجمة المقالات التي ترد في كبرى الصحف الصينية عن مصر والعالم العربي، ولأن صحيفته كانت معروفة بطابعها القومي وميول رئيس تحريرها الناصرية، فقد كان ينتقي المقالات التي تتحدث عن القضية الفلسطينية وتهاجم السياسة الإسرائيلية الاستيطانية وتذكر بالمصير المشترك بين العرب والصين في مواجهة الإمبريالية العالمية، وهي مقالات كان رئيس التحرير يختار لها من حين لآخر صوراً تجمع الزعيمين جمال عبد الناصر وشواين لاي، ليذكر القارئ بالأيام التي لم تكن قد اكتشفنا فيها بعد أن 99 في المئة من أوراق اللعبة في يد أمريكا ومؤخرات حكامنا.

كانت اللغة الخطابية الحماسية التي تحفل بها المقالات المترجمة متماشية مع الخيال السائد لدينا عن الحزب الشيوعي الصيني، ولذلك لم يستغربها أحد، خاصة أن رئيس التحرير كان قد أصدر تعليماته لقسم الترجمة باختيار أي مواد صحفية تهاجم إسرائيل أو تنتقدها في الصحافة العالمية، ولذلك ضمن زميلنا لنفسه فرصاً ثابتة للنشر، كان غيرها يحسده عليها ويلوم نفسه وأهله لأنهم لم يعلموه لغة تساعد على زيادة كشف الإنتاج كل شهر.

حين صحا العالم على أخبار الزيارة المفاجئة التي قرر الرئيس الصيني جيانغ زيمين أن يقوم بها إلى إسرائيل لأول مرة في تاريخ العلاقات بين البلدين، اتضح أن زميلنا كان

الوحيد الذي لم يسمع بأخبار الزيارة، ولذلك قام بتسليم مقال مترجم ملتهب يلعن فيه رئيس تحرير كبرى الصحف الصينية سنسفيل إسرائيل التي زرعتهما القوى الإمبريالية كخنجر مسموم في قلب الوطن العربي.

لم يسأله محرر صفحة الشئون العربية والدولية عن التناقض بين المقال المترجم والزيارة المفاجئة، فقد كان مخنوقاً منه لأنه لم يكن يستجيب لطلباته بتحسين خطه وتنويع موضوعات المقالات التي يترجمها، ولذلك قرر أن يطارد فأراً ظل يلعب في عبه طويلاً فيما يخص زميلنا المترجم، مقررأ أن يصيد ذلك الفأر في حضور شهود من زملائنا في الصحيفة دون أن يخبرهم بما ينوي فعله لكيلا يفقد ميزة المباغته، ولكي يحتفظ لنفسه بخط رجعة إذا ثبت خطأ شكوكه.

كان يفترض بالجمع الذي تحرك من الصحيفة أن يذهب إلى كشري (أبو طارق) الشهير والقريب من مقر الصحيفة لتلبية دعوة غداء من المحرر الشكّاك، لكن الجميع فوجئوا بأنفسهم داخل مطعم بكين للمأكولات الصينية الذي كان قد افتتح فرعاً في وسط البلد، وكان مالكة قد أعلن في الصحف عن استقدام طبّاخين صينيين لتقديم مستوى للأكل الصيني يصعب منافسته حتى على فنادق القاهرة.

حين تهيب بعض الزملاء من تجربة الأكل الصيني الغريب عليهم، أيدهم الزميل المترجم وقال إنه يحب كل شيء في الصين إلا طعامها، وطلب مغادرة المطعم لأن الكشري الذي

تعرفه أحسن من الصيني اللي ما تعرفوش، فحلف الزميل الشكّاك بالطلاق أن أحداً منهم لن يتحرك إلا بعد تجربة الأكل الصيني الذي لن يتعبوا في اختياره من قوائم الطعام، بل سيختارونه بناءً على محادثة تاريخية ستتم بين المترجم والطباخ الصيني المناوب التي ستضفي على العزومة بعداً ثقافياً، وسينتج عنها موضوع طريف سيحبه القراء حتى وإن كره الزملاء الأكل الصيني.

فجأة هب المترجم من مقعده محاولاً الجري خارج المطعم لينقض عليه المحرر الشكّاك ويمسك به من قفاه وهو يجره ناحية المطبخ وهو يصرخ مطالباً بسرعة إحضار الطباخ الصيني وسط ذهول الجميع الذي زاد حين انفجر المترجم في البكاء طالباً من محرر الشؤون الدولية أن يستر عليه ويفلت رقبتة ويسمح له بالانصراف دون فضائح، حالفاً بأنه لن يرى وجهه مرة ثانية، وأنه لن يغادر قريته بالقليلوية مهما حدث.

كانت سرعة انهيار "المترجم" مفاجئة لمحرر الشؤون الدولية الذي توقع أنه سيكابر ويستعيد تراث نجيب الريحاني في التعامل مع الطباخ، وظن أن القليل الذي يعرفه المترجم من اللغة الصينية قد يكون كافياً للإفلات من الفخ الذي نصبه له، لكنه لم يتوقع أن يعترف صاحبنا بأنه لا يعرف حتى كيف يقول "صباح الخير" بالصيني، وأنه حتى لا يعرف عنوان السفارة الصينية بالقاهرة.

في اعترافاته المثيرة قال عبد الله بونج إنه ورث محبته

للصين عن أبيه العامل الذي جمعتة صداقة بخبير صيني قدم إلى مصنعه بالدلتا في أيام الاشتراكية، ودخل بيتهم في البلد والتقط صورة مع أبيه وأعمامه، وأنه كان يحلم بدراسة الصينية، لكن اليد القصيرة منعت تحقيق حلمه، وأنه كان يذهب إلى دار الكتب لكي يستعيد ترجمات قديمة كانت تنشرها صحف الستينيات أيام كانت الصين ومصريداً واحدة في مواجهة الإمبريالية الأمريكية، قبل أن تتحول الصين نفسها إلى إمبريالية، وتختفي مشاكل مصر مع الإمبريالية التي أصبح أغلب المصريين يعتمدون تعريف عادل إمام لها بأنها "من الأميرة".

لم أسمع عن عبد الله بونج بعد ذلك الفخ المثير، لكنني كلما قرأت أو سمعت عبارة "الرزق يحب الخفية" أتذكره، وأتساءل هل ساعدته الأيام على المزيد من النصبايات، أم أنها تشظرت عليه وحده، وتركت كعادتها النصابين الثقال سارحين في الملكوت؟

برد عم عبد البر!

كلما شدّ برد نيويورك حيله علينا، وافترى في نزوله
وانحداره تحت الصفر، أتذكر عم عبد البر.

كان عم عبد البر أشهر بوابي عمارات شارعنا السكندري في
أيامه الخوالي باللام وليس بالراء، وكان ابنه الحيلة قد سافر
في منتصف الثمانينات للعمل في إيطاليا، لكن من سقّروه
نصبوا عليه مستغلين بلاهته الواضحة وآمال أبيه العريضة،
فذهبوا به إلى مالطة بدلاً من إيطاليا، وهو أمر لم يفرق كثيراً
مع عم عبد البر، على عكس ابنه، فالأب كان على ما يبدو،
يحتاج إلى تواجد ابنه في أي دولة على الضفة الأخرى من
المتوسط، ليدشها في أي حوار من أي نوع عن أي شيء،
وكانه هو الذي ترك بلادنا التعيسة وسافر إلى بلاد بزه.

في الصيف يقول عم عبد البر لأي شاك من الحر: "وهو ده
حر أصلاً، طب والله العظيم الحر في مالطة بيقلّي السمك
من غير زيت"، وفي الشتاء يقول للمتذمرين من برودة الجو
وغزارة القطرة: "وهو ده برد يا بني إنت وهو.. ده ودانك في
مالطة ممكن تقع من البرد وتقعّد تدور عليها في الشارع وسط
التلج.. وهو ده شتا أصلاً.. ده الشتا في مالطة بيغزّق عماير
بحالها مش بس شوارع زي شوارعكو المعفنة دي".

في البدء لم يكن أحد يجادله منعاً لكسر خاطره، فغربة
الأحباب صعبة وثقيلة على القلب، واستدعأوهم عمّال على
بظال هو بالتأكيد مما يهون مرارتها، لكن عم عبد البر مع

مضي الوقت أساء التعامل مع تحقل الناس له، فبدأ يتصرف بوصفه قنصل مالطة في الإسكندرية، أذكر أنني عبرت مرة إلى جواره وهو يحدث ولي أمر غاضب عن تفاصيل وخفايا الدروس الخصوصية في مالطة، وأن الحكومة تقوم بعمل دعم شهري للأهالي ليستعينوا على مصاريفها، على عكس ما تفعله حكومتنا الوسخة، وقد كان ذلك أهون من مرة ثانية ألفيته يجيب فيها باستفاضة ينقصها الرسوم التوضيحية، على سؤال وجهه شاب عابث يتقن إخفاء هزله: "ألا هي النسوان في مالطة بتتختن برضه يا عم عبد البر؟".

لكن كل هذا كوم، وارتباط عم عبد البر في ذهني بالبرد الزمهرير كوم آخر، وتفصيل ذلك أن ابنه الحيلة بعد أن عاد بسلامة الله من غربة دامت عامين، تزوج من إحدى بنات بلدته، وحل محل أحد أقاربه في إدارة شئون عمارة جديدة في الشارع المجاور، وبعد عام ونيف، وصلت إلى شارعنا أخبار خناقة حامية الوطيس، دارت في مدخل تلك العمارة بين العريس العائد من الغربة وأهل عروسته، استخدمت فيها الذك والأسلحة البيضاء والشوم والأحزمة و"السناسن"، لأن العروسة اشتكت بعد طول صبر، من تأخر العريس في أداء ما هو مطلوب منه، فضلاً عن أداء ما هو متوقع، عافانا الله وإياكم.

ولأن الابن كان قد ورث عن أبيه العناد والمكابرة، فقد رفض في البدء نصيحة عروسته المتعلمة بالذهاب إلى الحكيم المداوي، ورجاء أمها بسرعة الذهاب إلى سيدي البوصيري

وسيدي أبو الدردار أو ما شاء من أولياء الله الصالحين في
بر إسكندرية المكتظ بالأضرحة، بل وأخذته العزة بالإثم
و"الجنجحة" إلى مناطق خطيرة، عايب فيها على ملامح
العروسة العكرة التي لا تشجع أي شيء على التحرك، إن
توفرت رغبة التحريك، فما كان من البنت وأمها إلا أن كسرتا
صمتهما، وأوصلتا الأمر إلى رجال العائلة الذين مزقوا ابن عبد
البر خير مُمَرَّق.

حين لم تعد الفضيحة قابلة للكتمان، اضطر عم عبد البر
لمقاومة سريائها بين الناس، بالحديث عنها علناً، ليقسم
لكل من يمر به دون مناسبة، أن ابنه كان سبعا ضارياً قبل
غربته، وأن أولاد الحرام الذين سقّروه إلى مالطة، لم يحذروه
مسبقاً من بردها القارس، الذي داهمه على حين غرة، فصعق
خصيتيه وأصابهما بالتجمد، ولأنه كان في غربة، فقد أهمل
في الذهاب إلى الطبيب، فضربهما الصقيع كما يضرب الأرض
الخصبة فيصيبها بالبوار، لينجح عم عبد البر في تحويل
ما جرى، من فضيحة مغربة بالتأليس والمألّة، إلى واقعة
تراجيدية تصطك لها الأسنان، وتدفع السامعين للاستعاذة
بالله من غدر الزمان الذي يذل أعناق الرجال، ومديح الوطن
الذي يحن على خصي أبنائه مهما قسا برده.

كان لا بد أن أحكي ذلك كله قبل سنوات للصديق الذي
سبقني إلى الغربة في بلاد الشتاء اللثيم، لأبرر له سؤالي
المتحرج والمتدرج، عما يقوم بتدفئة الأجزاء الحميمة من
الجسد، بعد أن أفاض علي في شرح أهمية تدفئة الرأس

والأذنين والأصابع، ليدلني على عالم الملابس الحرارية، التي تجعلك في مشاوير مدينة ساحلية مثل نيويورك تتصبب عرقاً في عز الصقيع، فلا تتذمر ولا تشكو، وإن فعلت فتذكرك لابن عم عبد البر، سيدفعك للصبر، والشكر لمن هدى عبیده لحسن مواجهة البرد، وهو ما جعل أهل الدول الاسكندنافية الذين تصل درجات الحرارة لديهم إلى ما تحت الثلاثين، يطلقون مثلاً بديعاً يقول: "لا يوجد طقس سيء، توجد ملابس سيئة"، وهو ما لم يدركه ابن عم عبد البر، الذي إن صدقنا رواية أبيه، دفع ثمن انتمائه إلى الرعيل الأول من المهاجرين نحو البلاد الباردة، بعد أن كانت الهجرة وقتها مقتصرة نحو البلاد الأشد حراً وتلزيقاً.

قارن حال ابن عم عبد البر وغيره، بأحوال مئات المهاجرين المصريين من أجيال تالية، وهم يقفون من أجل لقمة عيشهم، على عربات الطعام في نيويورك وغيرها، في عز صقيع الزمهرير، وقد عرفوا أسرار التعامل مع البرد وتقلباته، فصار لكل جو بارد طبقاته من الملابس ونوعه الخاص من الأقمشة، خاصة أن الطقس البارد يزيد عدد مناوبات القادمين حديثاً منهم، ممن لم تستقم أحوال أوراقهم الرسمية، حيث يترك لهم بعض زملائهم الأقدم أماكنهم، ليعودوا إلى البلاد الدافئة، التي لو كانت أحوالها أحسن عليهم كجوها، لما غادروها أبداً.

لا زلت أدين لأحد هؤلاء الجدعان بنصيحة ثمينة في أول شتاء حضرته في نيويورك عام 2013، حين نصحني ألا أفرح حين أرى من شباك بيتي، سطوع الشمس في كبد

سماء الشتاء، لأن تلك الفرحة تدرج تحت بند "فرحة الأهل ببربوره"، فهي توحى لعديمي الخبرة بإمكانية النزول من البيت، متخففين من ملابسهم الثقيلة، كما نفعل في بلادنا حين نرى شمس الشتاء، فنغني لها وندلعا بالشموسة وشمس الشموس والشماميسو وما إلى ذلك من صنوف المرقعة المشروعة، أما هنا فالشمس الساطعة تعني صفاء الجو وخلوه من الغيوم، مما يجعل هواءه قارص البرودة أو قارسها إن شئت يتحرك بكامل حرите في الجو، دون أن يجد من يهدئ اندفاعه، فيلعب لعبته المفضلة بمباغطة أي نسيج بشري يصادفه، ليخرقه نحو العظم مباشرة، وهو ما عقت عليه بقولي: "زي ما حصل لابن عم عبد البر"، قبل أن أعيد حكاية الحكاية التي لم ينجح تغليفها بالسخرية في إخفاء نظرات القلق التي بدت في عيني بلدياتنا الجدد، الذي تركني أكمل السندوتش في صمت زاده غناء الست شجناً، قبل أن يطلب أن أدعو الله له بسرعة إنجاز أوراقه، ليتمكن من قضاء شتاءاته القادمة في مصر.

تغيرت علاقتي مع البرد منذ ذلك الشتاء، ليس فقط لأن الاعتياد يقتل الرهبة ويؤقلم الأجساد، بل لأن التدفئة في نيويورك وأخواتها مبذولة في كل مكان، على عكس الحال في أوطاننا التي تختلف معاناة الناس من البرد فيها حسب ظروفهم وإمكانياتهم، حتى أنها في بيت قديم كالذي أسكنه تصير مصدر إزعاج، حين تعلو مع انخفاض درجات الحرارة، فتشكو من العرق دون أن تجرؤ على فتح الشباك للتهوية،

لكيلا تشكو بعدها من الالتهاب الرئوي الحاد، وكلما وجدت نفسك متلبساً بالشكوى، تشكر الله لأنه لم يبتليك بعاصفة ثلجية قاسية أو إعصار مدمر.

مع الوقت وجدت نفسي وقد تحولت من طالب للنصيحة إلى مركز للإفتاء في شئون البرد، وهو ما حدث ذات مطلع شتاء، حين وقفت في طابور باص المدرسة مع جاري السوداني حديث العهد بشتاء نيويورك، فاستمعت لشكواه بفوقية منعشة، وضبطت نفسي بعدها وأنا أقول له بيقين عم عبد البر: "وهو انت لسه شفت برد يا زول"، قبل أن أحكي له حكاية ابن عم عبد البر، لعله يلحق نفسه بشراء الحراري من الملابس والضاري من الأنسجة، لكن الحكاية أتت معه بأثر عكسي على ما يبدو، لأنني لم أره منذ ذلك اليوم، لا هو ولا أولاده، لأسمع قبل أسبوع من عم أنطوني "دوورمان" العمارة، أن أخينا الزول قرر فجأة نقل إقامته إلى فلوريدا، ولعلك لن تلومه على هذا القرار المتعجل، إذا عرفت أنه عريس جديد.

كبرنا يا أمي وعبرنا الأطلنطي، وأصبحنا حين نجد درجة الحرارة ست درجات مئوية تحت الصفر، نقول لبعضنا بحبور: "بس الجو النهارده معقول الحمد لله".

حدث ذات ليلة كبيرة!

نظر رئيس التحرير إلى الصور التي عدنا بها من مولد السيدة زينب، وقال بطريقته الفقيعة في السخرية: "أمال فين البنات القمرات اللي زي الشربات حلوين مش عارف ليه قولوا هيه".

كانت تلك واحدة من الفرص التي تبدو سانحة وواجبة، لكي أتخلّى عن مراعاة أكل عيشي وأسعى لقطع رزقي فوراً، فأخبر رئيس تحرير صحيفتنا الوليدة البائسة برأيي الحقيقي فيه وفي اليوم الذي شخّ فيه عليّ الزمن فعملت تحت رئاسته، ثم أستقيل لأسباب عديدة من أوجهها، أنني لا يمكن أن أعمل تحت رئاسة شخص خال من أي انفعالات أو عواطف أو مظاهر إنسانية، لدرجة أنه خلال أشهر من عملنا معه، لم نره يُضبط متلبساً بإطلاق تكريعة أو جيص أو فسية أو حتى شجرة خجولة كسائر البشر الذين تضطربهم الظروف للعمل ساعات طويلة في أماكن مغلقة سيئة التهوية لا تخلو حماماتها بسرعة، وكان مما يؤكد اعتقادنا بلا آدميته أننا لم نره يعطس في عز ديسمبر أو يعرق أبداً حتى في عز أغسطس، وإذا ظننت أنني ناقص الأهلية فاقد العقل، لأنني أمقت شخصاً لأنه لا يطلق ريحاً ولا يعرق ولا يعطس ولا يتكزّع، فدعني أصارحك أن كل ما قلته آنفاً لم يكن سوى مجرد تلكيسة لكراهيته، بعد أن سمعنا عن "الرقم" المهول الذي يحصل عليه كل شهر مقابل إدارته البضيئة لسفينة صحيفتنا الغارقة، ولعله يهتمك أن تضيف إلى معلوماتك

أنني كان قد سبق لي كراهية رؤساء تحرير كانوا يتكزّعون ويعرقون ويشخرون ويطلقون من الروائح ما لا يقل نثانة عما كانوا يكتبونه.

لكنني مع ذلك كله، لم أبادر لإعلان استقالتني في تلك اللحظة الفارقة، لأنني لم أكن في الأصل معيناً في الصحيفة التي كانت مثلنا جميعاً ترقد على كف عفريت جربان كلما هرش أصبحت أرزاقنا مهددة، فضلاً عن أنني كنت - ولا أخفيك سراً - قد شعرت بالصدمة مثل رئيس تحريرنا "جلمود الصخر" الذي يتخفى في جلد آدمي، لأن مستوى الجمال في تلك الليلة الكبيرة التي قضيناها في رحاب أم العواجز ورئيسة الديوان ستنا زينب عليها السلام، بدا لي ولزميلي المصور، بعيداً بالفعل عن كافة التفسيرات البصرية الممكنة لكلمتي (القمرات) و(الشربات) اللتين اختارهما الشاعر العظيم صلاح جاهين لوصف بنات المولد، بالطبع لم أكن أنتظر أن أرى ميرفت أمين واقفة تتقضع على ماكينة غزل البنات، أو سهير رمزي وهي سارحة بحمص وحلاوة وجلابية محزقة مشقوقة الجنبين، أو شويكار وهي تفرد ساقها البديعتين حول نصة للكوارع والسمين، لكن ما رأيناه حولنا في تلك الليلة الكبيرة، كان للأسف وعلى عكس ليال كبيرة سابقة، معرضاً مفتوحاً لآثار سوء التغذية والإرهاق الدائم والقلي المستمر للأكل بزيت العربيات وماكياج مصانع بير السلم.

لكنني "الآن أتكلم"، وبعد كل هذه السنين التي مضت على تلك الليلة، وبعد أن تخلصت من تفاهات السن المبكرة،

واكتسبت تفاهات جديدة، فالوم أمامكم وأمام محكمة التاريخ نفسي وزميلي المصور، على امتلاكنا تصوراً ضيقاً ووضيعةً للجمال، كنا نستمدّه كسائر أبناء جيلنا والأجيال التي تليه، من مقاييس جمال نجومات السينما المصرية والأمريكية وفتيات أغلفة مجلات الأزياء، وهو تصور لا يتناسق أصلاً مع حالة وجوهنا وأجسادنا نحن، التي هي أبعد ما يكون عن مفاهيم الجمال والرشاقة كما تروج لها السينما ومجلات الأزياء، ومع ذلك، ولكيلا أفرط في لوم نفسي وزميلي رغبة في التطهر، دعوني أقرر أننا حتى لو كنا نمتلك وقتها تصوراً أكثر إنسانية ورحابة للجمال، لما كان ذلك قد ساعدنا على إنجاز مهمتنا الصحفية البلهاء، التي طلب فيها رئيس التحرير منا أن نترجم أوبريت الليلة الكبيرة إلى صور تحاول ما استطاعت أن تقارب فتنة ما كتبه صلاح جاهين، ثم أعلق عليها بكتابة نعرية تقارن ما كتبه جاهين في أوبريته الأشهر، بما شاهدناه في تلك الليلة من ليالي عام 1998.

لم تلق كتابتي التي التزمت بحدود المهمة مصيراً أفضل من صور زميلي، حيث انهال عليها رئيس التحرير تريقة وشخرمة، بادئاً بفقرة كنت قد تحدثت فيها عن ظاهرة قلة عدد الفتيات والسيدات الحاضرات لتلك الليلة الكبيرة، وهو ما فسّره بـ "سطوة الرهبة المعنوية لأصابع بعض رواد المولد، التي باتت تبعد الكثيرات عنه في السنوات الأخيرة"، فقرأ بسلامته العبارة متلمظاً، ثم قال لي: "يعني القارئ المفروض يفهم كلامك عن الصوايع ده إزاي"، فقلت كاظماً

غيظني: "يعني لو راح المولد مع حد من أهل بيته يمكن ياخدوا لهم صباعين فيفهم"، وإذا استغربت سؤاله وردي، فعليك أن تلاحظ أننا لم نكن يومها قد شهدنا الزمن الذي يتحول فيه التحرش الجماعي إلى ظاهرة مألوفة ومرتقبة في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية، فقد كانت حادثة فتاة العتبة التي وقعت قبل سنوات وتعرضت فيها فتاة لهتك العرض داخل الأتوبيس المزدحم، لا تزال تُعامل كواحدة من علامات يوم القيامة.

يومها، لم يفهم رئيس التحرير القادم من الخليج بعد غربة سنوات، لماذا لم نجد أنا وزميلي شيئاً مما انتظر أن نجده في مولد السيدة زينب، لا البنات القمرات ولا شجيع السيما أبو شنب بريمة ولا الرئيس حنتيره ولا البلياتشو ومنتشه، ومع أنه لم يوجه لنا اتهامات صريحة بالتقصير في العمل، لكنه تساءل بنبرة غير مريحة عما إذا كنا قد طفنا على المولد بأكمله، أم أننا فقط قررنا أن نراه من أطرافه بسبب الزحام، وفي حين انبرى زميلي المصور ليدفع عن نفسه اتهامات "الكزوة والطلسقة"، قررت أن أسأل رئيس التحرير عن آخر مرة ذهب فيها إلى مولد السيدة أو غيره من الموالد، فقال بهدوء يققع الخصى الحجرية إنه بعد مشاهدته لفيلم (مولد يا دنيا) في نهاية السبعينات، لم يشعر بفضل المخرج حسين كمال أنه بحاجة لزيارة المولد فعلياً، لنقضي الوقت الذي تلا إجابته، في محاولة إقناعه أن ما صدر عن حنجرة زميلي المصور كان كُحّة ناشفة وليس شجرة، مع أنه كان يعرف جيداً أنها

شجرة، فهو إن لم يكن قد تفوه بمثلها، كان حتماً قد سمعها
كأي مواطن يعيش في وادينا الطيب.

قرر رئيس التحرير إما رهبة من سماع شجرة تالية أو
توفيراً للوقت، أن يقوم بإلغاء فكرة المطابقة بين الأوبريت
الجاهيني وصور الليلة الكبيرة الفعلية، ليقرر نشر بعض من
صور زميلي، خصوصاً تلك التي انبطح من أجلها على الأرض،
ليصنع كادراً متعدد الأبعاد والألوان والدلالات، بصحبة
مقتطفات من كتابتي التي قرر أن يحذف الكثير من مقاطعها
التي ستجرح شعور القراء، وكنت قد قررت أن أتقبل ذلك
عملاً بقول الشاعر: "عدي يا ليلة، عدي يا ليلة"، لولا أنه زوّدها
على الآخر حين تهكم على إشارتي إلى مطعم الرفاعي، الذي
جلس صلاح جاهين عليه لي شحن بطارية إبداعه بأكلة موزة
وكباب معتبرة، قبل أن يجلس على قهوة في ميدان السيدة،
ليكتب أوبريته العظيم الذي صار لسنين النشيد الرسمي
لأطفال مصر، ملمحاً إلى أن تلك الإشارة ليست سوى "إعلان
كان ينبغي لولا تسامحه أن يكون مدفوع الأجر"، وكان تعليقه
الواطن ذاك هو القشة التي قصمت ظهر بغير الصبر، فجعلتني
أطلب منه سحب موضوعي على الفور، لأذهب بما كتبت
وبصور زميلي إلى صحيفة تقدر الشغل المختلف وتعرف
"قيمة الرجال الذي لا يبيعون شرفهم المهني بكباب الدنيا
وكفتتها".

ولأنني لم أجد وقتها صحيفة بتلك المواصفات، فقد ذهبت
صور زميلي أدراج العزال من شقة إلى أخرى بضم الألف،

ومن صحيفة إلى أخرى بفتح الألف، ولعله إن قرأ كلامي الآن، يدرك أن ذلك الضياع كان في مصلحته تماماً، لأنها كانت صوراً شديدة الرداءة والقبح، وأن قبحها لم يكن "قبحاً فنياً" له جماله الأسر الذي لا يدركه إلا الذين لم تألف عيونهم القبح العادي"، كما قال له زميلنا محرر صفحة الثقافة، الذي اعترف لي فيما بعد أنه قال له ذلك لأنه كان يضر أن يقترض منه عشرين جنيهاً، تماماً كما أعترف لك الآن أن موضوعي نفسه كان يمتلئ ببعض الفقرات الإنشائية البلهاء، وهو ما جعلني أعيد كتابته، ليجد طريقه إلى النور من جديد، فتعيش معي كما أتمنى أجواء تلك الليلة الكبيرة كما شهدتها:

"في شادر كبير لتجار سوق السيدة زينب جلست امرأة ممتلئة داكنة الملامح والنوايا على كرسي متهالك في يسار المنصة الخشبية، تنتظر بزهرق انتهاء من تصورث أنه "دكرها" من ضرب السلامة المربعة التي كان يملئها عليه رجل ضخمة الجثة مهيب الطلعة: "إحنا بنحیی كل مدايغ مصر القديمة.. مصر العظيمة.. مصر بلدنا.. بلد أبویا وجد جدي.. وأحلی سلام للحاج البرنس بتاعنا كلنا.. احنا اخترناه وكلنا وراه.. البرنس مالناش غيره.. مالناش غيره"، والمعلم الذي كان يقوم بتلقين السلامة على "فكهاني البُق" الذي يجودها بالمط والتنغيم سخن فجأة ورأى أن الحالة لا تقتضي أن تصل مشاعره عبر وسيط، فخطف الحديد من "بُق النوبتشي"، وأخذ يصرخ في الميكروفون بصوت متهدج وجسد منتفض: "البرنس عمنا كلنا.. ما یزعلش مننا.. والسك أمنا.. وكلنا

محاسيبها.. وعايزين نخش في الموضوع.. اللي ما يعرفش
البرنس وما يعرفش الحاجة علىة الديب يبقى راجل نطع
وابن مرة وسخة.. واسكت يا لساني.. اسكت يا لساني..
عشان احنا في حمى السيدة.. ومش عايز أشتم بالأب والأم..
ولا عايز أسب الدين.. وسقمني عظيمة يا مصر.. مصر حرة
والسيدة زينب حرة وكل صعايدة الدنيا منورين عندنا".

نزع النوبتشي الميكروفون من خاطفه المهتاج بالعافية، في
حين تولى ثلاثة رجال غلاظ شداد احتضان المعلم وتهدئته،
ليتضح لي أن السيدة الممتلئة التي كانت تجلس على
الكرسي منتظرة بزهب، لم تكن "تبعه" أصلاً، بل كانت المطربة
التي يفترض بها أن تبدأ وصلة غنائية جديدة، ولأنها كانت
متضايقة جداً من السياق بأكمله، أو "داباها جامد" قبل بدء
الغناء، فأنا لم أعد أذكر مما غنته بصوت زاحف "مخيف" سوى
تكرارها المنغم لعبارة "منك لله ياللي تخون العيش والملح"،
التي بدا لي أنها رسالة موجهة إلى بلكونة قريبة، أكثر من
كونها صورة شعرية تستحسن تكرارها.

في سرادق مجاور، علا صوت مطرب عجوز صادحاً بغناء
حزائني الكلام فرايحي الإيقاع، في حين امتلأت الخشبة
عن بكرة أمها، بشباب في سن الضياع يرقصون بالمطاوي
والسنج، على خلفية تكرار المطرب العجوز لأحد أهم الوصايا
العشر لدى عموم المصريين: "لا تخون أخوك اللي أكل معاك
في طبق واحد"، والرجل الكُبارة كان يبدو عليه أنه قرفان
جداً من "السيثويشن" بأكمله، حتى أنه قطع الغناء فجأة

ليحذر من انهيار الخشبة باللي فيها، وحين أثارت ملاحظته استياء الراقصين، خطف نوبتشي السراقق منه الميكروفون، ليحيي بعزم ما فيه: "المعلم البرنس برنس مصر الأول وصبيان المعلم البرنس أجدع معلمين لأجدع معلم"، ليدو لي أن المعلم البرنس متحمس جدا للسيدة زينب وليلتها الكبيرة، لدرجة أنه صرف أموالاً كثيرة على سراققين كبيرين لا يبعدان كثيراً عن بعضهما، ولعل له في المولد سראدقات أخرى لم أخط بها خُبراً.

كل من سألتهم عن كُنه المعلم البرنس وماهيته، قابلوا أسئلتني للأسف بعدائية شديدة، لم أفهم سرها، إلا حين قال لي شخص بدا عليهما ببواطن الأمور بصوت هامس إن البرنس "أكبر تاجر مخدرات في بر مصر تقاً"، في حين قال صديق له إن هذه فرية حقيرة، لأن المعلم البرنس "أكبر تاجر أدوات كهربائية في بر مصر تقاً"، في حين رأى صديق ثالث لهما بدا لي أكثر علماً وإحاطة، أن المعلوماتين صحيحتين تماماً ولا تنفي إحداهما الأخرى، لكن المعلومة التي بدت لي أصح وأدق بعد كل هذا الجدل، هي التي أطلقها نوبتشي السراقق المجاور: "اللي يقول مصر ما فيهاش فلوس يبقى راجل حمار".

في ركن بعيد عن السראدقات الصاخبة، دارت مناقشة ثرية بين زبون وتاجر عرائس حول رداءة مستوى العرائس البلاستيك، أدهشني فيه ممارسة البائع للنقد الذاتي، وهو ما تبدى في قوله الصريح: "يعني مستني إيه من عرايس

مستوردة من تايوان.. هي صحيح بالشيء الفلاني بس زي قلتها"، ولأن ذلك السلوك المتجرد من التحيز أعجبني، لم أرغب في سؤاله عما إذا كانت تلك "فرشته ولا واقف عليها بس"، لكيلا يزول إعجابي بصراحته، وأكتشف أنه كان مجرد رغبة في الانتقام من صاحب البضاعة.

على بعد خطوات احتشد عيال كثيرون حول زقازيق متهالكة - جمع زقزيقة متهالكة - كتب الله السلامة بالكاد لكل من يركبها، وكتب صاحبها على كل زقزيقة منها اسم دولة عربية "مصر - السعودية - الكويت - عمان - قطر - المغرب - الأردن - ليبيا"، وحتى هذه اللحظة لا أدري لماذا رُسمت شارة النازية على زقزيقة الأردن بالذات دون غيرها، وبالطبع كنت أعقل من أن أقوم بشغل وقت القائم على مقاليد الزقازيق، لسؤاله عما إذا كان ذلك ينبع من تجربة عمالة سيئة في الأردن، أم أن وراءها سببا آخر. كانت الأصوات المنبعثة من حركة الزقازيق براكبيها تبعث على الخوف الشديد من أن تتفكك أوصالها فترشق براكبيها في رؤوس المحيطين بها، لكنني لم أصادف في المكان المحيط أحداً يظهر عليه الخوف غيري، ربما لأنني لم أكن أمتلك إيماناً كاملاً بشعار "العين صابتني ورب العرش نجاني.. والحلوة من الخليفة"، المكتوب بحذافيره فوق كل زقزوقة، ليكون بمثابة تعويذة تحمي راكبيها من السقوط، حين تتشعلق بهم الزقازيق العروبية في فضاء السيدة.

في الجوار، ثمة شباب أعماه "البورشام" عن ذكر الله وذكر

ما سواه، وأقنعه بضرورة الوقوف بالمقلوب على مرجيحة ضخمة متهتكة المفاصل، لعله يتوازن، وبالقرب من قسم السيدة وقف جمع من الصعايدة يستعرضون مهارتهم في رقصة العصا، على أنغام صوت جميل وحزين ينبعث من كاسيت عملاق يحمله أحدهم على كتفه، لم أنس له أبدا تجليه في غناء عبارة ملحمية تقول: "ولما جينا ناخذ عَدَلْنَا.. الأيام ولّت وراحت"، قبل أن يقرر حامل الكاسيت لسبب غامض وقف تشغيله فجأة، ليهتف بحياة أهل جهينة وطهطا، وهو يغالب رغبته في البكاء، وفي حين شكره بعض الواقفين، قال له أكبر الرجال سنا بوقاحة: "شغل الشريط تاني بميتين أمك ما تفلقش ديك أبونا".

من سرادق مجاور انبعث صوت من أنكر الأصوات يكرر بشكل مستفز "كلام كلام كلام بياعين كلام"، ولم يكن يمارس رغبة في الإسقاط السياسي بالتأكيد، بل لتقطيم المتباطئين في "تنقيط" المطرب والغوازي من رواد السرادق البخلاء. وعلى ناصية قريبة دخلت فلاحه تبيع الحمص في وصلة ملاغية طويلة، مع رجل أربعيني كامل اللزوجة، لتقلب الوصلة بعد قليل إلى خناقة حامية، يحضرني منها الآن قولها له: "جتك الهم وانت متعايق بشعرك الملقق بتفافة"، قبل أن تخفض صوتها قليلاً فتذكر بعض أمه بسوء. وعلى أكشاك النيشان وقفت بنات تحت العشرين كما بدا جلياً من إحكام الدهر لانتفاخاتهن، مرتديات ملابس يغلب عليها التهتك المحسوب واللازم لجر رجل الزبون إلى مكان ما، والمصحوب

بضحكات عريضة ذوات أذيال، تنقطم فجأة إن تجاوز الزبون حدوده فسبقت يده لسانه، لتحل محل تلك الضحكات زغرات حادة، تتحول عند اللزوم إلى شخرات هي بمثابة شفرات يظهر على إثرها رجال يختبئون في أماكن معلومة، في انتظار خفيف الروح الذي دعت عليه أمه، حين اغتر بوقوف الفتيات لوحدهن دون حماية.

يحيط بك الأكل أينما حلت في أرجاء المكان: كشري وكسكسي وبليلة وهريسة وفول وطعمية وحمص شام وسمين، الكل مُرزق والطحن والمضغ على أشده، وهواة الطبخ يتزاحمون أمام فلاحات تضعن حلل الطبخ التي محا الهباب ملامحها، فوق مواقد اشتكت من طول مدة الخدمة، ووسط الصيحات المتناثرة من رواد الطبخ، لم أسمع إلا عبارة "زوّدي شوية دِفعة والنبي يا ست". على بعد خطوات من حلقات الطبخ، وفي مطعم الرقيب، حضرت خناقة لوجيه ريفي أمثل مع جرسون المطعم، تسبب فيها غياب الشفافية عن أداء الجرسون: "كان لازم تقول إن الفتة بخمسة جنيه من الأول، عشان اللي بيحصل ده سرقة في ليلة مفترجة"، ليشير له الجرسون الوقح إلى الفلاحات الفارشات ببوابير الجاز أمام المحل: "طب ما كنت تروح تاكل هناك يا عم بدل ما انت عامل لي فيها معلم ومتعايق بالشال والعباية، واعلا بالحساب عشان ما أتغاباش عليك"، لتشتعل خناقة سرعان ما انطفأت عندما تدخل أولاد الحلال لتهدئتها، بالتحذير من خطورة إغضاب أم العواجز في ليلتها.

أمام الباب المؤدي إلى ضريح رئيسة الديوان، يختار عساكر الأمن المركزي المؤخرات السمينه من بين المتزاحمين، لينزلوا عليها ضرباً بالخيزرانات، مخفين خلف الشخطات التي تدعي فرض النظام سعادة لا حدود لها بالسلطة الممنوحة لهم في لسع المؤخرات، دون أن يمارسوا في ذلك تفريقاً بين ذكر وأنثى. أبتعد إلى أطراف الميدان باحثاً عن نسمة هواء، فأجد فرشاة كتب نزحت من السور القريب إلى أطراف الميدان، يقف عليها مثقف مرهق يدقق في أكوام الكتب المتربة، في حين يصحو البائع من نومته على الكرسي ليوجه له نظرات ملولة، قبل أن يعود ثانية لنومه.

في سرادق قريب يقف على المنصة شاب بهي الطلعة، لا تجد شكاً في أنه يحلم بتجديد شباب ياسين التهامي، ليغني بمزاج حقيقي على لحن لأم كلثوم كلاماً لم تغنه للأسف أم كلثوم: "ليلي نهاري غارقاً في ذكرها.. وسكري بها عند التجلي صحتي"، وفي كافة الشوارع المحيطة بالمسجد العتيق، ينام المئات على الأرض بما تيسر من غطاء أو دون غطاء، فلا تدري كيف وجدوا سبيلاً إلى النوم العميق وسط كل هذا الصخب العنيف، وهل راحوا في النوم إعياء، أم سكينه أم زهقاً أم كل ما سبق؟ فتجد نفسك وأنت تتأمل كل ما حولك، وقد رحت في الضحك على تلك المحاولات التي بذلها كثيرون حاولوا بالأدلة العلمية والتاريخية، إقناع المصريين بأن السيدة زينب ليست موجودة أصلاً في هذا الضريح، غافلين عن أن السيدة زينب لو لم تكن موجودة هنا في هذا

الضريح لاخترعها المصريون، وصنعوا لها ليلة كبيرة يبحثون فيها عن البهجة واللمة والهيصة والفضضة والشكوى من الغم المبين والظلم المقيم.

أمام نصة كبيرة للحمص والسسمية وحلاوة المولد، استخدم البائع تكتيكاً خالداً في البيع، هو تكتيك التقطيم الكاذب: "دي جدعنة كبيرة مننا بس ما تغلاش عليكو.. تضحية ما تتعملش إلا للغاليين.. لفة حلويات المولد اللي ما تحلمش بيها بخمسة جنية.. على الله يطمر.. على الله نلاقي حد يقدر.. على الله حد يفتكر عياله وأهل بيته وما يستخسرش يدخل عليهم بحاجة حلوة أحسن ما يتنشل في المولد ويتقال إنه رجع من المولد بلا حلاوة"، وتوافد الزبائن المبتسمين إعجاباً بأدائه الحيوي، أكثر من إعجابهم بسطور حوارهم المفقوس، أخذ يشجعه على المزيد من التناول المحسوب بالشعرة، والذي تعلم أن يقيسه على الهواء من قراءته الدائبة لوجوه المتحلقين حوله.

من بعيد ثارت جلبة عنيفة، لم يبذ أن من الحكمة استطلاع سببها قبل أن تهدأ، ليتضح بعد قليل أن سببها كما يقول الراوي الذي كان يمر بالجوار فشهد على ما حدث: "شلة من الصيغ والشلحلية اصطادوا جماعة فلاحين وخطفوا الطراير من على ريوسهم وغرفوهم في طيازهم لغاية ما جابوا دم، وخذوا واحد منهم رموه على الناس اللي قاعدة في السرادق فالناس اتلمت عليهم وفشختهم ضرب وبعابيص، كل سنة العيال الوسخة دي تطفش مننا الناس

ويقولك المولد ما عادش زي الأول.. هيبقى زي الأول ليه لما
كل واحد مش عارف يلم عياله ويفهمهم إن في ناس بتأكل
عيالها السنة كلها من ورا الليلة دي بس"، لتضفي شهادته على
المكان والليلة بأكملها ملمحاً سوسيولوجياً جارحاً وشارحاً،
ومن بعيد علا أخيراً صوت أذان الفجر، فتوقفت أصوات
الغناء والموسيقى، دون أن تتوقف التحيات والسلامات،
الناضحة برغبة ملحة في لم أكبر قدر ممكن من النقوط قبل
أن تنفض الليلة الكبيرة، حين يطلع النهار الذي لم يكن أحد
يتمنى قدومه أبداً".

"شي لله يا مصر".

شيطان الهايد بارك

"تسمع بالهايد بارك خير من أن تراها". هكذا قلت لنفسي بعد أن قضيت ساعات في الحديقة اللندنية، التي اكتسبت شهرتها من ركن الخطباء الذي ارتبط في أذهان الملايين بحرية التعبير التي لا تحدّها حدود، والتي اخترت أن أسكن قريباً منها حين زرت لندن لأول مرة، قبل أن يتضح أنها أقلّ حدائق المدينة جمالاً، فهي لا تقارن مثلاً بـ (هولاند بارك) الأصغر حجماً والأكثر روعة وخضرة، وحين أخبرت أصدقائي من قاطني لندن بانطباعاتي التي خشيت أن تكون متعجلة، وجدتهم يتفقون معي في الرأي، قائلين أن في (الهايد بارك) ركنين فقط يستحقان الزيارة: ركن ألعاب الأطفال المبهج الذي حمل اسم الأميرة المغدورة ديانا ألف رحمة ونور عليها، وركن الخطباء الذي يمارس نشاطه نهار كل أحد في طرف الحديقة القريب من نضب "ماربل آرش".

نصحتني صديق خبير بمصارين لندن ألا أذهب إلى الركن في الصباح الباكر، لأن خطباءه يحتاجون فترة تسخين قبل وصول مرحلة "اللعلة"، التي تبدأ عادة في الثانية عشرة ظهراً، لكنني حين وصلت إلى المكان في فترة اللعلة المفترضة، بدا الركن أصغر وأقلّ ازدحاماً مما توقعت، وكان أول بختي فيه رجل عجوز يقف في كامل هندامه أعلى سلم خشبي من ثلاث درجات، مرتدياً بابتونة حمراء، ومعلقاً مظلة حمراء على ذراعه الأيسر، وهو يمسك بإنجيل يقرأ منه بصوت زاعق، وحين وقفت بجواره مباشرة لم يرفع

رأسه عن إنجيله ولو للحظة، بل استمر يقرأ بنفس الحماس الزايع، ليتضح أن صعوده على السلم ليس مرتبطاً بإيصال صوته بعيداً، بل بمعنى ما في بطنه، حين حاولت معرفته تجاهل سؤالي وصوب نحوى نظرات مشمئزة، وحين هممت بتصويره أشاح يديه رافضاً ومشيراً لي أن أبتعد، وهو يواصل قراءته العصبية التي فشرت بقائه وحيداً على السلم.

بعد قليل وجدت سُلماً آخر، ولكن من درجتين فقط، يقف عليه رجل أسمر كث اللحية، يرتدي طاقية بيضاء مزركشة وبدلة واسعة عليه تحتها قميص مقلّم تقليمة شديدة الغرابة، ويمسك ملفاً أزرق، ويتحدث بلغة غريبة لم أتبين ما إذا كانت أفريقية أم آسيوية، وإلى جواره يجلس رجل أسمر ضخم يضع عمامة سوداء ويرتدي عباءة خضراء مزينة بنقوش بيضاء فوق جلاباب أبيض، ستدرك أنه فستان واسع حين ترى الحذاء النسائي عالي الكعب الذي كان يرتديه. كان يضع في حجره كتاباً ضخماً، ويبدو كأنه ينتظر انتهاء جاره من الحديث بفارغ الصبر، وحين قمت بتصوير الإثنين، لم ينظر أحدهما إليّ، بل واصل صاعد السلم الحديث وهو يحدّق في الفراغ الأيسر بالتحديد، وواصل جاره الجلوس ناظراً في نفس الاتجاه، وحين عدت إليهما أكثر من مرة بعد ذلك لأستمع إلى ما سيقوله ذو الكعب العالي، وجدت ذا الملف الأزرق مستمراً في حديثه المبهم، وذا الكعب العالي مستمراً في جلسته الغامضة، قبل أن يختفي الاثنان بعد قليل من المكان.



كان أول تجمع بشري أجده في المكان متناسباً مع صورته المتخيلة، يحيط برجل ملتج آسيوي الملامح، يقف فوق سور معدني مستنداً إلى عمود نور يرتل آية من القرآن الكريم باللغة العربية، ثم يشرحها بالإنجليزية لجمهور أغلبه من البيض وبينهم مسلمون آسيويون يهزون رؤوسهم تشجيعاً له، وكان يشرح بالإنجليزية قوله تعالى: "ما اتخذ الله من ولد

وما كان معه من إله"، للاحظ أنه يركز في حديثه على شاب كان يحيط بذراعه صاحبتة التي أسندت رأسها على كتفه، ربما لأنه ظنهما زبونين محتملين، بسبب الاهتمام البادي على ملامحهما، وبدا أنه فوجئ بعد قليل حين أبعدت الشابة رأسها عن كتف صاحبها، وقالت له مقاطعة بضيق: "هل يمكن أن تتوقف عن تكرار نفسك؟ منذ دقائق لم تقل شيئاً جديداً، قلت إنك ستحدث بشكل عقلائي ومنطقي، لكنك ظللت تردد نصوصاً من كتابك الذي تؤمن أنه مقدس لترد على كتاب يؤمن آخرون أنه مقدس، وبصراحة لا أفهم فائدة ما تقوله".

فاجأني ارتباك الملتحي مما قالته، فقد ظننته بحكم مهارته الخطابية معتاداً على التعامل مع المقاطعة، ليرفع بعد صمت قصير صوته قائلاً بأداء صاخب: "فائدته أنه يمكن أن ينجيك وينجيه وينجيكم جميعاً من الهلاك في الحياة الآخرة، فائدته أنه لا يريد لي ولك ولنا جميعاً أن نموت كالحيوانات ونصير تراباً"، وهنا نهض فجأة رجل عجوز سمين خدوده مشربة الحمرة، تاركاً الكرسي الذي كان يجلس عليه بجوار السور، وخطا نحو مساحة فارغة أمام الخطيب، ثم بدأ في أداء رقصة مع شريك متوهم، مثيراً ضحك البعض وضيق البعض الآخر، وعلى عكس ما توقعت ضحك المتحدث الملتحي، ووجه الكلام إلى الراقص العجوز بمودة: "عزيزي جون، لا يليق بك هذا، اجلس واستمع بهدوء، أنت لك آذان كبيرة، لماذا لا تستغلها في السمع، انظروا إلى أذنيه، هل رأيتم أذناً أكبر من هذه من قبل، أليس الهدف من خلقها أن تساعد على

الاستماع إلى الآخرين"، فاقترب منه العجوز وقال ضاحكاً:
"سبق وأن حذرتك، حين تصرخ سأقوم للرقص، تحدث بهدوء
وسأستمع إليك"، ليمد الملتحي يده إليه ويسلم عليه بمودة،
وهو يعدّه بخفض صوته ويطلب منه التوقف عن الرقص
والعودة للجلوس في هدوء.



حين عاد الملتحي لمواصلة حديثه، بحث بعينه عن

الثنائي ليواصل حديثه مع الشابة عن فائدة كلامه التي لم تدركها، فقاطعه صديقها هذه المرة قائلاً: " يا عزيزي أنت لم تفهم ما قالته لك جيداً، أنا أيضاً أؤمن مثلك بالحياة بعد الموت، وأحاول أن أفعل ما يطلبه مني الله لكي لا أذهب إلى الجحيم، فلماذا تعتبر أن حياتي خالية من المعنى بعكس حياتك"، ولا أظن أن الطرفين توقعا أن يقاطعهما رجل أشيب قائلاً بسخرية: "الحقيقة أن حياتكما خالية من المعنى، لو كنتما ستعيشانها من أجل حياة بعد الموت ليس عليها أصلاً دليل علمي"، ليقول له الملتحي بلهفة وكأنه وجد فيه ضالته: "عن أي دليل علمي تتحدث؟ هل تريد أن يصحو أحد من القبر ليخبرك بأن هناك حياة بعد الموت"، فرد الأشيب ضاحكاً: "لو صحا زومبي من القبر سأكون مهتماً بالجري بعيداً عنه لا بسؤاله"، تجاهل الملتحي سخريته وانتقل نحو سؤال جديد: "هل يمكن أن أسألك من قام بولادتك؟"، رد الأشيب مبتسماً: "أمي ولذلك لا أسامحها أبداً".

لم يشارك الملتحي البعض في ضحكهم وواصل أسئلته بحماس: "هل أنت متأكد أن أمك التي ولدتك وأنها ليست امرأة أخرى؟ هل تتذكر وأنت رضيع ما الذي كان يحدث في المستشفى؟ لماذا تصدقها إذن مع أنه لا يوجد دليل أنها والدتك؟"، فرد الأشيب بضحكة أعرض: "لأنني ولدت قبيحاً مثلها، ولو شككت فيها لقمت بعمل اختبار دي إن إي"، وحين رأى الملتحي أن مساحة الضحك تزيد بين الحاضرين، رفع صوته باللغة العربية مرتلاً: "والله أخرجكم من بطون

أمهاتكم..." إلى آخر الآية الكريمة، قبل أن يبدأ في شرحها بالإنجليزية، ليقاطعه الشاب قائلاً: "يا عزيزي أنت تحاول إثبات شيء غير ممكن الإثبات لأمثاله، هو يفكر بعيداً عن المنطق الديني الذي نفكر فيه أنا وأنت"، قبل أن يوجه حديثه للأشيب قائلاً: "بصراحة يفترض ألا تكون مهتماً بهذا النقاش الذي يخص المتدينين"، فنظر الملتحي إلى الشاب مبتسماً وقال: "لنتعاون إذا في إقناعه بترك الإلحاد"، فنهض جون العجوز وقال بحماس: "ولماذا لا نتعاون سوياً في الرقص؟ أليس هذا أفضل للجميع؟".

لم يتعامل الأشيب الضحك بهدوء مع محاولة إخراجهم من الحوار، فصرخ غاضباً: "ومن قال أن من حق أحد هنا أن يضع حدوداً للنقاش، هل وقوفك فوق السور وصياحك يعطيك الحق في أن تتحدث، سأصرخ أنا أيضاً من مكاني كما أحب، هذه أرض حرة ومن حقي أن أقول ما شئت"، ولو شاهدت انفعال الرجل وهو يصرخ، لما صدقت أنه كان يضحك ويتحدث بهدوء منذ قليل، وصراخه جعل كثيرين من حوله يصرخون فيه بدورهم طالبين منه الابتعاد، واحترام هذه المساحة التي خصصت للحوار بين الأديان، ليقول لهم إن كلمة الدين والاحترام لا يصح أن يتجاوزا في عبارة واحدة، وأنه سيقول ما يحلو له، وعليهم أن يحترموا عقولهم ويفكروا في الهراء الذي يسمعون، ليفقدني الصراخ المتعالي من كل اتجاه حماسي للمتابعة، خاصة أن جون العجوز توقف عن الرقص واستقر على كرسيه ساداً أذنيه بانزعاج.

ابتعدت متجهاً نحو عمق المكان، لأجد بعد عدة خطوات مشهداً مغايراً، بطله رجل يرتدي قميصاً مقلماً وطاقية سوداء زينت بالنجمة الحمراء، ويقف فوق سلم معدني علقت عليه لافتة كتب عليها عنوان موقعه الماركسي شارحاً لحوالي خمسة أشخاص من أعمار مختلفة تفاصيل اللعبة الاقتصادية الرأسمالية التي يتبادل قيادات حزبي المحافظين والعمال لعبها، ليوهما الجمهور الإنجليزي بأنهم مختلفون عن بعضهم، وأن على الناس أن يرفضوا هذا الهراء وينتفضوا لإيقاف هذه اللعبة وفرض قواعد جديدة. لم يظهر أن المستمعين يشاركونه حماسه، لكنهم بدوا مهتمين بإكمال الاستماع إليه، لأنه كان يزود كلامه بأرقام يؤكد بها عدم الاختلاف في السياسات بين المحافظين والعمال، لكنني وجدت صعوبة في متابعته بسبب لهجته وسرعته الشديدة في الكلام، فابتعدت بعد أن أخذت فكرة عامة عما يقوله.



على بعد خطوات كان المشهد مختلفاً، حيث تعالت أصوات لا تدري إن كانت هتافات أم صرخات، لأتبين حين اقتربت أكثر أن مصدرها أشخاص ذو ملامح شرق أوسطية، يقفون إلى جوار رجل أسود البشرة، يرتدي جاكيت ترينج أحمر وبرنيطة حمراء، ويمسك بكتاب لم أتبين عنوانه، دون أن يقرأ منه، فقد كان يرتجل هجوماً عنيفاً على الإسلام والمسلمين، ولم يكن فيما قاله جديد عما تردده بعض المواقع والقنوات

المسيحية المتشددة، لكن الصاخبين الواقفين إلى جواره كانوا حريصين على أن تعلو أصواتهم فوق صوته، ليجاهد بدوره لرفع صوته أكثر. اتضح أن أحدهم من المغرب العربي، عرفته من لهجته المميزة، حين قررت محادثته بعد تردد، خاصة وقد بدا أن حماسه مبالغ فيه، قلت له بتودد إن ما يفعله هو ومن معه، يعطي لكلام الرجل أهمية لا يستحقه، وأن من الأفضل أن يتركه ينتهي من شرح فكرته، ثم يرد عليه بهدوء، خصوصاً أنه كان يتحدث عن الإسلام يحتكر القتل والحرب والعنف دون غيره من الأديان، وهو كلام يمكن الرد عليه بسهولة.

لاحظت عدم حماس أخي لما قلته، وحين خشيت أن يكون كلامي غير مفهوم له، خصوصاً أنه كان يهاجم المتحدث ويقاطعه بإنجليزية طليقة، فشرعت في ترجمة كلامي، ليفاجئني بقوله بعربية فصيحة: "أرد على من يا أخي الكريم، ليحمد الله أنني تركته يتحدث أصلاً"، ثم عاد ليهتف في الرجل بالإنجليزية وبحماس أشد: "كذاب كذاب"، فيردد أصدقاؤه الهتاف من بعده، ويرفع المتحدث الأفريقي صوته متوجهاً بحديثه لمن بدا عليهم الضيق من الحاضرين: "انظروا، هؤلاء هم المسلمون، هذه حقيقة، لا يملكون شيئاً غير الصياح والشتائم، ولو تمكنوا مني لقتلوني". على أية حال، لم يكن الصائحون يوجهون إليه شتائم جنسية كالتي سمعتها في زيارة تالية، حين وجدت رجلاً مصرياً كبير السن، يطوف على كل المتحدثين من المسيحيين أو اليهود

أو البوذيين، ليقف بالقرب منهم، وينهال عليهم بكوكيل متعدد اللغات من أقذع الشتائم "حسبة لله" كما قال لي، وقد نال الرجل حظه من الشهرة، حين وجدت بعض فيديوهات طريقها إلى الإنترنت واشتهرت فيه لفترة قبل أن يطويها النسيان.

حين علت الأصوات الصارخة في وجه الخطيب الأفريقي، قرر أن يظهر عدم اكتراثه بأن يشير للصائحين طالباً منهم تعلية أصواتهم أكثر، وحين علت أصواتهم أكثر أخذ يتقمص دور قائد أوركسترا يحرك يديه لتنظيم الكورال الصارخ، وحين زهق من تحريك يديه الذي لم يوقف الصراخ، نظر فجأة إلى المغاربي الذي كان قد أشعل سيجارة للتو، ليشير إليه صارخاً: "ها أنتم ترون بأعينكم، هذا الذي كان يتحدث عن حضارته الإسلامية قبل قليل، ها هو يقوم بالتدخين وسطنا ليفسد الهواء النقي الذي نتنفس"، ثم وجه حديثه قائلاً للمدخن المغاربي: "ألا تحترم قوانيننا؟ ألا تعرف أن التدخين ممنوع في حدائق مدينتنا"، فصرخ فيه المغاربي: "مدينة من وقوانين من يا غبي، هل صدقت نفسك أنك أصبحت رجلاً أبيض؟ هل تظن حين تتملقهم بالهجوم على الإسلام وتمتدح المسيحية أنهم سيعطونك الجنسية، أنت واهم، سيظلون يعاملونك كأفريقي دخيل مهما صنعت"، ليلمس حديثه عصباً عارياً عند المتحدث الذي أخذ يصرخ فيه: "متخلف بربري"، فيهدف فيه المغاربي: "كذاب عبيط"، مشيراً لمن حوله برفع أصواتهم معه، ويستمر الجميع في

تبادل الصراخ، فأبتعد عن المكان باحثاً عن "نمرة" جديدة.

في الطريق نحو تجمع صاخب جديد، مررت على شاب لطيف مبتسم يحمل لافتة "أحضان مجانية"، لكنه لم ينجح في إغراء أحد بعرضه الودود، لأن وجهه كان مصاباً بطفح جلدي وردي اللون، يوحي أنه في مرحلة الانتشار، مما يمكن أن يقتل أي مشاعر طيبة، قد ترغب في تلبية طلبه.



على مقربة منه وجدت رجلاً لاتينياً يقف على كرسي حمام أخضر، ويصرخ منفعلاً، وهو يشير بإصبع الاتهام إلى حيث لا يوجد أحد، دون أن يتبين لي من كلامه شيء، وحين استعنت بزميل متفرج من المارة لفهم ما يقوله، أخبرني أنه يمر به منذ فترة، فيجده يشير غاضباً بنفس الإصبع إلى نفس الاتجاه، وحتى حين صرخ في شخص حاول تصويره، لم يقم بتحويل نظره وإصبعه عن ذلك الاتجاه.

على بعد خطوات منه وقف رجل أبيض طاعن في السن، أمام منصة خشبية مصممة للطوي والحمل بسهولة، وقد وضع أمامه على الأرض عدداً من الكتيبات البوذية، ووقف صامتاً غير مكترث بشرح أي شيء عن طبيعة ما يعرضه، وقد وقف خلفه رجل يماثله في السن، وإن كان أكثر ألفة وأناقاة، وقد راقبت الاثنين لمدة عشر دقائق من كعب، فوجدتهما متمسكين بالتزام الصمت الرهيب، دون أن يزعجهما عدم توقف أحد أمام المنصة ولو للحظات، ولم أجد على المنصة شيئاً مكتوباً لأفهم منه، هل يتبعان جهة ما، أم أنهما يقفان هكذا في ركن الخطباء من باب الدعاية للصمت أو على سبيل التطهر والرياضة الروحية، أو الحداد على ما آل إليه حال الكون.

حين وصلت إلى التجمع الصاخب الجديد، اتضح أنه ليس جديداً، فقد كان نسخة مقلوبة من التجمع السابق، بطلها مسلم بنغالي، كان يصرخ بحماس في المتحلقين من حوله، ملوحاً بمصحف صغير، ومتحدثاً عن فضائل الإسلام التي

لا يمكن أن تجدها في أي دين آخر، وقد وقف حوله ثلاثة
مراهقين إنجليز يتقافزون ويصرخون بكلام من نوعية:
"اذهب إلى بلدك يا أسامة، لماذا لا تعود إلى بنجلاديش لتنكح
زوجاتك الأربع، هذا بلد مسيحي لا يحتاج إلى إرهابيين
قذرين"، كان أغلب المتحلقين حوله مسلمين آسيويين، لم
يلتفت منهم أحد إلى المراهقين الصارخين، وكأنهم يمارسون
تدريباً على فضيلة الصبر، مما كان يستفز المراهقين أكثر
فيمعنون في شتيمته، فقلت لنفسي وقد أصبحت مفتوناً
بالبحث عن الجديد، إن هذا المشهد ربما تغير واكتسب أبعاداً
درامية أفضل، لو التفت إليه المغاربي الصارخ وزملاؤه
ليشتبك الصارخون ببعضهم ويتيحوا للمتحدثين فرصة
أفضل للخطابة.

حين ابتعدت نحو تجمع آخر، تأكدت أنني خلال وقت
قصير أصبحت أهتم بمدى صخب التجمعات وضجيجها، لا
بما ينطق به المتحدثون فيها، وأدركت أنني لو أسلمت نفسي
أطول لهذه الحالة، لانتهى بي الأمر واقفاً على سلم قصير،
وصارخاً في الفراغ مصوباً إلى الجميع إصبعي الوسطى،
ولذلك قررت مغادرة المكان بلا رجعة واستثمار وقتي فيما
هو أفضل، وفي طريقي لمغادرة ركن الخطباء، اتضح أن
(الهايد بارك) قد ادخرت أفضل ما في جعبتها لتظهره لي في
الوقت المناسب، حيث كشفت عن نجمها الأبرز المخبوء في
الركن البعيد الهادئ من ركن الخطباء، فيصبح ذلك النجم
الغريب سبباً لزيارتي المتحمسة لـ (الهايد بارك) في رحلتي

عمل تاليتين إلى لندن، فأذهب للاستمتاع بعرضه، كأني ذاهب إلى مسرح للفرجة على (مونودراما) يقدمها ممثل عتويل يجيد الكوميديا والتراجيديا معاً، ويجيد قبلهما فن الاحتفاظ بمشاهديه دون أدنى ملل.

في البدء ظننته بسبب ملابسه مهرجاً غريب الأطوار، كان ممتلئاً بعض الشيء أسمر اللون يتحدث الإنجليزية بطلاقة مع لكمة ثقيلة تظهر فجأة وتختفي فجأة، كان يرتدي قبعة سوداء تشبه الطرطور أو الزعبوط الذي يرتديه مهرجو السيرك، تنبعث من أعلاها ثلاثة قرون ملونة، أضخمها ينبعث من منتصف القبعة مائلاً إلى الورا متوسطاً قرنين صغيرين أحمرين، كان يضع على أذنيه سماعة كبيرة الحجم، ويرتدي قفازين مقطوعي الأصابع والظهر ربما ليتناسبا مع جو الصيف الرطب، ويضع حول رقبته شالاً يشبه الشال الفلسطيني بعض الشيء، مما جعلني أظنه لأول وهلة من الخطباء المناصرين للقضية الفلسطينية الذين قال لي صديق إنني سأشهد مناوشاتهم الساخنة مع صهاينة الهايد بارك، لكنني لم أجدهم في أول زيارة، وإن كنت قد شاهدت بعضهم في ما بعد، فأعجبت بمن يتحدثون منهم بشكل ساخر وجذاب لا يخلو من المعلومات التي تدفع المستمع للتفكير، ولم أعجب بمن يتصورون أن إجادتهم الإنجليزية تعفيهم من مسؤولية الحديث بشكل منطقي بعيداً عن الخطابة والطنطنة التي تعودنا عليها في بلادنا.



في المرتين التاليتين اللتين رأيت الرجل فيهما، كان يرتدي نفس الملابس الغريبة التي لم أكن أتصور في المرة الأولى أنها زي رسمي يحمل وراءه فلسفة، فهو من وجهة نظره الذي الرسمي للشيطان، وإذا كانت هذه القبعة ذات القرون هي قبعة الشيطان، فمن البديهي أن الشيطان لن يكون ذوقه عادياً في الملابس، بل سيرتدي جاكيت أخضر فوق تيشيرت صارخ الألوان وبنطلون جينز أزرق وحذاء ضخم يوحي

اخضراره بأنه مطلي بشكل رديء.

حين رأيته لأول مرة، كان يضع يديه في جيبه، وينظر نحو سماء الحديقة مبتسماً، في حين يقف أكثر من ثلاثين شخصاً حوله مترقبين، ليبدو بعد لحظات أنه لم يكن يؤدي عرضاً صامتاً، بل كان سارحاً في سكتة طويلة قطعها بابتسامة عريضة، قبل أن يستأنف حديثاً بدا أن جمهوره كان يترقب اكتماله: "بصراحة، الفرنسيون أذكى منا بكثير، نحن الإنجليز كنا أمة أغليبتها من المزارعين، والآن أصبحنا نستبدل المزارعين بآلات ذكية، بينما الفرنسيون يتعاملون باحترام مع المزارعين، حتى لو كانت لديك بقرة واحدة في فرنسا يتعاملون معك كمزارع، وتحصل على إعفاءات ضريبية، بقرة واحدة فقط".

قاطعه شاب شرق أوسطي الملامح قائلاً بابتسامة: "وماذا لو كان لديك بعض الدجاجات، هل يعاملونك كمزارع"، بدا أنه لم يقدر المقاطعة، فصمت قليلاً قبل أن يقول: "كل الدجاج يأكل براز بعضه البعض، ثم تأكله أنت"، مضيفاً وهو ينظر بجدية في وجه مقاطعه الضاحك: "هل تتصور أنني أمزح، أنا لا أفهم سر الهوس الذي أصاب الناس بدجاج المزارع، لماذا يفضلها الناس على الدجاج المجمد، هل رأى أحدكم من قبل مزرعة دجاج، هل أحببت المنظر هناك؟، هل تعرفون أن الدجاج الذي يعيش في الدور الأعلى يتبرز، فيأكل الدجاج الذي في الدور الأسفل برازه، ثم تأكلونه أنتم؟، هل هذا يسعدكم أكثر من الدجاج المجمد لمجرد أنه لا

يعيش في أدوار فوق بعضه البعض، ثم يطعمون المتبقي من براز الدجاج للسماك في مزارعه لكي تكتمل الدائرة"، ليضح الحاضرون بالضحك، ويبدو لي أنني وجدت أخيراً في المكان من يقول كلاماً لم يسبق لي سماعه.

كأي فنان متمرس على التعامل مع الجمهور، أعطى شيطان الهايد بارك لجمهوره لحظات للضحك، لكنه قبل أن يكمل كلامه، قاطعه الشاب الشرق الأوسطي من جديد متسائلاً بضحكة عريضة: "لكن ماذا عن براز السمك الذي يعيش في نهر التيمس، هل نشربه نحن؟"، فنظر الشيطان إليه نظرة غاضبة لا يفهمها إلا من عرف ممثلي المسارح جيداً، فأدرك كيف يمكن للكوميديان أن يقتل، إذا رأى من يزاحمه في تفرده بالإضحاك، وبعد هنيهة من الصمت، قرر الشيطان أن يوجه للشاب المزاحم ضربة قاصمة مغلفة بالابتسام: "هذا بالضبط ما أقوله، كل ما نشربه من ماء في لندن غير نقي، المسلمون الذين يعيشون في لندن يشربون بول اللوطيين، هم لا يحبون اللوطيين، لكنهم لا يعرفون أن ما يشربونه من مواسير لندن ماء مختلط ببول اللوطيين، ليتحولوا بدورهم إلى لوطيين دون أن يشعروا"، وحين لمح في وجه الشاب نظرة ضيق، أطلق زفرة حادة ثم قال له متصنعاً التأثر: "يا صديقي المسلم المصدوم مما سمعته، صدقني لم يعد يوجد مسلمون حقيقيون في لندن، كلهم عملاء أغبياء للسي آي إيه، وإلا فقل لي أين يمكن أن أجد مكتوباً في القرآن إن على المسلم أن يعيش في لندن ويدفع ضرائب لحلف الناتو الذي

يقتل المسلمين، أنا كنت من أهم الملائكة وأقربهم إلى قلب الله، وأعرف ما أقوله جيداً وأؤكد لك هذا ليس مكتوباً في القرآن".

استوقفني وصفه لنفسه بالملاك، فبدأت أتأمل التيشيرت الذي كان يرتديه تحت الجاكيت، لاكتشف أن ألوانه الصاخبة "غلوشت" على رسم يظهر فيه الشيطان وهو يفرد جناحيه على الكون. كان ما قاله شيطان الهايد بارك قد أغضب الشاب الذي صرخ فيه قائلاً: "لماذا تقول لي هذا الكلام، قله لحلف الناتو الذي تدفع أنت له الضرائب أيضاً"، ولم أتوقع أنا ولا من حولي أن الشيطان الذي بدا منذ قليل مناهضاً لحلف الناتو والسي آي إيه، سيقول للشاب بمنتهى الهدوء: "لماذا أنت منفعل يا عزيزي، حين يقتلونك كمسلم يؤدون لك خدمة، يجب أن تسعدك المذابح، اسمع مني ما أقوله لك، أنا بحكم عملي لدي مصادر في الداخل وأعرف الكثير مما لا تعرفه، المسلمون يصلون إلى الله ليطلبوا منه أن يذهبوا إلى الجنة، ليغرقوا في النعيم ويلتقوا بالعدراوات، ولذلك يرسل الله ملاك الموت حلف الناتو ليقتلهم، بالتالي ليست جريمة أن تقتل مسلماً، لأنه حين يموت يذهب إلى الجنة كشهيد، إنها جريمة فقط أن تقتل كائناً حياً، لأن الكائنات الحية لا تحب أن تموت".

تكهرب الجو من حولنا، كان في الجمع المحيط بنا عدد من ذوي الملامح الشرق أوسطية أو الذين يمكن أن يُشك في كونهم عرباً أو مسلمين، لكن شيطان الهايد بارك كان يلعب

لعبته بهدوء شديد، كان يوجه كلامه الجارح وهو يحتفظ بابتسامته الزائفة، ناظراً مباشرة في عيني الشاب الذي أصبح عليه أن يلعب دور الهادئ الذي لا يهتز، قبل أن يدرك أنه لن يستطيع مغالبة انفعاله، فيقرر الابتعاد عن المكان مسرعاً، لنفاجأ جميعاً بالشیطان ذي الزعبوط وهو يلتفت خلفه نصف التفاتة، وينظر إلى سيدة تقف على بعد خطوات منه مستندة إلى سور معدني، كانت قد لفتت انتباهي أثناء حديثه بغرابة ملابسها التي تشبه ملابس المخبرين في أفلام الأبيض والأسود، لاحظت أنها برغم قربها منه، لم تكن تنظر إليه، بل كانت طيلة الوقت تنظر مطرقة نحو الأرض، ليتضح بعد إشارته إليها أنها حاضرة معه، وأن إشارته إليها كانت طلباً لبعض الماء الذي أخرجته من حقيبة استقرت بجوارها، وهرعت لتناوله زجاجة الماء التي أخذ منها رشفتين بحركة عصبية، قبل أن يعيدها إليه، فتعود إلى مكانها ووقفتها وغرابتها، فينظر للمتابعين المتحفزين ويقول لهم ضاحكاً: "اعذروني، كان لا بد أن أتخلص منه، لو كنت أحب المقاطعات والمناوشات، لما وقفت في هذا الركن الهادئ، صدقوني أنا لست ضد المسلمين، لست ضدهم بالذات، أنا ضد جميع أبناء البشر الملاحين متدينين كانوا أو ملحدين، لا تنسوا قبل كل شيء أنني الشيطان وأتمنى لكم جميعاً على اختلاف أديانكم أسوأ حياة ممكنة، وأسوأ موت متاح"، ليضج الجميع بالضحك، فيرفع رأسه مبحلقاً في السماء، وتاركاً مساحة ضحك للجمهور، ومتأهباً لطلعته القادمة.



في الزيارتين التاليتين اتضحت أكثر معالم الطريق الشيطاني لصاحبنا الرجيم، والتي كان أبرزها اختيار فريسة سائغة كل مرة، لا يهم دينها أو عرقها أو مظهرها، المهم أن تكون قد ارتكبت خطيئة مزاحمته في لحظة تجليه، لينهاه عليها طعنًا بمخالبه المبتسمة، دون أن يخشى ردود الأفعال التي يمكن أن ينتج عنها ذلك، ربما لأن من تقاليد المكان

المستقرة، أن يتساقب الناس ويتشائموا ما شاءوا، دون أن يمد أحدهم يده أو قدمه على الآخر، ودون أن يوجه لشخصه تهديداً صريحاً بممارسة العنف، بحيث يمكن له أن يفلت بفعلته لو قال كلاماً عاماً يحرض ضد شعب أو جنس أو دين، لكنه إذا خص بالاتهام شخصاً بعينه وقام بالتشهير به أخلاقياً، يمكن أن يقع تحت طائلة القانون، وهو ما يخالف اعتقاد الكثيرين أن ركن الخطباء بالهايد بارك مكان محصن من العقاب أياً كان ما تفعله وتقوله فيه.

كان لدي أسئلة كثيرة تلح علي وتناشدني أن أطرحها على شيطان الهايد بارك، أولها عما إذا كان قد تعرض بسبب طريقته الخطرة تلك لأذى بدني من مستمع أفلتت فرامل صبره، لكن تعليمي المبكر للدرس منعني من مجرد التفكير في المقاطعة لاكتفي بدور المستمع المستمتع، خاصة بعد أن اكتشفت أن الشيطان يغالي في قواعده، فيمنع تصوير حديثه بكاميرا فيديو الموبايل، ويسمح فقط بأخذ لقطات ثابتة له. أتذكر أنني فكرت في أخذ تسجيل صوتي لما يقوله، لكنني ضبطت نفسي متردداً، ربما لأنه أقنعني أن لديه قدرات شيطانية يستطيع بها من وقفته العالية أن "يفقس" فعلتي، فأصبح هدفاً لهجومه الكاسح الذي لا أعلم كيف سأقبله.

لذلك قررت الاكتفاء بالاستماع إلى خلطته التلقائية السحرية التي يمزج فيها أنصاف الحقائق بكامل الأكاذيب، والصارخ من الإفهات باللامع من الأفكار وأحياناً بالتافه منها، والهجوم العدواني بالمداعبة اللطيفة، متنقلاً بين

ذلك كله في قفزات من أجلها خلق تعبير "سوق الهبل على الشيطنة"، أتذكر منها مثلاً تلك المرة التي سأله فيها رجل متذاك مشيراً إلى سماعته: "عزيزي الشيطان نريد أن نعرف ما الذي تستمع إليه وأنت تحدثنا؟"، فنظر إليه مبتسماً بأناة الحليم وقال له: "طبعاً أنت تتمنى أن أقول لك أنني أستمع إلى ذبذبات قادمة من السماء يرسلها لي زملائي السابقون في الجنة، أو أن أقول لك أنني أقوم بالتشويش على أجهزة إرسال الإم آي 6 التي تحاول اختراق عقلي، أو أن أقول لك أنني أستمع إلى صوت أمك وهي تتأوه من اللذة، تريدني أن أقول لك أي شيء وضع لكي تشعر أنك أفضل مني، لكنني لن أفعل ذلك، لأنه ليس من حقي مثلاً أن أسألك ما الذي كان يدور في مؤخرتك حين قررت أن تسألني سؤالاً كهذا، لأن ما يدور في مؤخرتك ملك لك، وليس من حق أحد أن يسالك عنه، حتى لو كنا جميعاً نعرف ما الذي يدور في مؤخرتك، فنحن في بلد متحضرة تحترم خصوصية الإنسان مهما بدا لنا وضيعاً، أتمنى أن أكون قد أجبت على سؤالك يا صديقي العزيز"، وحين انفجر الرجل في الضحك الصاخب، بدا أنه زبون قديم لجلسة الشيطان، وإلا لما كان قد تحمل غلظته حتى النهاية.

كنت قد قررت في زيارتي الثالثة، أن أنتظره حتى نهاية عرضه، لعله يتاح لي أن أسأله عن بعض وساوسي وأفكاري، خاصة وقد بدأ يتجسد لي كمشروع فيلم سينمائي عظيم يمكن أن يمثله ببراعة ممثلان بحجم فورست وايتيكر أو

صامويل لـ جاكسون لو تغاضينا عن التطابق الشكلي، ليتأكد لي أن له موعداً لا يخلفه في إنهاء عرضه هو الرابعة مساءً، حيث يقطع حديقته فجأة دون خواتم منمقة أو تمنيات طيبة أو تحيات تقليدية، تماماً كما يبدأ حديقته في الثانية عشر ظهراً دون مقدمات، كأنه يستأنف حديثاً بدأه مع الحاضرين قبل مجيئه. وحين أنهى يومها وصلته الساخرة، هبت امرأته الغامضة التي جاءت مثله بنفس زيتها الأول، لتذكرني بدور (لظى) زوجة إبليس في مسلسل (الكعبة المشرفة) والذي لعبته باقتدار سئنا محسنة توفيق، أمام إبليس مصر الوحيد على الشاشة الصغيرة عمنا جميل راتب.

لا أظنك تفترض في الغباء بحيث أخطر بالبدء بسؤاله عن طبيعة علاقته بها، فقد كنت حصيماً وأنوي فعل ذلك في نهاية حوارنا الطويل، أو هكذا تصورت، لكنه حين عرضت عليه فكرة إجراء الحوار الصحفي معه، قال بهدوء توجست منه خيفة: "أين ستنشر هذا الحوار؟"، فقلت متحمساً: "في أكبر صحيفة مصرية"، فhez رأسه مبتسماً وقال "مصر، واو، جميل"، فحمدت الله على دعوات الأم ورضاها، قبل أن يتضح أنه لا ينفع مع الشياطين ببصلة، فقد سألتني بجدية: "هذه الصحيفة هل تقرأها نفرتيتي؟"، فhezت رأسي بالنفي ببلاهة، فأضاف: "هل يقرأها توت عنخ أمون؟"، فواصلت هز رأسي بالنفي وقد فهمت سكوته، خاصة بعد أن أضاف اسمين أو ثلاثة من مشاهير الفراعنة، وحين رأى أنني توقفت عن هز رأسي، قال بهدوء شديد "هل تتصور أنني مهتم بالحديث

لأحد في بلادكم التعيسة غير هؤلاء؟"، ثم تركني ومشى بصحبة لظاه.

قلت لنفسي إن الحصافة منجية لأصحابها، لأنها جعلت "تهزيئة" كهذه تمر بسلام في "الكلوز"، بعيداً عن شماتة الملاء، أذكر أنني ذهبت بعدها إلى كشك الآيس كريم القريب من الركن الذي يقف فيه، لأسأل بائعه الشاب عما إذا كان يعرف شيئاً عن شيطان الهايد بارك، فسبه بأقذع الألفاظ، وتعضب علي حين سألته عن طبيعة الموقف الذي حدث بينهما وجعله يكرهه هكذا، فخمنت أن درجة غضب كهذه لا يمكن أن تكون قد نتجت إلا عن إهانة علنية، وأن البائع الشاب ربما تعشم فيه ذات مرة أن يعمل اعتباراً للجيرة، ويقوم بمنحه مكاناً صغيراً على مسرحه، فحل عليه غضبه، ولذلك كان ما رأيته من حنقه الشديد لمجرد سماع اسمه، وفكرت أن علاقته بزملائه من معتادي التردد على المكان لن تكون أفضل، خاصة وهو يعتمد البقاء بعيداً عنهم طيلة الوقت، ولا أذكر أنه علق على أداء أحد فيهم، أو حتى نظر نحوه، مهما علا صوته وازداد الصخب المحيط به، وكنت قد بحثت عنه على (جوجل) تحت اسم شيطان الهايد بارك فلم أجد له ذكراً، مع أنه لو كان قد سمح بتصويره بالفيديو، لوجدت له مئات الفيديوهات دون مبالغة.

في طريقي لمغادرة الهايد بارك مررت إلى جوار فتاة جميلة تحمل لافتة (أحضان مجانية) كان الإقبال عليها شديداً لأسباب مفهومة، أخذت أتأمل جنبات المكان الذي لم يكن

مزدحمًا في زيارتي الأخيرة التي كانت عام 2012، وهو عكس ما رأيته عهده في الزيارتين السابقتين، فلم أدر هل كان هطول المطر يومها سبباً لذلك، أم أن ركن الخطباء تأثر بفعل مواقع التواصل الاجتماعي، التي كانت قد بدأت في فرض سطوتها على الفضاء العام، وهو ما لعله أغرى كثيراً من زبائن ركن الخطباء، ليكنّ كل منهم في بيته، مفضلاً أن يكون النجم الأوحـد في حفلته الخاصة.



أخذ "المستحقات" صنعة

لم أكن مبالغاً أو راغباً فقط في مشاكسة النقاد عندما كتبت ذات مرة إنه "مهما بلغ انشغال الفنان برأي النقاد في فيلمه السينمائي أو مسلسله التلفزيوني، لن يماثل ذلك انشغاله بمصير الدفعة الأخيرة من مستحقاته لدى المنتج"، بل كنت أتحدث عن تجارب مريرة شهدت عليها وخضتها في هذا المضمار قبل أن يقوى قلبي و"ينشف عظمي" في التعامل مع المنتجين.

سأذكر فقط من تلك التجارب ما حدث حين توسطت ذات مرة للصلح بين منتج بارز ونجم سينمائي صاعد، بعد أن قال النجم إنه لن يشارك في فيلمي لأنه يستحيل أن يعمل مع منتج استحل أكل حقه، واتضح أنه كان يتحدث عن الدفعة الأخيرة من مستحقات فيلم سابق وقدرها خمسة آلاف جنيه فقط لا غير، وهو مبلغ كان كبيراً قبل "إغراق" الجنيه، لكن ليس إلى الحد الذي تُقطع من أجله العلاقات إلى الأبد.

حين سألت المنتج عن الموضوع، لم ينكره ولم يحدثني مثلاً عن مصيبة ارتكبها النجم خلال التصوير استوجبت "تعويره" في أي مبلغ من باب تعويض الخسائر، بل اكتفى بابتسامة "أورجازمية" عريضة وقال إنه لم يعط النجم الدفعة الأخيرة من فلوسه لأنه أحس "إنه ما يستاهلهاش"، وفي الآخر وحرصاً على تكبير الدماغ وتكبير أفيش الفيلم القادم دفع المنتج ما عليه من فلوس، بل وزاد أجر النجم

الصاعد الذي عمل معه كثيراً بعد ذلك، وأدركت أنا يومها أهمية الحصول على مستحقاتي كاملة قبل تسليم التنازل عن الفيلم، وحين سألتني المنتج متغاضباً "ما عندكش ثقة في"، قلت له ضاحكاً: "في ثقة طبعاً بس حاسس إنك ما تستاهلهاش".

لحسن الحظ خدمت الظروف المؤلفين حين جعلت عملهم ينتهي نظرياً بجاهزية السيناريو للتصوير، وساعدهم القانون نظرياً حين كفل لهم إيقاف تصوير الفيلم أو منع عرضه ما لم يحصلوا على حقوقهم المادية طالما كانوا أذكفاء كفاية ولم يقوموا بتسليم تنازل عن حقوق مادية لم يحصلوا عليها، ولذلك لم أتعرض لكل حقوقي من أي منتج سينمائي، لكنني تعرضت لذلك حين عملت في كتابة المسلسلات التلفزيونية بسبب ظروف الإنتاج التلفزيوني الغريبة في بلادنا، والتي تجبرك على تسليم التنازل عن العمل فور بدء تصوير مسلسل لم تنته من كتابته كاملاً، لكيلا تقوم بتعطيل التصوير عن اللحاق بموسم العرض في شهر رمضان.

قبل سنوات قال منتج تلفزيوني شاركت مع أصدقاء في كتابة مسلسل له إنه سيعطيني أجري كاملاً لكنه مضطر لأن يخصم من الدفعة الأخيرة ثلاثة آلاف جنيه فقط، وحين سألته عن السبب بدهشة قال ضاحكاً: "عشان أحس إنني اتشظرت عليك في أي حاجة". وجدت السبب درامياً وجديداً على مسامعي، فلم أطالبه بالمبلغ، وحين فشل المسلسل كان واضحاً أن منتجه قرر أن يتشظر في الخصم

من أجور العاملين أكثر من شطارته في اختيار مخرج جيد والصرف على العمل بشكل لائق، لكنه في نهاية المطاف كان أرحم وأحن من مدينة الإنتاج الإعلامي التي صادرت نصف مستحقاتي المادية عن مسلسل (أهل اسكندرية) الذي ألفته وأخرجه المخرج الكبير خيرى بشارة والذي تم منعه من العرض عام 2014، ولم يدم غضبي طويلاً بعد أن عرفت أن الجهات الرسمية رفيعة المستوى فتحت تحقيقاً مع المسؤولين عن المدينة ليس لأنهم دفعوا لي نصف المستحقات، بل لأنهم أصلاً أنتجوا مسلسلاً من تأليفي.

في مطلع هذه الألفية، وقبل أن يلمع اسمي في كتابة السيناريو، ويصبح النصب علي صعباً ومثيراً لمشاكل قد لا يفضلها المنتجون، حاول منتج تلفزيوني صاعد واعد أن ينصب علي في مبلغ قدره 15 ألف جنيه كنت أستحقه عن قيامي بإعداد برنامج (من سيربح البونبون) الذي قام بتقديمه أحمد حلمي النجم الأكثر شعبية بين الأطفال في العالم العربي منذ أن بدأ تقديم برنامج (لعب عيال) في الفضائية المصرية نهاية التسعينات.

كان أحمد حلمي قد اعتذر لأكثر من مرة عن القيام ببرامج تلفزيونية منذ أن بدأ نجاحه السينمائي في فيلم (عبود على الحدود)، لكنه وافق على العودة إلى تقديم برنامج للأطفال بسبب ظروف الاستعداد لزواجه من النجمة منى زكي وعدم رغبته في عمل أفلام لا يحبها لكي يفك زنقته المادية، وحين طلب منى أن أقوم بكتابة أسئلة البرنامج، وافقت لأنني

كنت أيضاً أعيش زنقة مادية ظننت أن البرنامج سيفكها سريعاً، ولأنني كنت وقتها غزاً حديث الخبرة فقد قمت بعمل البرنامج دون توقيع عقد، وهو ما سهل مهمة المنتج في النصب علي، وبدلاً من اللجوء إلى النيابة والمحاضر والمحاكم والوسائط، استخدمت مهاراتي ككاتب سيناريو واستعدت حقي قبل أن يضيع إلى الأبد.

كنت قد شعرت أن الحكاية فيها إن، حين توقف المنتج اللعين عن الرد على اتصالاتي المتتالية، ولذلك قررت أن أظب على مكتبه وفي دماغي خطة غير مضمونة لكنها تستحق المحاولة. رخب بي المنتج بابتسامة صفراء حين رأي أمامه في المكتب، معذراً عن عدم رده على مكالماتي لأن تليفونه المحمول ضاع، وطلب مني تسجيل رقمي ليتمكن من التواصل معي، وحين سألته عن مستحقاتي تصنع الأسى وهو يقول إنه لن يستطيع دفعها، لأنه لم يقم ببيع البرنامج لمحطات تلفزيونية كثيرة كما كان يتوقع.

ساعدني الإعداد النفسي المسبق على البدء الفوري في تنفيذ الخطة، حيث تلقيت كلامه بهدوء شديد، فلم أقل له إنني أعرف أنه حصل على مبلغ ضخم من بيع البرنامج لقناة راديو وتلفزيون العرب ART، ولم أسأله مثلاً لماذا دفع مستحقات أحمد حلمي كاملة بينما استحل أكل حقي؟ بل اكتفيت بهز رأسي تعاطفاً معه وقلت بهدوء إنني أتفهم موقفه الصعب وأنني حزين جداً من أجله.

حين نظر إلي المنتج باستغراب، أضفت أنني أعتب عليه

لأنه لم يشركني في أزمته، وهو يعلم أنني عملت خلال السنوات الماضية في أكثر من قناة فضائية وأمتلك علاقات جيدة ببعض كبار العاملين في المجال، وسيكون من دواعي سروري أن أساعده في بيع البرنامج، لكنني في حالة حدوث ذلك لن أكتفي بالحصول على باقي مستحقاتي، بل سأخذ فوقها نسبة من المبلغ الذي سيباع به البرنامج لأي قناة فضائية، ولن تقل تلك النسبة عن عشرة في المئة.

ساعد طمع المنتج على غمز الصنارة سريعاً، فبادر إلى طلب تخفيض نسبتي من البيع المنتظر لتصبح خمسة في المئة فقط، وهو ما وافقت عليه بعد تمنع، لكن الصيدة لم تكن ستكتمل على الوجه الأمثل، لو لم أكن سأقوم بإعداد جيد للعملية التي كان من أهم خطواتها أن أختار مشترياً يصعب على أمثاله الوصول إليه لكي يعرض عليه البرنامج بنفسه، وكان لا بد أن ألجأ إلى أحمد حلمي لكي يساعدني على إنجاح العملية، فلم يتردد مشكوراً في المساعدة، بل قرر أن يساعد على تعبئة الصنارة بإضافة كانت ضرورية لاستعادة مستحقاتي المسلوبة.

كان من المهم أن أنتظر أسبوعاً لكي أظهر للمنتج النصاب أنني لست متلهفاً على إتمام البيعة أو الحصول على مستحقاتي، ولم يتردد أحمد حلمي في المساعدة حين طلبت منه أن يخبر المنتج "ضمن كلام كثير" أنه عرف أنني تواصلت مع عدة قنوات فضائية راغبة في شراء البرنامج، لكنني لا زلت أنتظر من بينها من سيعرض السعر الأعلى لكي أخبر

المنتج به وتكمل البيعة على خير.

ربما كان أحمد حلمي يشعر بنوع من المسؤولية لأنه دبّسني مع ذلك المنتج اللعين، لذلك فقد تطوع بالإضافة قائلاً له إنه سيفكر في عمل جزء ثانٍ من البرنامج لو نجحنا في بيعه لأكثر من قناة فضائية، وهو ما لم يكن وارداً لديه على الإطلاق، وحين استغرب المنتج قيامي بقبول وظيفة بسيطة مثل إعداد البرنامج وأنا أمتلك علاقات مهمة بالقنوات الفضائية، قال له أحمد حلمي إنني قمت بذلك إكراماً لخاطره بعد أن توقفت عن إعداد البرامج منذ أن بدأت الكتابة للسينما.

حين اتصلت بعد أسبوع بالمنتج النصاب، كان قد "استوى" وبات جاهزاً لتصديقي حين قلت إنه مدعو لحضور لقاءين عاجلين مع مدير عام تلفزيون الشارقة ومدير عام تلفزيون قطر الذين حضرا إلى القاهرة للتحضير لأعمال مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون الذي كان سيُعقد بالفعل بعد شهرين، وكانت تلك المعلومة الصحيحة أساسية في حيك الخطة.

لم أكن أعرف اسم المديرين الفعليين، لكنه لم يكن يعرفهما أيضاً، ولذلك كان من السهل أن أستدعي اسم الفنان السوداني تاج الدين محمود الشهير بتجتوج والذي عمل لسنوات طويلة في تلفزيون الشارقة وقدم فيها برامج أطفال ناجحة، وكنت قد تعرفت عليه خلال عملي في محطة ال إم بي سي عن طريق الصديقة نشوة الرويني مديرة مكتب

القاهرة والتي عملت لفترة نائباً لها، واستدعيت أيضاً اسم الفنان القطري الكبير غانم السليطي الذي سعدت بالتعرف عليه خلال سفري إلى سوريا قبلها بعامين لإنتاج برنامج قدّمه الفنان السوري باسم ياخور.

كان عليّ أن أغالب الضحك حين قال المنتج النصاب إنه في غاية السعادة لأنه سيلتقي بالمديرين العامين تجتوج وغانم، وأنه سأل عنهما أحد أصدقائه العليمين ببواطن الأمور الفضائية وسمع عنهما سمعاً خيراً، وأنه لا ينوي فقط عرض برنامجنا عليهما، بل وسيعرض عليهما الاشتراك في إنتاج أعمال جديدة، فطلبت منه أن يضع في بطنه بطيخة صيفي، لكني رجوته ألا يبادر بالطلب، بل يترك ذلك لي، وأنه يجب أن يعزز نفسه في التعامل معهما لكي يرفع سعر البيعة، فشكرني على الملاحظة المخلصة، وسألني عن المكان الذي سيتم فيه اللقاء المرتقب معهما.

كان تحديد ذلك المكان أصعب جزء في الخطة المرتجلة، وكنت محتاراً بين عمارة في الدقي مواجهة لفندق شيراتون يقع فيها مكتب صحيفة (الاتحاد) الإماراتية التي عملت فيها مراسلاً صحفياً لبعض الوقت، وعمارة في شارع أحمد عرابي بالمهندسين يقع فيها مكتب الشركة العربية للإنتاج والتي كنت قد وقّعت معها في ذلك الوقت عقد إنتاج فيلمي الثاني (صايح بحر)، ولم يكن لدي اختيارات أكثر، لأنني لم أكن ضليعاً في معرفة عمارات القاهرة الفاخرة التي يصعب دخولها إلا بإذن من الأمن الرابض في مدخلها.

استبعدت عمارة الدقي لأن مدخلها كان أقل فخامة
وأفراد أمنها أكثر رخامة من زحام المدخل، بينما كنت
أستظرف معاملة أحد أفراد الأمن العاملين في مدخل عمارة
المهندسين، فقلت للمنتج النصاب إن الموعد سيتم في
العمارة التي يقع فيها المقر الجديد للمكتب الإقليمي لاتحاد
إذاعات وتلفزيونات الدول العربية، والذي يقع في الشقة
المقابلة لمكتب الشركة العربية للإنتاج السينمائي، مراهناً على
أنه بفعل الطمع لن يكلف نفسه عناء التثبت من المعلومة.

قلت للمنتج إننا سنلتقي أسفل العمارة وأنني لن أتحرك
خطوة نحوها إلا بعد أن أحصل منه على شيك بمستحقاتي
عن البرنامج، وحين زُمِرَق وقال إن هذه طريقة لا تصلح
للتعامل بين ناس يفتحون مع بعضهم سكة بيزنس، قلت إنه
يجب أن يقول هذا الكلام لنفسه، وإنني لو لم أكن أثق فيه
لطلبت الحصول على المبلغ عدأً ونقداً قبل أن أخطو خطوة
في المشروع، فارتاح بعض الشيء لمنطقي ووعدني بتسليم
الشيك قبل الصعود إلى العمارة التي لم أكن أعرف حتى تلك
اللحظة ما سأفعله بداخلها.

كنت أشك أن المنتج النصاب قد يكتب لي شيكاً بدون
رصيد، لكنني كنت أحتاج إلى أي ورقة تعبت حقي لأعوض
خطئي الفادح بالعمل دون توقيع عقد، وظننت أنني قد
أستفيد من التعديلات القانونية التي استحدثت وقتها
وغلّظت عقوبة كتابة شيكات دون رصيد، لأجبره على دفع
حقي ولو بعد مناهدة، وكان ظني في محله.

حين ذهبت إلى العمارة في اليوم السابق على تنفيذ الخطة لأعابن مسرح العمليات، فوجئت أن فرد الأمن الودود لم يعد يعمل في المكان، فاتصلت بالصديق عماد مراد المنتج الفني للشركة العربية وقلت إنني أرغب في المرور عليه لأعرفه على منتج جديد يرغب في أن يعرض على الشركة سيناريو كان قد اشتراه مني، ليفاجئني عماد بأنه ليس موجوداً في مكتبه لأنه في إجازة لمدة أسبوع.

قررت ألا أنتظر وأن أرتجل أياً كانت النتائج، وفي اليوم التالي التقيت بالمنتج النصاب أسفل العمارة. كان حريصاً على أن يأتي إلى الموعد بسائقه لكيلا يضيع وقتاً في البحث عن ركبة، وقبل أن ينزل من سيارته لنصعد سوياً، طلبت منه الحصول على الشيك الذي أصررت على أن يكتبه أمامي لتدقيق البيانات، وبعد أن وضعت الشيك في جيبتي قلت له إنني أخبرت المديرين العامين أنني سأجلس معهما قبل وصوله لكي أحدثهما عنه وعن شركته باستفاضة، وقلت إن ذلك سيكون مهماً للتمهيد لعرضه بإنتاج أعمال جديدة يرحبون بالتعاون معه فيها، وأن وصوله معي سيقبل من مظهر الوسيط المحايد الذي أتمتع به، ولذلك يستحسن أن يلحق بي بعد نصف ساعة بالضبط من صعودي إلى المكتب.

تغلب طمعه على شكه، لكنه قال إنه سيبقى منتظراً أمام العمارة حتى يأتي موعد صعوده، فلم أبدأ أي تأثر، وشجعتة على ذلك ودخلت العمارة، ودون سابق تفكير أو أدنى تردد، مددت يدي بالسلام على فرد الأمن المناوب وأنا أضحك له

كأننا أصدقاء قدامى، ولا أدري كيف ولماذا قررت دون سابق معرفة أن أحكي له باختصار ما أرغب في فعله مع المنتج النصاب، وأطلب منه مساعدتي في ذلك.

لم يكن اسم عماد مراد هو الذي أقنع فرد الأمن بمساعدتي، بل اسم فيلمي الأول (حرامية في كي جي تو) الذي اتضح أنه أحبه وشاهده مع خطيبته مرتين، ولذلك رفض عرضي بالحصول على إكرامية صغيرة، محذراً من تكرار العرض الذي سيقبل من ثوابه لأنه سيساهم في استعادة حق ضائع، قائلاً إن أصعب ما في الموضوع سيكون قدرته على كتمان الضحك حين يأتي دور المنتج النصاب في الصعود.

ظل المنتج يراقبني بنظرات متشككة وأنا أتضحك مع فرد الأمن، ثم وأنا أدخل إلى المصعد، ولا أدري لماذا ضغطت رقم الدور الذي تقع فيه الشركة العربية بدلاً من أي دور آخر، وحين وصلت إليه سارعت بالنزول على السلالم لكيلا يراني أحد من أعرفهم فيها فيدعوني للدخول، وجلست على السلم إلى جوار مقر بنك مغلق، لأقضي وقت الانتظار في "لعب الدودة" على هاتفي المحمول، لا استمتعاً بها، ولكن لطرد مشاعر القلق من أن يستعجل المنتج الصعود، أو أن يخذلني موظف الأمن خطأً أو شراً.

لم أفكر في الجري والتفليق فور الحصول على الشيك، ليس فقط لأنني كنت خائفاً من السائق مفتول العضلات الذي يمكن أن يسترد الشيك مني ويمزقه، بل لأنني كنت بحاجة إلى مشاعر الرضا والابتهاج التي ظلت تغمرني لأيام

وأنا أتخيل المنتج النصاب وهو يخرج من المصعد متلهفاً على المكسب وباحثاً دون جدوى في طوابق العمارة عن مقر المكتب الإقليمي لاتحاد إذاعات وتلفزيونات الدول العربية، قبل أن يعود إلى فرد الأمن فيجده غارقاً في الضحك.

تضاعفت مشاعر البهجة وزادت حين بدأت تصلني من المنتج اتصالات متتالية ثم رسائل مليئة بالشتائم فور أن فتحت هاتفي المحمول الذي أغلقته فور خروجي من العمارة بعد أن تأكدت من صعود المنتج النصاب، ليصبح طعم استرداد مستحقاتي أشهى وألذ، وتكون تلك المرة الأولى والأخيرة التي أعمل فيها مع أحد دون توقيع عقد أو اتفاق يضمن كل حقوقي، مقاوماً كل حجة أو عذر باستخدام التعبير الساخر الذي سمعته منسوباً إلى الفنان الكبير فريد شوقي، وأصبح من مستلزمات عملي ككاتب سيناريو: "معلش نتفق ونمضي الأول، عشان ربنا عرفوه بالعقد".

في صحة المجاز

خناقتنا الأولى كانت عن المجاز، وهي دي خناقة تنسي؟

كنا في ليلة شتاء نيويورك، يعلو صخبنا في كافيه وسط مانهاتن الذي تعودنا على اللقاء فيه حين كنت لا أزال حديث عهد بالإقامة في "البيج آبل". كانت صداقتنا في بداياتها، لم تكن وقتها تناديني بـ "يا معدن" وأناديك بـ "يا أسطورة"، ولم نكن قد تعلمنا أن الأمور بشكل عام لا تستحق أن نأخذها على صدورنا أكثر من اللازم، لأن "حسم الجدل" حولها لن يتحقق في حياتنا. أعترف أن ما قلته لك كان خاطئاً وقتها، وكان لديك حق في رفضك القاطع له، لكنك يا أخي لم تترك لي مخرجاً للتراجع، بل والصراحة يعني زودتها شويتين بعد أن قلت إن غضبك مبالغ فيه لأن ما قلته كان مجرد مجاز، فرديت بغضب وقلت: "يا أخي كسم المجاز"، وانفعالك أضحكني وجعلني أهدأ قليلاً لأقول لك إنني لا أستطيع أن أتبنى موقفك "لأن أكل عيشي معتمد على المجاز".

لم يستمر ترددنا بعدها على الكافيه الذي أصبحنا نسميه (كافيه المجاز)، لأن نظرات زبائنه الغاضبة من أصواتنا العالية أصبحت مزعجة خصوصاً بعد أن وقعت أكثر من حادثة إرهابية لبشت الجو العام في البلاد، ولذلك اخترنا عبور النهر الشرقي إلى المقهى اليوناني في حي كوينز الذي احتضن سهراتنا لسنوات طويلة. لعلك تذكر أنني حين رشحته لكم شبهته بمقاهي اسكندرية القديمة والمنقرضة،

ليس فقط لأنه كان يتيح لنا الجلوس عليه حتى مطلع الفجر نلعب الذمّة ونأكل ونحكي ونتناقش ونتخاقل، ونؤجل الخناق أحياناً لكي نحتفي بضيوف برنامج (عصير الكتب) الذي كنت أصوره في الاستديو المجاور للمقهى، ونتسلى من حين لآخر بإيجاد أوجه الشبه بين بعض رواد المقهى اليونانيين وممثلين أو كتاب من أبناء جلدتنا، ونحرص على تصوير بعضهم لأن أحداً لن يصدقنا لو قلنا له إننا كنا نجلس إلى جوار الفنان مظهر أبو النجا أو المفكر أنور عبد الملك أو الدكتور عاطف صدقي أو تلك الشخصية التي لعبها نور الشريف في بداية فيلم (الظالم والمظلوم) والتي انبعثت من جديد في جسد بائع متجول يسرح بالولاعات والشرابات وزجاجات العطور المقلدة.

يؤسفني أن أبلغك أنهم أغلقوا مقهانا الحبيب قبل شهرين، بعد أن فشل في مقاومة طوفان الـ Gentrification المدعو زوراً بالتطوير العقاري الذي داهم المنطقة الجميلة والمتداوية التي عاش المقهى فيها وعشنا فيه أجمل سنوات الغربة. تعرف طبعاً أنني لا أحب أن أستخدم كلمة (المنفى)، لأن سيرتها "تجيب الفقر"، أو لأنني أفضل أن أقاوح فأصور لنفسي أن سفري كان اختيارياً، وكان يمكن لي بدلا من لقائك في نيويورك، أن أواصل لقائك في قهوة الكراسي البيضاء بشارع القصر العيني التي التقينا عليها أول مرة. رأيتني ليلتها وأنا مشتبك في معركة دمنة حامية الوطيس والبذاءات انتهت طبعاً بانتصاري الأكيد والمنطقي، ولم أقل لك يومها

إنني كنت على مشارف سفر أدرك أنه سيطول، وأخشى من تحمل آثاره، لأنني أؤمن مثل المتنبي أن "شر البلاد بلاد لا صديق بها"، لكن الله أكرمني بك وبأصدقاء أجمل وأجدع من الذين ضيعوني قبل أن أسافر، لأن مواقف جعلت صداقتي عبئاً عليهم وخطراً على مصالحهم.

خبر حزين آخر، هل تذكر السينما الصغيرة التي تقع خلف (لينكولن سنتر) والتي كنا نحب التردد على قاعاتها؟ تلك التي حضرنا فيها أول عرض لفيلم (بيرد مان) وفور أن رأينا وجه مايكل كيتون على الشاشة وقفنا هاتفاً للنجم العائد بعد طول تعثر: "وحشتنا يا إنسان"، وحين حضرنا بعدها фильماً تافهاً يحاول تمجيد بطولات الجيش الأمريكي في العراق وقفنا في طلعة من طلعاتك المبهجة وهتفت قائلاً: "لن ننسى هيروشيما". مع الأسف أغلقوا تلك السينما الحبيبة بعد أيام كوفيد اللعينة لأن الجمهور لم يعد إليها بكثافة فلم تعد تكلفة تشغيلها مجدية، لتلحق بأكثر من سينما صغيرة تعرضت للإغلاق بعد أن فشلت في مقاومة زحف السينمات فخمة الكراسي غالية التذكرة عالية التكييف.

بجملة النكد، خذ عندك كمان: مطعم الستات البوسنيات الثلاث القريب من المقهى اليوناني أقفلوه هو راخر، ظننت أنهم سيعيدون افتتاحه بعد تلاشي كوفيد، لكنهم باعوه وافتتحوا مكانه مطعماً تعيساً للفراخ المقلية بزيت المواتير، لثحرم من بهجة أكله البيتي وسعره المهاود، حتى المطعم المصري الذي فرحنا به لأننا بعد طول انتظار وجدنا لديه

ملوخية وكشري وحواوشي وطعمية بجد وممبار بحق وحقيق، تغيرت إدارته مؤخراً فرفدت الطباخ الشاطر واستبدلته بآخر كتيان أكله يقرف الكلب الحزين.

لكن نيويورك لا زالت برغم كل هذه الخسائر مليئة بالمفاجآت المبهجة التي لا تخلو منها زخانيقها التي تحتاج إلى عمر كامل لاكتشافها، وحين تأتي بإذن الله في زيارتك التالية التي طال انتظارها ستكون قد وجدنا ملاذاً جديداً للعب الدمنة، نستطيع فيه أن نسب لبعض وللمجاز ساعة اللزوم، وتستطيع فيه أن تمارس جنونك بعد لحظات الفوز النادرة، فتقوم بعمل طيارة أبو تريكة بين الطرابيزات، أو تصعد على الكرسي غاضباً لأنني أكلت ورقة النتيجة التي توثق فوزك الذي جاء بصدفة لن تتكرر وأنت تهتف "أخيه أخوه قال إيه عايزين ياخدوه".

قبل أسابيع التقيت صديقاً لك استغرب أننا نعرف بعض منذ سنوات "لأن شخصياتنا مش راكبة مع بعض"، وكأن الصداقة تقتضي تماثل الشخصيات وتطابقها الممل، وحين سأل عن ظروف تعارفنا قال له صديقنا الشرير متخابئاً إننا تعارفنا في (مساكن النهضة)، مشيراً إلى خناقتنا الثانية التي حضرتها تلك الباحثة الأمريكية الشابة والتي كانت تسألنا عن أبرز مشاكل ثورة يناير، فجئت أنت فجأة بسيرة اعتصام جرى في مساكن النهضة قام به بعض المحرومين من حقهم في السكن وقلت إن تخلي الثوار عن دعم هؤلاء ومساندتهم كان ينبئ بمصير الثورة، فاختلفت معك بشدة ولم يمض وقت قصير

حتى تحول الاختلاف الطبيعي إلى خناقة سرعان ما لقيها
ولاد الحلال، ويومها قلت للباحثة مازحاً ومحاولاً تخفيف
الأجواء إن خناقتنا حامية الوطيس ربما تكون قد ساعدتها
في العثور على الإجابة.

ما بقي من هذه الخناقة كان أهم منها بكثير، بالطبع لا زلت
أختلف معك وأعتقد أن التضامن مع اعتصام الذين وضعوا
يدهم على مساكن النهضة لم يكن مهماً، ليس لأنني ضد الفعل
في حد ذاته، بل لأنني لم أكن قد سمعت في أيام الميدان
العثمانية عشر عن ذلك الاعتصام ولا عن مساكن النهضة أصلاً،
لا أنا ولا مئات الآلاف الذين نزلوا إلى التحرير، وإلا لكنا رأينا
لافتات تؤيده أو تأتي بسيرته على الأقل، لكنني أتفهم الآن
مقصدك الذي غيبتة حموة النقاش، وهو أن تجذير الثورة كان
يجب أن يتم من خلال الالتحام بمطالب بسيطة كان البعض
يستسهل إطلاق تسمية "المطالب الفتوية" عليها، بينما هي
تتقاطع مع أهداف الثورة المطالبة بالعيش والكرامة والعدالة
الاجتماعية.

وبغض النظر عما إذا كان ذلك الالتحام ممكناً أم لا في "تلك
اللحظات العصيبة التي مرت بها البلاد" وفي ظل معاناتنا
جميعاً من آثار محاصرة العمل السياسي الحقيقي وتجريف
العقل الجمعي والتي سادت لعقود قبل الثورة، فما أنا مشغول
به الآن أكثر هو الفكرة التي قلتها لك في جلسات أقل صخباً،
وهي أن علينا أن نتوقف عن إطلاق أحكام عامة تخص
الثورة، ليتحدث كل منا فقط عن "مكانه في الثورة"

وما عاشه فيه، وهو ما حاولت أن أقوم به طيلة السنوات الماضية، لكنني في كل مرة كنت أجد نفسي أضعف من مواجهة "الفتوحة" التي سأفتحها على نفسي حين أعاد زيارة تلك الأيام بعقل هادئ وروح نقدية بعيدا عن الشحفة والانغماس العاطفي المؤذي للروح والمزغل للبصائر.

ربما كان ما أحججه من أجل إنجاز هذا المشروع إلى أن أتعامل معه ببساطة، فأتخلى عن فكرة الاحتشاد والتفرغ الكامل لإنجازه، لأنه لن يستطيع أحد مهما استعفى نفسه أن يكتب تاريخاً شاملاً للثورة أو حتى لمكانه من الثورة، وأقصى ما يمكن لي فعله - وأقساه - أن أترك ما سجلته وكتبته وشهدت عليه متخلياً عن فكرة صياغته في إطار رؤية شاملة تستخلص العبر والدروس المستفادة وتفهم ما جرى، يكفي أن أتعامل مع ما شفته وشهدت عليه بوصفه مادة خام على كل منا أن يتيحها. لا، اطمئن، سأكتفي بمسألة الإتاحة فقط، ولن أجيب سيرة الأجيال القادمة التي نفترض طيلة الوقت أنها ستكون مهتمة بتجاربنا، مع أننا ندرك ضالة عدد من اهتموا من بيننا بالتعرف على تجارب الأجيال السابقة فضلا عن دراستها والتعلم منها.

أعلم أن هذا الكلام سيزعجك كرجل "أكل عيشه معتمد على التاريخ". أحب جداً حين لا تتحدث عن نفسك بوصفك مشروع مؤرخ أو أستاذ جامعي في التاريخ، بل تصف نفسك بأنك مجرد "مدرس تاريخ"، ليس فقط لأن الإقيه حلو، بل لأنه لم يؤثر في تكويني ووجداني أحد مثلما فعل مدرس

تاريخ عظيم درسي في المرحلة الإعدادية، وكانت الكتب التي دلتني على قراءتها سببا في قلب حياتي وطريقة تفكيري رأساً على عقب، ولذلك حين أنهى مشروع (مكاني من العورة) ستكون أنت ومدرسي القديم على رأس من سأهدي عملي إليهم، دون أن أشرط عليك الاعتذار عن تلبخك القديم في المجاز دون مراعاة لأن أكل عيشي منه.

في الفترة الأخيرة قمت بعمل حلقات على قناتي في اليوتيوب ألقب فيها بشكل عشوائي في أرشيفي الذي يضم خليطاً متنافراً من الأوراق التي جمعتها خلال الثلاثين عاماً التي مضت على أمل أن تلهمني شيئاً أو تذكرني بشيء أو تساعدني على نسيان أشياء، وخلال جولة تقيب في الأرشيف وجدت قصاصات كنت أكتب فيها رؤوس أقلام تضم كتباً يجب أن أقرأها أو أفلاماً أحب أن أشاهدها أو أفكاراً تستحق التوقف عندها وتأملها، أغلب هذه القصاصات كانت أوراقاً منتزعة من كتب كنت أحملها معي، فأكتب على صفحاتها الفارغة لكي أقوم بتفريغها فيما بعد، ثم أتكاسل وأكتفي بانتزاع الصفحات وتجميعها، وقد ذكرتني هذه القصاصات بالدفاتر الصغيرة التي تحملها معك طول الوقت، والتي كنت تقوم بإخراجها من حقيبتك كلما تحدثنا لتسجل ترشيحات كتب وأفلام وملاحظات كنت تقول إنها ستكون مهمة لحوار طويل يجب أن نقوم به يوماً ما، وكان بعض أصدقائنا يسخر من قيامك بتجميع هذه الملاحظات التي لن تجد الوقت للعودة إليها ولذلك ستجري وراءك يوم القيامة،

ولعل ما ذكرته الآن يطمئنك على مصير تلك الملاحظات ويشجعك على الاستمرار في كتابة المزيد منها.

مع الأسف، غادرت نيويورك عائداً إلى أرض الوطن دون أن نقوم بالحوار، ولم تعد ظروف الحياة الضاغطة تسمح بما هو أكثر من أن نطمئن على بعض، ونتبادل الميمز والفيديوهات العبثية والنمائم وأخبار الوفيات والمستشفيات وتوصية العزاب مثلك باللاحق بقطار الزواج والخلفة، ولا أخفيك أنني يقلقني اختفاؤك الذي يطول عن جروب شاتنا الذي يلم شتاتنا، والذي نحاول أن يكون بديلاً عن القهوة التي أصبحنا نفضل قعدة البيوت عليها، وما أسمعته عن أخبارك يزيد قلقي أحياناً ويطمئني عليك أحياناً، لكنني أوقن أنك ستظل تحاول وتعافر مهما كانت الظروف، وأنت ستبقى مخلصاً لرغبتك العارمة في المعرفة والسؤال وحرصك على تحدي الفكرة السائدة، وأنت لن تفقد أبداً أجمل ما فيك، لأنني أتحدث عن قلبك الطيب وخفة ظلك وجئوناتك التي كنت أستحمل لأجلها عدم احترامك للمواعيد، بل سأحدث عن إيمانك بضرورة أن يكون الإنسان جزءاً من معنى أكبر يتجاوز الحلول الفردية التي يراها الكثيرون سبيل الخلاص الوحيد.

لا أدري متى سنلتقي، لكنني متأكد أننا إن أراد ربنا وحصل، سنضرب يومها أكلة حلوة في صحة المجاز والدمنة، ثم ندخل أقرب سينما وفور أن يبدأ الفيلم العبيط سننهض ونهتف: "لن ننسى هيروشيما"، ومن يدري ربما جمعتنا الصدفة في شارع نيويورك بالمختفي دانيال دي لويس

لنہتف قائلین له: "وحشتنا يا انسان".

ساعة ونصف مع رئيس مصر القادم بعون الله!

سمعت عن ذلك المهدي "غير المنتظر" في آخر مكان يخطر على بالي أو حتى باله.

حين كانت سيرته تتردد على ألسنة الكثيرين في مصر خلال عام 2012 وما تلاه، لم أكن فائقاً له وقتها لا أنا ولا كل من أعرفهم، ولذلك استغربت حين سمعت عنه لأول مرة في نيويورك، ذات ليلة من ليالي شتاء نوفمبر عام 2018، بعد أن ركبت مع سائق "أوبر" مصري عائداً من مباراة دمنة ضارية في مقهى يوناني بحي أستوريا، وانتشائي بالنصر المبين على أصدقائي جعلني أتسامح مع رغبة السائق في الرغي الذي بدأه فور أن عرف أنني من مصر، حين قال لي دون مقدمات: "عاجبك اللي بيحصل في مصر يا باشمهندس".

لم أعد أذكر الآن ما الذي كان يحصل في مصر وقتها ليفتح به الكلام معي أو في بمعنى أصح، لأن ما بقي من حديثه الطويل هو الجزء الذي استأذنته في تسجيله بعد دقائق من بدء تلك المكالمة، وبالتحديد بعد أن قال إن لديه معلومات مؤكدة بأن عبد الفتاح السيسي لن يكمل فترته الرئاسية الثانية التي كان قد بدأها قبل أشهر، لأن هناك رئيساً قادمًا سيحكم مصر عما قريب ويمثلها عدلاً بعد أن ثلثت جوراً، وأن هذا الرئيس الذي لا يتوقعه أحد أقرب إلي مما أتصور، وحين ظننته يهذي بأمنية تبدد وحشة شوارع نيويورك الخاوية بعد الثانية ليلاً، قال بجدية إن هذا ليس كلامه كبشر فان، بل

وعد قاطع أجراه الله على لسان "سيدنا المهدي كمال أحمد عبد الله خلاف" القاطن في حي الزيتون بالقاهرة.

لم يظهر من كلامه أنه تعرف علي من خلال ظهوري على شاشات التلفزيون أو على الإنترنت، لكن نبرات صوته الجادة وطبيعة ما حكاه جعلتني أتصور أنه يقوم باشتغاله عابدة قرر بها أن يتسلى على قفاي، لذلك لم أعلق على ما قاله، بل غيرت الموضوع بعيداً عن السياسة، وأخذت أسأله عن تفاصيل حياته في المهجر، لأعرف أنه يقيم في نيويورك منذ عام 1988، وأنه عمل لمدة 26 سنة سائق تاكسي، ثم بدأ منذ ثلاث سنين العمل على (أوبر) الذي أنجده من معاناته مع شركات التاكسي الأصفر.

هو قاهري من حي العجوزة، تعرف في نيويورك على أسرة سكندرية سبقتة إلى الهجرة، وتزوج من إحدى بناتها في التسعينات ولديه منها ثلاثة أولاد وبنت جميعهم ولدوا في أمريكا ولا تربطهم بمصر علاقة وثيقة، لأن ظروفه المادية لم تسمح له بالعودة إلى زيارتها كثيراً، لكنه حرص هو وزوجته على تعليمهم القرآن الكريم واللغة العربية، لكنه في الوقت نفسه لم يكن يتابع الكثير عما يجري في مصر من أحداث سياسية أو تطورات اجتماعية، اللهم إلا ما يقوله له أقاربه حين يطلبون زيادة ما يرسله إليهم من معونات مالية، ثم قطع استرسال حديثه عن حياته ليعيدنا إلى ما بدأ به الحديث، حين قال إن علاقته بمصر تغيرت فجأة في السنوات الأخيرة، فأصبح يفكر في العودة إليها هو وأسرته

ليكون إلى جوار مهديه المنتظر، الذي لم تعد حياته بعد معرفته كما كانت.

بعد زيارة هاتفية خاطفة إلى شفيح الحيارى جوجل والبحث عن اسم المهدي الذي ذكره في مطلع حديثه، بدا لي أن الموضوع أكبر مما تصورت، فحذفت اختيار الاشتغالة، وبدأت أتعامل مع ما يقوله باهتمام، ليمتد حوارنا أسفل منزلي إلى ساعة ونصف، بعد أن ألغى مشواراً آخر جاءه وأغلق التطبيق الذي يأكل عليه عيشاً، لأنه قرر أن يرشد واحداً من أبناء بلاده جمعته به الصدفة إلى سكة المهدي المنتظر مؤكداً أنني سأدعو له بكل خير إذا مشيت في هذه السكة التي لا يهدي الله إليها إلا من أحب واختار.

رجاني سواق ما بعد نص الليل ألا أظن به التخريف أو اللسعان، وأن أصدق أنه رأى المهدي المنتظر في المنام قبل أن يراه على الإنترنت بفترة طويلة، وأن هذا لم يحدث له فقط، بل حدث لآخرين حلموا فجأة بورقة بيضاء ينبعث منها النور ويظهر عليها وجه شخص لا يعرفونه، ثم حلموا في ليالي تالية بقمر ساطع مرسوم عليه نفس الوجه الذي رأوه في الورقة البيضاء، ولم يكن صاحبنا يتوقع أنه سيلتقي بصاحب ذلك الوجه الذي رآه في أحلامه خلال تقلبيه العشوائي في الإنترنت، ليكتشف أن بطل أحلامه ليس شخصاً مجهولاً أو من صنع خياله، بل هو رجل معروف له فيديوهات منتشرة على اليوتيوب يحذر فيها الناس بكل ما أوتي من قوة من تجاهل علامات الساعة وكوارث آخر الزمان.

بعد ليالٍ من الدهشة والتفكير في سر ذلك الرجل الغامض الذي ظهر له من حيث لا يحتسب، قرر محدثي أن يتبع قلبه ويتصل بصاحب الفيديوهات الذي وجد رقم هاتفه على صفحة يديرها مريدون متحمسون له في الفيس بوك، وحين وجد أن الاتصال به أسهل مما تخيل اعتبر ذلك بشارة جديدة تخبره أن ما جرى له لم يكن صدفة بل ترتيباً إلهياً يجب أن يسلم نفسه له حتى النهاية، لتبدأ سلسلة محادثات هاتفية طويلة بينهما، جعلته ينبهر بشيخه الافتراضي الذي كانت كل مكالمة معه تثبت له أنه رجل أرسلته له العناية الإلهية لتبعث الروح في حياته الرتيبة والخالية من المعنى، ولذلك قرر النزول إلى مصر لزيارة نجم أحلامه في عام 2014 مصطحباً أسرته التي فوجئت بحماسة الشديد لزيارة مصر، وبعكس ما كان يخشى، لم يخذله مهديه المنتظر، بل كان أكثر إبهاراً على الحقيقة منه على الويب، حيث وجده أكثر وداً وأغزر علماً وألطف معشراً، ولذلك لم يبال بالتكاليف المادية التي أصبح يكفها مع كل سفيرة إلى مصر، لكنه قرر تخفيضها بالسفر منفرداً دون أسرته لتكرار زيارة بيت المهدي القاطن في حي الزيتون، والذي لم يعد فقط واحداً من أبرز مريديه والمؤمنين به، بل وأصبح واحداً من أبرز الموعودين ببشاراته كما حكى لي في حوارنا الذي ستفهم حين تقرأ نصه لماذا حرصت على تسجيله لكيلا تفوتني منه شاردة أو واردة:

- كان انطباعك عن المهدي إيه بعد ما دخلت بيته لأول مرة؟

راجل بسيط جداً، أبسط من البساطة ويمكن دي مشكلته

اللي بتخلي ناس كثير مش مصدقين فيه، الناس في بلدنا تحب المظاهر، وده بيخليهم يفوتوا خير كثير ويقعوا في شر كثير.

- لما رحت، لقيت ناس كثير بيزوروه، مريدين يعني؟

مع الأسف لا، يعني لما رحت له أول مرة في 2014 كان لوحده، ما حسيتش إن في ناس حواليه إلا يمكن في 2017، لكن برضه كان عددهم قليل جدا على اللي يستاهله، أقل بكثير من الناس اللي بتتلم حوالين ناس عافاك الله مالهمش لازمة.

- بس بالنسبة لدخلك والتزاماتك العائلية دي حاجة مكلفة إنك تنزل عشان تزوره مخصوص كذا مرة في السنة بدل ما تكلمه بس على الإنترنت؟

أكيد، بس لي الشرف إنني باعمل ده. غير إن الراحة النفسية اللي بارجع بيها بعد ما باشوفه بتخليني في حنة تانية خالص. شعور ما يتحسبش بالمال أبدا.

- طيب، كنت بتبرر لأسرتك إزاي إنك بعد سنين من البعد عن مصر وعدم زيارتها فجأة قررت تزورها كذا مرة، هل صارحتهم وحكيت لهم إنك بتنزل عشان تكون في حضرة المهدي المنتظر؟

لا، أصل ولادي صغيرين فمش هيستوعبوا.

- بس انت قلت لي إن ابنك الكبير عنده 17 سنة فيعني

ممکن يستوعب؟

لا، أصل يعني هم مولودين هنا، انت فاهم بقى الفرق في العقلیات.

- لكن المدام اسکندرانیة ومولودة في مصر فأکید هتستوعب؟

لا، المدام طبعا قلت لها.

- وكان رد فعلها إيه؟

قالت لي كل حاجة بإيد ربنا، وفي حاجات كثيرة بتحصل في الدنيا مش بنقدر نستوعبها بعقولنا.

- بس معلش ما تزعلش مني، ده كلام عايم شوية، يعني هي مصدقة ولا رافضة ولا بتسايسك وخلاص؟ أنا مش باوَقع بينكو ولا حاجة، أنا بس باحاول أفهم موقفك وموقفها؟

(يضحك) بص بصراحة هي المدام مش مصدقة إن الأستاذ كمال هو المهدي، أصل الناس عايزين المهدي يبقى وشه بينور، وبيتكلم سبعين لغة وصغير في السن وقوي جسديا وأوهام كده في خيالهم من اللي بيسمعوه في الحكايات والخطب، لكن يعني لو حضرتك تقرا قصص الأنبياء هتلاحظ إن جميع الأنبياء ناس بسطاء جدا، بما فيهم سيدنا موسى عليه السلام، كان كليم الله، لكنه كان بيتهته في الكلام.

- فانت عايز تقول إن الـ؟

(يقاطعني) لا أستغفر الله، أنا مش باقول إنه نبي، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين، أنا باقول إنه المهدي المنتظر، أنا بس كنت باضرب لك مثل على إن المنحة اللي بتيجي من الله مش شرط يكون للي بتنزل عليه قدرات خاصة.

- طيب، بعد ما آمنت بانه المهدي المنتظر، إيه التغيير اللي حصل في حياتك غير موضوع الراحة النفسية؟

حصل تطور خطير، لما قال لي في زيارة سنة 2017 إن عنده بشارة لي وإني موعود بإني هاحكم مصر في وقت قريب.

- إيه؟ تحكم مصر إزاي؟

أحكمها، يعني أكون الرئيس، رئيس الجمهورية.

- هو بيتمنى لك يعني تكون الرئيس ولا دي بشارة؟

لا دي رؤية إلهية، بص هو في حاجات ممكن لو قلتها لك مش هتفهمها، بس خليني أقول لك إن الكلام ده كان جزء من رؤية مباركة، وكان فيها عبد الفتاح السيسي كمان، رؤية من عند الله.

- يعني إيه كان فيها السيسي، كان بيعمل إيه؟

بص، أصل السيسي ده أنا باقول عليه ساعات إنه صهيوني، من أفعاله يعني، لكن بالأمانة أنا مش عارف أحد موقفي منه، بس شايف إن الحاجات الوحشة اللي بيعملها في مصر

كثير أوي - لاحظ أن هذا الحوار كان في 2018.

- معلش خلينا بس عشان الكلام ما يتوهش، هو السيسي كان بيعمل إيه في الرؤية اللي من عند الله اللي قال لك عليها المهدي؟

لا هو ما قالش عليها، أنا شفتها وقلت لها فهو فسرنا لي.

- طيب، السيسي كان بيعمل إيه فيها بالضبط؟

مش مهم.

- لا ما هو ما ينفعش تقول لي الكلام ده من غير تفاصيل، لو عايزني أصدقك، على الأقل لكي يطمئن قلبي؟

شوف، هو الرؤية كان فيها ناس بيزورونا في البيت، منهم واحدة اسمها خلود، واسم خلود ده حلو في الرؤى، وكنت قاعد في البيت بامسك قميص وباكويه بإيديا، وأنا باقول للضيوف: الناس فاكريني إن أنا ما باعملش حاجة بإيدي، على أساس إن أنا كنت شخصية مهمة جوه الرؤيا فأنا باقول لهم إني متواضع ومش مغرور، فخلود وصاحبته شاوروا على مراتي وقالوا: الست دي ربنا كرمها واتجوزت رئيس مصر، دي معلومة كده قالوها جوه الرؤيا، وبعدين السيسي جه في الرؤية، بس مش هاقول لك إزاي، لكن اللي مهم تعرفه إنه كان باين في الرؤيا إن أنا أعلى منه في المقام، وبعد كده لقيته بيكلمني وبيقول لي: خلي بالك أصلهم بيسجلوا لنا، وبعد كده شاور على حنة، فأنا لما بصيت لها شفت ميناء اسكندرية، طبعا في حاجة اسمها ملحمة الإسكندرية من

ضمن علامات آخر الزمان، ودي بقى أكدت لي تفسير الأستاذ
كمال للرؤيا.

- طب والأستاذ كمال أو المهدي، كان في الرؤيا برضه؟
(بدا أنه تضايق من نبرة سؤالي فقطم في الكلام بعض
الشيء وهو ما جعلني أكثر حرصا في إدارة الحوار معه
ليتخلّى عن تحفظه)

بص حضرتك هو المهم في الموضوع مش أنا ولا كمال،
المهم الأحداث، أهم من الأشخاص.

- تمام، إيه بقى الأحداث دي اللي في الرؤيا؟
لأ الأحداث اللي بره الرؤيا هي الأهم، أصل خلي بالك احنا
دلوقتي عايشين تكرار لقصة طالوت المكتوبة في القرآن.
- قصة طالوت وجالوت، مش فاهم إيه علاقتنا بيها؟

هم مش اليهود كانوا عايزين بعد سيدنا موسى يخشوا
الأرض المقدسة اللي هي إيه؟ فلسطين، دلوقتي هي نفس
الأرض، فنفس القصة بتتكرر، وقتها أيام طالوت ما كانش
عندهم حاكم مع إن كان عندهم نبي اسمه صامويل بن
حزقيال، وما كانوش قادرين يتفقوا على حاكم، زي ما احنا
دلوقتي بنتقاتل في كل حنة دلوقتي عشان الحاكم، مين اللي
يحكم؟ هي دي المشكلة، في سوريا في اليمن في السعودية
في مصر، الدم دلوقتي كله عشان مين هيحكم، فهم زمان
كان عندهم مشكلة مين يحكم، واحنا كمان قاعدين نقُتل في

بعض، عشان مش عارفين نحدد المهدي وفي ناس بيقولوا ما فيش مهدي أصلاً، وعشان كده زمان هم راحوا للنبي صامويل بن حزقيال وقالوا له عايزين حاكم، عيّن لنا حاكم، قال لهم إن الله اختار لكم طالوت ملكاً، ده مش كلامي، ده مذكور في القرآن، فهم رفضوا، "قالوا أتئى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه"، استكثروا على طالوت إنه يكون الملك مع الأسف.

- طيب معاهش في اللي احنا عايشينه دلوقتي، مين هيبقى طالوت؟

(رد مبتسماً وكأنه يلفت انتباهي إلى غباء السؤال)

هو طبعاً، كمال خلاف هو طالوت أيامنا.

- بس انت قلت إنك انت هتبقى رئيس مصر طبقاً للرؤية؟

أيوه، كمال خلاف هيحكم الأرض كلها، ده الوعد الإلهي.

- طيب إذا كان الناس مش هتصدق كمال زي ما صدقوش

طالوت زمان، فده معناه إنك مش هتقدر تحكم مصر؟

لا لا لا مش ده الموضوع، مش الموضوع إمتى هابقى رئيس والحاجات دي، انت فهمت الموضوع غلط.

- لا والله أنا بأسأل عشان بافهم، مش معترض، ما تفهمنيش

غلط؟

هي الرئاسة مش هاماني أنا شخصياً والله العظيم، بس هي

هتحصل، مش مشكلة يعني.

- أنت جؤاك مؤمن إنها هتحصل لك؟

الموضوع مالوش دعوة إني أؤمن ولا لأ، هي هتحصل، لإن المعلومة جاية من عند ربنا. ما هو إذا كنت هاتقابل مع سيدنا عيسى ابن مريم، فيعني إيه قصاد ده إني أبقي رئيس مصر.

(انتظرت أن يتبع ما قاله بشجرة خفيفة أو عريضة، ويركن على جنب ليقع على قفاه من الضحك على الاشتغالة التي أضاع وقتي فيها قاصداً تسليتي، لكنه لم يفعل، بل واصل حديثه بجدية شديدة جعلت نفسي توسوس لي أن أشخر له أو حتى أسمع "من المنقي خيار"، لكنني زجرتها عن غيها وواصلت الاستماع بمنتهى الجدية لعلني أجيء بآخر الحكاية.)

- معلش أنا بس عايز أفهم، انت تقصد إنك هتقابل سيدنا عيسى بن مريم في الحقيقة؟

لا طبعاً، هاقابله في الرؤيا، بس الرؤيا حق زي الواقع للي مؤمن بيها، خليني أفكر بكصة طالوت إنه لما اعترضوا عليه إنه يكون ملك، اتقال لهم إن الله زاده بسطة في العلم والجسم، فبرضه ما رضيوش.

- أنا عارف القصة كويس، أنا بس باحاول أفهم علاقتها بزمنا وبالأستاذ كمال وبيك؟

ما هو أنا باحاول أشرح لك الفكرة، موضوع الرؤيا ده لا يمكن حد يقدر يحسبه بالعقل، إنت عارف إن الأستاذ كمال

أول رؤيا حصلت له، كان عنده تقريبا 12 سنة، واتفق له في الرؤيا: "تحت بيتك اللي هيدمر إسرائيل"، وما حدش صدقه ساعتها، وهو نفسه ما كانش فاهم معنى الرؤيا.

- طيب معلش أنا هافهم منك النقطة دي بعدين، أنا بس مهتم أعرف إنت المفروض هتقابل سيدنا عيسى إمتى؟ هل قال لك الأستاذ كمال على الموعد؟ لا، لا ما فيش حد بيعرف مواعيد.

- هو انت حصلت لك قبل كده في حياتك الشخصية رؤيا واثققت، زي ما بيحصل لناس كتير، يعني شفت مثلا إنك هترزق بولد، أو هيجي لك شغل، فبقيت بتصدق في موضوع الرؤيا؟

لا، الحاجات اللي بتتكلم عنها دي حاجات شخصية، إحنا بتتكلم عن حاجات عامة.

- انت بتشوف رؤى عامة بس؟

لا، بس الرؤى القوية جدا هي اللي بتكون عامة.

- هو حضرتك درست إيه؟ اتخرجت من كلية إيه؟

أنا بكالوريوس تجارة، بس الرؤيا دي مالهاش علاقة لا بالدراسة ولا بغيره، دي بتبقى منح من الله، يعني مثلا الأستاذ كمال خلاف الرؤيا اللي جت له وهو صغير، عدت سنين لغاية ما عرف إن تابوت السكينة تحت بيته، هل انت عارف يعني إيه تابوت السكينة؟ ده من أهم علامات نهاية

الزمان.

- لا معلش مش واخد بالي؟

ده التابوت المذكور في القرآن اللي ربنا بيتكلم عنه، "أن يأتاكم التابوت فيه سكينه من ربكم"، ده التابوت اللي المفروض لما يظهر هيبقى آخر الزمان وظهوره معناه نهاية إسرائيل، التابوت ده زي ما شافه الأستاذ كمال في الرؤيا وقال لنا إنه موجود جواه كتلة ذهب على شكل مستطيل ارتفاعه يصل إلى ثلاثة أربعة سنتيمتر وطوله متر تقريبا، ومحطوط فوقيه ما بقي من عصا سيدنا موسى، موجودة على الألواح الذهب وفيه رسالة من المسيح مكتوبة لنصارى هذا الزمان، وفيه ذكر أن نبينا صلى الله عليه وسلم نبي آخر هذا الزمن وفيه كمان الأهم من كل ده الخطة الإلهية الكبرى والمعجزة لتدمير إسرائيل وأعوانها وعلى رأسها أمريكا وفيه كمان اسم المهدي الحقيقي الذي سيدمر أمريكا وإسرائيل، واسم رئيس مصر القادم اللي مصر مش هترتاح ولا هيتحسن حالها إلا لما يحكمها.

- اللي هو انت؟

هو ما قال ليش إن اسمي مكتوب على التابوت صراحة، لكن قال لي إنه شاف رؤيا بتقول إن أنا الموعود بحكم مصر بإذن الله.

- طب وإزاي عرف الأستاذ كمال إن التابوت موجود بالتحديد تحت بيته؟ هل شاف رؤيا بالتابوت ورؤيا ثانية

بالمكان اللي موجود فيه التابوت؟ مش ممكن يكون التابوت ده موجود فعلا بس في حطة تانية؟

لا المرة دي مكان التابوت بقى مؤكد ومش مجرد رؤيا، لإن الحكومة صورت مكان التابوت تحت الأرض بأجهزة حديثة اللي هي بترصد المعادن بالأشعة وبستخدموها في البحث عن الآثار والذهب، وعملت عنه تقرير من 166 ورقة، والموضوع كبير جدا.

- الحكومة بتاعة السيسي؟ هي بذمتك لو عرفت إن في دهب هتسكت؟

لا، الحكومة أيام مبارك اللي عملت كده، أصل هو قال الكلام ده سنة 2006 ويمكن قبل كده بشوية كمان، بس بدأ يقوله في الإعلام بشكل رسمي ابتداء من الوقت اللي بعد انتخابات الرئاسة سنة 2005 اللي كانت آخر انتخابات لحسني مبارك، ولعلمك كمال خلاف قال وقتها إن مبارك مش هيكمل مدته وابنه جمال مش هيشم رئاسة مصر وهيتحبسوا هم الاثنين ومراته سوزان مبارك كمان هتتحبس.

- هي سوزان مبارك ما اتحبستش، بس مش ده المهم، هو قال الكلام ده فين؟ في فيديوهات معلا؟

لا، قالها في الجرايد، انت ما كانش ساعتها منتشر وما كانش أظن في فيديوهات على اليوتيوب أول ما قال الكلام ده، قاله في جرنان اسمه الكرامة لأول مرة وكرره بعد كده كتير، والكلام اللي قال له ثبت، لأنه صادق في كل شيء، ما

هو ربنا مش هيبتت روى لحد أي كلام، ولعلمك ناس كثير كانوا متشككين في كلامه وبعد ما اتشال مبارك وعرفوا إن في ناس في الميدان هتفت "الشعب يريد إخراج التابوت"، بدأوا يصدقوا في الراجل ويتأكدوا من كلامه.

- هو أنا بالأمانة عمري ما سمعت حد بيهتف الهتاف ده، يمكن يكون حد هتف إنه عايز مبارك يخرج من قصره في تابوت، بس يعني ما علينا، كنت عايز أسألك الأستاذ كمال خلاف موقفه إيه من السيسي؟

هو قال كذا مرة إنه هيعدم السيسي، وقال إن السيسي مش هيقدر يقرب لي، شوف السيسي اللي بيفتك بأي حد فعلا مش قادر يقرب له لغاية دلوقتي، مع إن كمال خلاف في كذا فيديو ليه بيقول هاعدم السيسي، أصل هو متغاض من السيسي طبعا لأنه مش عايز يطلع التابوت اللي تحت بيته في الزيتون عشان ينهي معاناة مصر ويخلص العالم من إسرائيل وأمريكا.

- طيب هو ليه الأستاذ كمال ما يطلعش التابوت بنفسه؟

هو ما عندوش الإمكانيات لأنه يعمل ده، المفروض ده دور الحكومة، خلي بالك إنه الحكومة في مارس 2017 لما طلعت التمثال المكسور في المطرية جنب سوق الخميس، قالوا تحت المنطقة دي مدينة الشمس، طبعا الحكومة ما قالتش إن دي المدينة اللي اتولد فيها سيدنا موسى لإن كمال خلاف شاف برضه رؤية إن سيدنا موسى اتولد هنا وإنه

عاش هنا. هو قال للحكومة تعالى خدي البيت أنا مش عايزه أصلا. وراح مجلس الدولة ورفع قضية عشان يجبر الحكومة إنها تهد البيت وتستخرج التابوت وما حصلش حاجة.

- هو جيران الأستاذ كمال عارفين إنه عايز يهد البيت اللي ساكنين فيه؟

آه، ومش موافقين ومش عايزين إن البيت يتهد.

- ما تقدرش تلومهم لأن صعب حد يعزل من بيته عشان رؤيا جت لمحامي أو لأي حد؟

مع إن المفروض إننا كمسلمين نصدق في الرؤيا، يعني هو السيدة صفية أم المؤمنين مش كانت متجوزة واحد يهودي ابن عمها وفي يوم صحيت وقالت لجوزها أنا شفت رؤيا إن القمر وقع في حجري، وما حدش كان ممكن يصدق إنها هتجوز النبي عليه الصلاة والسلام، طبعا القمر في الرؤيا رمز النبوة، القمر بينير ويهدي. وده خلاني شفت رؤيا جميلة للأستاذ كمال ولي بعد ما قابلته أول مرة.

- ممكن تحكيها لي لو ينفع يعني؟

آه طبعا، أنا شفت إنني كنت شغال باعمل حاجة كده ولا بس فانيلة بيضاء ولقيت في دوشة ورايا، بصيت لقيت ناس بيجروا رايعين جايين وفي ضوء في الجو لونه برتقالي، لون السما يعني، والناس بيجروا مخضوضين وأنا بصيت لهم ورجعت بصيت للسما تاني لقيت القمر كبير، فقلت جوه روعي القمر نزل لينا احنا، بعد كده ما بقتش عارف أفرد

إيدي، القمر كان كبير جدا جدا ولازق في الأرض وعامل ضوء
كاننا في عز الظهر، وبعد كده شفت واحد واقف بعيد ولابس
نضارة، مش قادر أحدد هو مين لحد دلوقتي، لكنه كان لابس
جلابية قديمة وهبت عليه عاصفة ترابية ولابس نضارة طبية
ولبس كأنه بدوي، فباقوله هو فين كمال؟ أول ما قلت: فين
كمال؟ قام جه كمال لابس البتاعة بتاعة فلسطين دي كأنها
منديل على رأسه وشكله فيه صحة كده، وابتدينا أنا في
النص وكمال على اليمين والشخص التالت على الشمال واحنا
ماشين وداخلين جوه القمر، ومش مسموح غير لينا احنا
الثلاثة إننا ندخل جوه القمر وناس قليلين ورانا، ودي حقيقة
فعلا، فأنا لما صحيت افكرت رؤيا السيدة صفية وقلت إيه
ده القمر نبي ونزل من السما، يبقى ده المهدي، أنا فهمتها كده.
- هل ممكن يبقى التالت اللي كان معاكم سيدنا عيسى مثلا؟
لا لا لا، التالت ده بني آدم عادي، إحنا الثلاثة بني آدمين
عادين.

- هل عرفت هو مين؟

مش متأكد، واحد اسمه عمر فتحي بس مش متأكد.

- عمر فتحي المطرب الله يرحمه؟

لا لا لا، عمر فتحي واحد من أصدقاء كمال لسه عايش،
بس للأمانة مش متأكد تماما من ملامحه، هي الرؤيا كانت
واضحة بس بنسبة تسعين في المية فما قدرتش أتأكد مية
المية.

- هو حضرتك أصلا متدين؟

لا أنا عادي.

- أقصد يعني قبل ما تشوف الرؤى كنت متدين جدا؟

متصوف مثلا؟

لا، كنت باصلي عادي وباصوم عادي، ما باروحش الجامع، يعني عادي جدا، وقبل ما أتجوز ما كنتش باصلي خالص أصلا، لكن الموضوع أكبر مني برضه، واللي جايين مع كمال خلاف المسألة بالنسبة لهم أكبر من مجرد الفرائض العادية، لا دول ناس كارهين الظلم ومش طايقينه وهو ده الأهم.

- يعني الأستاذ كمال خلاف أو المهدي، هيعمل حركة ضد

الظلم؟

هو الأستاذ كمال جاي لنشر العدل أصلا، دي مهمته، واللي أنا شفته في الرؤيا دي علامة من علامات الساعة، والقمر ده هو سيدنا عيسى بن مريم، ولعلمك أنا كنت متضايق إنني أنا في النص والمهدي الأستاذ كمال كان على يميني، مع إن المفروض يبقى هو اللي في النص، فاتضايقت كده، بعد كده فهمت إنه لو احنا الثلاثة داخلين جامع مين يخش في الأول اللي على اليمين".

كنا قد توقفنا منذ فترة أسفل بيتي وكان رئيس مصر القادم بعون الله قد ألغى رحلة جاءته على التطبيق لكي يأخذ راحته في الحكي، وربما لأنني شعرت أن الحديث قد طال

أكثر مما يجب ودخل في دائرة الهشش المبين الذي لن يفضي إلى شيء ممسوك، قررت أن أسأله معاباً ولكن بملامح جادة: "هو انت لما مشيتوا في الرؤيا جوه القمر فضلت لابس الفانيلة ولا كنت لابس لابس تاني؟"، ولم تنجح ملامحي التي تصنعت الجدية في إخفاء هزلية السؤال، فالتفت نحوي بجسده كله بدلا من النظر إلي في المرأة وهو يتحدث، وقال لي بانفعال ممتزج بالرتاء لحالي: "على فكرة أنا مؤمن إن اللي أنا شفته ده رؤيا من عند الله لأن فيها القمر، والأستاذ كمال خلاف مش كذاب وأكد لي إنها رؤيا، ولعلمك الرؤيا دي ربنا مش هيبعثها لواحد كذاب أبدا، يعني لو هو بيكذب في الرؤى اللي هو بيقولها، فربنا هيبعث لي أنا رؤيا زي دي ليه يظهر هو فيها، وأشوفه أنا بنفسى بعد كده، أكيد ده حصل لسبب إلهي يعلمه الله عز وجل".

بعد لحظات من التفرس في ملامح وجهي تحت الإضاءة القوية الموجودة أسفل بيتي، قال لي متشككا: "إيه ده؟ هو أنا شفت حضرتك فين قبل كده؟"، وبعد أن قطع الشك باليقين أضاف بنبرة قلقة "انت بلال فضل؟ مش كده؟ أنا شفتك مرة في برنامج مع منى الشاذلي؟"، فأجبتة بنعم وأنا قلق من أن يدفعه تعرفه علي إلى الإصرار على محاولة تجنيدي في جيش المهدي والاتصال بكمال خلاف ليسأله عما إذا كان قد رأى لي رؤيا وأنا أرتدي الفانيلة واللباس تحت الشمس، لكن ما حدث كان العكس، فقد بدأ يقطع في الكلام، ويتحدث بشكل مقتضب عن علم الله الواسع الذي لا يفهمه

إلا الراسخون في الإيمان والذي يحتاج إلى قلوب مؤمنة
تسلم بقدرة الله المطلقة في الكون.

لم يرضني زعله، فعدت لإجبار ملامحي على الجدية وأنا
أؤكد له أنني لا أتشكك في شيء مما قاله، فقط أتمنى ألا
يتأخر حكمه الموعود لمصر، ثم غلبت علي عبثيتي فسألته
عما إذا كان يعرف موعداً محدداً سيطيح فيه تابوت السكينة
بالسياسي ونظامه، ليتعامل مع سؤالي بوصفه نهاية للوقت
الذي أضاعه معي، وقال إن كل شيء في علم الله وإن غدا
لناظره قريب، واستأذني في إنهاء المحادثة ليلحق برحلة
جديدة جلبها له التطبيق، وحين طلبت منه رقم هاتفه
لأتواصل معه حين يصل إلى الحكم، اعتذر بملامح متجهمة
عن عدم منحي الرقم وقال إن الله قادر على أن يجمعنا حين
يشاء.

لم أغضب من نزقي الذي دفعني إلى سؤال الفانيلة الذي
قطع استرساله في الحكى، ربما لأن النوم كان قد كبس علي
ولم أعد أتحمل هرتلة قد تستمر حتى مطلع الفجر، وربما
لأنني حتى لحظة نزولي من سيارته، كنت أظن الموضوع
برمته محدوداً في إطار مجموعة من المهاويس الذين
يصدقون بركات مهدي الزيتون كمال خلاف، لكنني حين
بحثت في اليوم التالي على الإنترنت عن تفاصيل أكثر، اتضح
لي أن كل ما قاله سائق الأوبر متداول بقوة على صفحات
كثيرة في الإنترنت، وأن هناك عشرات الأخبار التي تُشر
بعضها في مواقع يفترض أنها ذات حيئية، تتحدث عن

وجود تقارير رسمية من وزارة الآثار تفيد بوجود التابوت تحت منزل كمال خلاف الذي قام بالفعل في عام 2012 برفع دعوى قضائية في مجلس الدولة لإلزام الحكومة بالحفر تحت منزله واستخراج التابوت، لكنني لم أجد أية أخبار في السنوات التي تلت ذلك عن نتيجة تلك الدعوى القضائية، وكل ما تواصل نشره كان مجرد حديث متناثر في صفحات ومساهمات المؤيدين به عن كرامات قادمة ورؤى قاطعة وخوف حكومي من إغضاب أمريكا وإسرائيل لأن خروج تابوت السكينة من تحت منزل الأستاذ كمال خلاف سينهي النفوذ الصهيوني ويقلب موازين الكون.

حين بدأ نصب سيرك الانتخابات الرئاسية القادمة تذكرت سائق الأوبر الموعود برئاسة مصر ورؤيا الفانيلة البيضاء والسماء البرتقالي التي رآها، فعدت للوم نزقي الذي حرمني من الحصول على رقم هاتفه، ودخلت على الإنترنت لأبحث عن آخر أخبار مهدي الزيتون وتابوته المنتظر ومرشحه الرئاسي الموعود، فوجدت أن الكثير من فيديوهات كمال خلاف التي كانت موجودة قبل سنوات قد تم حذفها من على اليوتيوب، وأن آخر ظهور علني له كان بالصوت فقط وعبر رسائل مسجلة نشرها قبل عامين مدون اسمه أيمن السلحدار، بدا لي أنه مهتم أكثر من المسيح الدجال بأخبار نهاية العالم وعلامات آخر الزمان.

في الرسائل الصوتية التي تدخل بالتعليق والتوضيح فيها مساعد لكمال اسمه محمد عاشور، جاءت تفاصيل مختلفة

عن قصة تصديق وزارة الآثار على وجود التابوت تحت منزله، حيث قال كمال خلاف: "أنا رحت الآثار بعد العورة في يوم 4 أكتوبر 2011 ودخلت للموظفة ماجدة، لا هي تعرفني ولا أعرفها، وقلت لها أنا مقدم شكوى من فترة وعازي أعرف مصيرها بخصوص التابوت الموجود في الآية 248 في سورة البقرة واللي ربنا بيقول إن فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، قامت طلعت لي هذا الدوسيه وكان فيه خريطة متدبسة وكان فيه كلام تمانية خبراء ومكتوب كده بالضبط في كلامهم وجود التابوت المذكور في الآية تحت العقار 21 شارع مصر في الزيتون، ومضى على هذا البيان ثمان خبراء من خبراء الآثار وده اللي قالته ماجدة، سألتها: يعني كده هيهدوا البيت هيطلعوه قالت لا لأنه قريب من الأرض".

حين سأله السلحدار عن طبيعة قدرة التابوت على تحدي الأسلحة الذرية والفتاكة التي تمتلكها أمريكا وإسرائيل، استقبل كمال خلاف السؤال بهدوء برغم نبرته الانتقادية الواضحة وقال: "التابوت بيطلع إشعاع نووي يصيب جلد من يقترب منه وهو عدو له، اللي خلق القنابل الذرية واليورانيوم وخلق كل شيء هو اللي بيقوم بهذا العمل وأنا شفت هتستخدم في هذه الحرب القنبلة الذرية وهيموت ناس كثير لكن سيصاب العدو بالهزيمة مهما ضرب ومهما عمل من أسلحة لأن كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى".

قال كمال خلاف ردا على سؤال تشكيكي آخر إنه لم يقرأ نص الرسالة الموجودة في التابوت من المسيح إلى نصارى هذا الزمان ولا يعرف بأي لغة تمت كتابتها لكنه يعرف أنها موجودة لأنه رآها في الرؤيا، وقال أيضا إن صديقا له رأى رؤيا تفيد أن "يأجوج ومأجوج ومعهم حد تالت لم يُذكر في القرآن موجودين تحت البيت عندي وجميعهم من الجن"، كما قال إنه يعرف أنه حين يظهر التابوت سيأتي الكثير من المسلمين المنحليين الملحدين الذين سيقفون أمام التابوت "يريدون ويسكي ونساء وخمر وأموال"، وهؤلاء وهم من رجال الأعمال وغيرهم من الملحدين سيحاربهم التابوت ولكن بشكل مختلف عن الحرب التي سيقوم بشنها على أمريكا وإسرائيل، نظرا لأنهم مختلفون في النهاية عن الكفار.

وحين سئل عن الكائنات الفضائية وما إذا كانت موجودة الآن، قال كمال خلاف بنبرات واثقة: "كان في رؤيا غريبة جدا شففتها إن في كائنات في علم الله كان نفسها ومنى عينيها إن ربنا يوجددها في الوجود ولكن ربنا نهى إنه يوجددها بس في الوقت نفسه يعلم الغيب، ولما بيخلق نموذج لأي شيء عارف يفكر إيه ويتمنى إيه لأنه علام الغيوب، لذلك شفت وجه من غير إيد ومن غير رجل وأي حاجة، مجرد دايرة ليها بق وعينين ومناخير وقال إن دول كانوا يتمنوا ييجوا الحياة وربنا نهى عن ذلك"، ولكي يحسم أي تشكيك في كل ما قاله عن التابوت ويأجوج ومأجوج والكائنات الفضائية قال: "التابوت زي ما ربنا بيقول: فيه

سكينة من ربكم، يعني كل ما عايزين تفهموه وتطمئنوا إليه موجود، بس ربنا ما بيحبش كله مرة واحدة، واللي ما عندوش إيمان برينا يترك الأمر".

بعد هذه الرسائل الصوتية انقطعت آثار كمال خلاف من على الصفحات العامة في الإنترنت، وحتى صفحة (تابوت السكينة ورئيس مصر القادم) على الفيس بوك التي كانت تنشر رسائل دورية باسمها وتهاني بالمناسبات، نشرت آخر تدوينة موقعة باسمه بتاريخ 18 يوليو 2021 تهني رواد الصفحة بعيد الأضحى المبارك، ثم كان آخر ما نشرته الصفحة تدوينة موقعة باسم أدمن الصفحة يرجو من الأعضاء ألا ينسوا دعاءهم لابنته وله بالشفاء، وكان آخر ما لفت انتباهي فيها تعليق كتبه متابع غاضب قال فيه: "انتو بظلتوا فيديوهات ليه، شكلكم كده عرفتوا إن كل ده أحلام وكوابيس وعقلتوا".

حين سألت صديقاً من المهووسين بالكائنات الفضائية والمسيخ الدجال وعلامات آخر الزمان، عاود تحذيري من الاستخفاف بهذا العلم الذي لا يمنح الله مفاتيحه إلا لأولي العزم، ثم قال إنه لا يستطيع تأكيد ما قاله كمال خلاف ولا نفيه، لكنه في الوقت نفسه لا يستبعد أن تكون الدولة قد تأكدت بالفعل من وجود التابوت وخطره على أمريكا وإسرائيل أو وجود اسم لرئيس آخر على التابوت غير عبد الفتاح السيسي وأبنائه، ولذلك ربما تكون قد قامت بمصادرة التابوت وإخفاء كمال خلاف ومساعدته قسرياً، وأنا سحبت له

شجرة ثلاثية الأبعاد عوّضت فيها ما كتمته حرجاً من سائق الأوبر، لكن ربك والحق، حين تأملت ما قاله، لم أستبعد أن تكون الأجهزة الأمنية قد قبضت بالفعل على مهدي الزيتون وأخفته في قبو قصر رئاسي حرصاً على الأمن القومي، وكيف يكون ذلك مستبعداً ورئيس البلاد نفسه ينتقل من حضرة شيخ إلى صحبة ولي، ويمتلك من الجرأة ما يجعله يخرج على الناس معلناً أنه طبيب الفلاسفة الذي خلقه الله ليصف للناس الداء والدواء، ويتصرف بوصفه مندوب العناية الإلهية لإنقاذ المصريين من أنفسهم، ويؤمن هو ورجاله بأن هناك معجزة ستخرجه من كل المآزق التي يتعرض لها بفعل أهل الشر، فهي يعني المعجزات هتيجي على مهدي الزيتون وسائق الأوبر وتقف؟

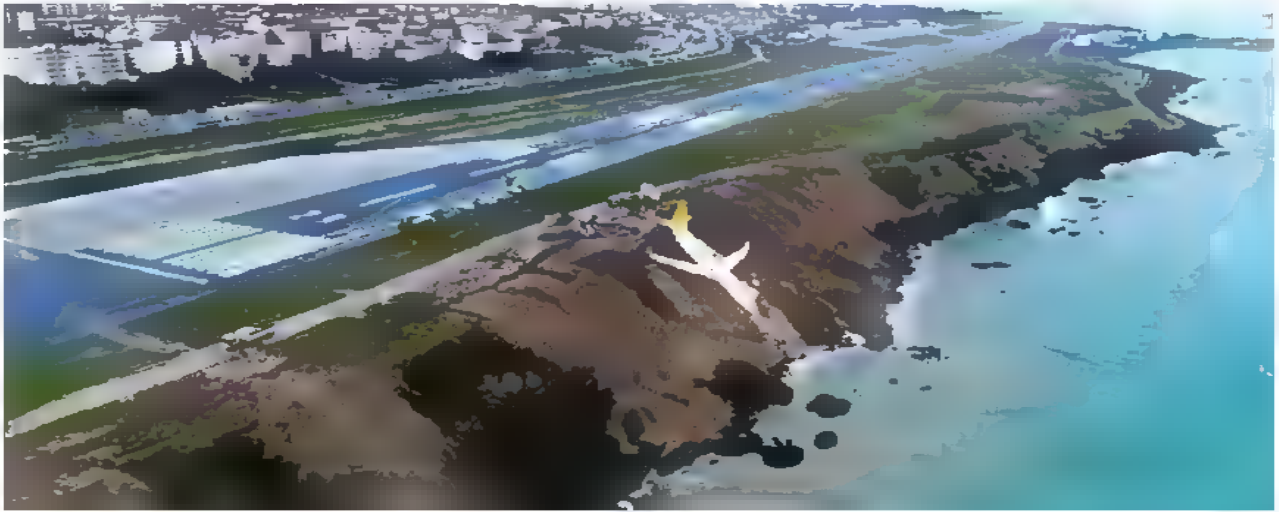
ملك الجبال وسيد التلال!

"مع الأسف لم أجد لكم مرشداً سياحياً يتكلم العربية في المدينة، جميعهم مشغولون الآن بالفعل، لكن هناك من يتكلم الإنجليزية بطلاقة، هل يناسبكم؟"، سألني الصديق العزيز حسن الإزميري مرشدي ومترجمي في كافة زياراتي لتركيا، وتجربتي المريرة جعلتني أسارع في الإجابة: "الحقني به أنا في عرضك"، لأتعرف على إرهان أو الدكتور إرهان بفضل الصدفة التي منعت "حسن بيه" من السفر معنا إلى (طرابزون) أهم مدن الشمال التركي المطلة على البحر الأسود.

كانت الليلة العصيبة التي قضيتها في المدينة بدون مرشد ولا مترجم، قد كشفت لنا كيف تتفاقم في طرابزون مشكلة عدم تحدث الغالبية الساحقة من الأتراك بغير لغتهم، بما في ذلك الإنجليزية لغة السياحة الأولى في العالم، ربما لأن طرابزون ليست معتمدة على السياحة الأجنبية بنفس القدر الذي تعتمد عليه مدن تركية أخرى مثل إسطنبول ومدن الجنوب الغربي.

مشكلة القدرة على التواصل كانت مشكلتنا الثانية مع المدينة، بعد مطارها المخيف، الذي لا يطل على البحر الأسود، بل يقع على شاطئه مباشرة، أو يكاد يقع فيه، لدرجة تجعل تجربة الهبوط مخيفة للغاية، مهما بدت ثقتك في مهارة الطيار، ولذلك لم أستغرب ما شاهدته في الأخبار مؤخراً عن

حادثة سقوط طائرة كانت تستعد للهبوط في مياه البحر "الملازق" للمطار، فقد كان ذلك المشهد ما رأيته في عين خيالي، حين هبطت طائرتنا إلى طرابزون وحين أقلعت منها، ولذلك حين قررت أن أعود إليها بعد عام، سافرت إليها براً طلباً للسلامة، وحرصاً على الاستمتاع بجمال المناظر الطبيعية الخلابة طوال الطريق من إسطنبول إلى طرابزون.



كانت زيارتنا الأولى للمدينة في صيف 2007، وكنا قد زرنا قبلها عدة مدن تركية في العامين السابقين، لذلك بدا لي مطار طرابزون شديد التواضع والفوضى مقارنة بغيره، لكن موظفيه كانوا في غاية الطيبة والود، وهي ميزة ستدرك أهميتها لو كنت قد رأيت الوجوه المتجهمة عكرة المزاج التي تدير أمور مطارات مدن إسطنبول وأنطاليا وإزمير. لم يكن في استقبالنا أحد، ولذلك أدركنا أن لغة الإشارة ستكون المخرج الوحيد للتعامل في المدينة، لأنك إذا لم تجد أبداً من يتحدث الإنجليزية في مطار مدينة، فلن تجده بالضرورة داخل المدينة. تصادف يومها أن أصيبت ابنتي

الرضيعة بالتهابات في جلدها، لأننا لم نتمكن من التغيير لها في الطائرة التي كانت كراسيها أضيق من أي رغبة في فرد الذراعين، وهي التهابات كان سينهيها الحصول على أي مرهم من أي نوع، لكن ذلك بدا حتماً بعيد المنال، بعد محاولاتي المستميتة لشرح حاجتي إلى مرهم مضاد للالتهاب، لموظفة استقبال الفندق الذي يفترض أنه من أكبر فنادق المدينة الواقعة في وسطها، ثم تكرار الشرح لأصحاب ثلاث صيدليات مجاورة للفندق، لأن صيادلة تركيا كأطبائها ومهندسيها، يتعلمون كل شيء باللغة التركية، وهو شيء يثير الإعجاب بالتأكيد، ولكن حين لا تكون بحاجة إلى إنقاذ طفلك من آلامها.

ولأننا لم نكن قد دخلنا "من وَسَع" عصر الهواتف الذكية، فقد كان لازماً عليّ كآب لا يتردد في التضحية بكبريائه من أجل ابنته، أن أشير إلى "خلفيتي المدنية" في كل صيدلية، ثم أقوم بتمثيل مشاعر الألم والحرقة، ويبدو أن إخلاصي في الشرح أو فشلي في التمثيل، دفع صاحب أول صيدلية لطردني وهو غاضب أو خائف على سمعة المكان، بينما طردت نفسي من صيدلية الثاني الذي ظل يتفرج علي وهو يكاد يموت من الضحك، أما الصيدلي الثالث فقد تأثر بأدائي الذي تحسن مع الوقت، لكنه طلب مني بلغة الإشارة أن أخلع بنطلوني، ليرى بالتحديد موضع الألم الذي أشكو منه، لينقذني من مزيد من المهانة رؤيتي لصورة طفل على غلاف عبوة بامبرز لم أكن قد رأيتها أمامي في الصيدلتين

السابقتين، فانقضضت عليها وأخذت أشير إلى مؤخرة الطفل وأكرر انفعالات الألم وأنا أحاول ترجمة الموقف إلى إشارات دالة، لأخرج من الصيدلية بالمرهم المرتجى، بأقل قدر ممكن من الخسائر المعنوية.

بعد ذلك كله كان يجب أن أفرح بالعمور على الدكتور إرهان، الذي عرفت من حسن بيه أنه لا يتكلم الإنجليزية فقط، بل ويقوم بتدريسها في جامعة طرابزون تكنيك، التي عرفت من إرهان بعد ذلك أنها واحدة من الجامعات التي تعطيها الحكومة التركية اهتماماً خاصاً، ضمن سياسة بدأت قبلها بأعوام لتحسين أحوال الجامعات التركية ودفعها للمنافسة مع غيرها من الجامعات العالمية، كان إرهان قد بدأ منذ عامين فقط العمل كمرشد سياحي في فترة الصيف، لتحسين دخله بعد أن تزوج ورزق بطفلة قبل أشهر من تعرفنا عليه، لكن وعلى عكس مدن تركية أخرى، لم يكن إرهان الذي يتحدث الإنجليزية بطلاقة فرخة بكشك أو عملة نادرة في المدينة، لأن اللغة الأكثر طلباً في مهنة الإرشاد السياحي هناك كانت العربية، لأن غالبية السياح القادمين إلى المدينة وما حولها يأتون من دول الخليج العربي، لأن منطقة البحر الأسود الجبلية تكون في عز الصيف معتدلة الحرارة، بل وباردة ليلاً، فتشعر في قراها الجبلية المحاطة بالغابات والأنهار الصغيرة الهادئة، أنك في قلب أوروبا، ولكن بأسعار أرخص بكثير، فضلاً عن وجودك في بيئة أكثر مودة وحفاوة بالعرب، ولذلك تحديداً لم يفتح لحسن بيه توفير مرشد

سياحي يتحدث العربية حين اضطرته الظروف للتخلف عن السفر.



في الساعات الأولى للقائنا بإرهان، كان من السهل أن نلاحظ الارتباك البادي عليه، وهو يبحث عن طريقة لتنظيم حكي المعلومات الكثيرة التي يريد إيصالها لنا عن المدينة وتاريخها ومعالمها، وكان بديهياً أن أحاول تخفيف "لخمته"

بالحديث عن تشابه اسمه مع اسم الأديب التركي أورهان باموق الذي كان قد حصل على نوبل للآداب في العام السابق لوصولنا، لكن محاولتي فشلت سريعاً حين قال بحماس: "لا يا عزيزي، أنا اسمي إرهان وهو اسمه أورهان والفارق كبير بين الاسمين"، جعلني حماسه أظن أنه مثل كثيرين من الأتراك لا يحب أورهان باموق، الذي لم أكن وقتها قد اكتشفت بعد جماله وعبقريته، لأنني تسرعت في الحكم عليه بعد أن لم أكمل قراءة أول رواية له وقعت تحت يدي، لذلك قلت لإرهان: "لا تغضب يا عزيزي، أنا أصلاً مثلك لا أحب أورهان باموق"، وفوجئت أنه رد مستغرباً: "كيف يعقل ذلك، هل تقول لي إنك قرأت لأورهان باموق ولم تحبه وأنت كاتب كما فهمت من حسن بيه؟"، تجاهلت سؤاله وقلت: "سأجيبك حين تقول لي في البداية ما هو الفارق الكبير بين اسم أورهان وإرهان؟"، فقال بحماس المدرس المخلص إن كلمة (أورهان) تعني الغازي أو القائد، أما كلمة (إرهان) فتعني الشجاع، ثم أضاف ضاحكاً أنه لم يكن سيسامح والده لو اختار له اسماً له علاقة بالحرب أو الغزو، "لأننا لسنا في تركيا بحاجة إلى المزيد من القادة والجنرالات والفاثحين"، ولأن إرهان كان يحب أورهان باموق لأسباب أدبية وفكرية، لم يفوت الأمر وسألني لماذا لا أحب كاتبه المفضل، فقلت متهرباً من الإجابة، إنني أحب أكثر منه كاتباً أقدم سناً اسمه عزيز نيسين، وأنه بالتحديد سبب زيارتي إلى طرابزون التي سبق أن تعرض للنفي فيها خلال الحكم العسكري لتركيا، لتغير تلك الإجابة شكل علاقتنا، من علاقة سائح بمرشد إلى علاقة

صداقة تشبه علاقتي بزميله الأكبر سناً حسن بيه مدرس التاريخ ذي الأصول العربية، والذي استمتعت بصحبته في المرات التسعة التي زرت فيها تركيا. (سبق وأن كتبت عن حسن بيه وتجربتي معه في كتاب (التغريبة البلالية) الذي صدر عام 2012).

اتضح من أول ساعة في لقائي مع إرهان، أنه لا يشاركني الإعجاب فقط بإمام الساخرين عزيز نيسين، بل وبكتاب أتراك رائعين مثل مظفر إزغو ويشار كمال وفقير بايقورت وأورهان كمال ويعقوب قدرى، الذين اتضح أن ما قرأته لهم مترجماً إلى العربية بفضل مترجمين أفذاذ مثل المرحوم عبد القادر عبد الله ومحمد مولود فاقي وجمال دورمش وغيرهم لم يكن سوى غيض من فيض إبداعاتهم، ليتواصل حديثنا الأدبي مع عدة أكواب "دوبلا تشاي" شربناها في ميدان أتاتورك، الذي يكفي من مجرد ذكر اسمه أن تعرف أنه أهم ميادين طرابزون. برغم صغره الشديد، كانت حديقة الميدان رائقة ومبهجة، وكان الجو جميلاً ومنعشاً بدرجة لا تتناسب مع ما عهدناه عن أغسطس الخنيق أو آب اللهب كما يسميه إخواننا الشوام.



قال إرهان أنه قرأ الكتاب الذي حكى فيه عزيز نيسين تجربة نفيه إلى طرابزون، وأنه سيشير لي خلال تجوالنا في المدينة إلى بعض الأحياء والمناطق التي ذكرها نيسين في الكتاب، وحين سألت إرهان عن سر انقطاع الكهرباء المتكرر في الفندق، قال إن طرابزون كانت من المدن التي تأخر الاهتمام بها، مقارنة بغيرها من المدن الكبرى التي تستقطب ملايين السياح، وأن بنية المدينة التحتية تعاني من تدفق الأمطار في أغلب فصول السنة، لكنه مع ذلك مستبشر خيراً بالمحافظ الجديد الذي ينتظر سكان المدينة منه أن يفي بالمشروعات التي وعد بها، والتي ستحل مشكلات كثيرة في المدينة، لينقلنا الحديث من الأدب إلى السياسة، فأعرف أن إرهان وأسرته ينتميان إلى حزب الشعب الديمقراطي المعارض، لكنه قام بالتصويت لحزب العدالة والتنمية، لما لمسه بفضل سياسات الحزب من تغيرات في حياته كمدرس

جامعي وكمواطن طرابزونى، وحين امتد بنا الحديث أطول مما كان مخططاً، ودعنا بعضنا على وعد باستئناف الحديث خلال جولتنا التي ستبدأ رسمياً من الغد.

قبل أن نطلق في جولتنا الأولى صباح اليوم التالي، سألنا إرهان بتردد ما إذا كنا سنسمح له أن يقوم بترتيب زيارتنا في الأيام الأربعة التي سنقضها في المدينة بشكل مختلف عما كان ينوي من قبل، وحين استوضحنا قصده قال ضاحكاً بعد تردد إنه سأل صديقاً له عمل على مدى سنوات مع سياح عرب، فقال له أن العرب لا يحبون التنقل الكثير ولا صعود الجبال، ضعهم في مكان فيه مطاعم وكافيهات تطل على جبال خضراء وأنهار جارية وسيسعدون بمقامهم في تلك المطاعم والكافيهات لساعات إلا إذا كنت ستأخذهم إلى مول تجاري يتبضعون فيه بالساعات، وبعد أن تحدثنا متفلسفين ومتفذكين عن سر غرام العرب بمنطقة البحر الأسود بالذات، قلت إنني على عكس ما يوحى مظهري أعشق صعود الجبال، ولكن إذا أتاحت لي فرصة أطول لالتقاط الأنفاس، فقال مطمئناً أن أغلب تنقلاتنا ستكون بالسيارة حتى في الطرق الجبلية غير المعبدة، لكن الأمر سيحتاج أحياناً إلى ترك السيارة للوصول إلى أماكن مخبوءة شديدة الجمال، لا يمكن أن تصل إليها إلا سيراً على الأقدام، لكن تجربة زيارتها لن تدفعنا فقط لزيارة طرابزون ثانية، بل وستظل معنا بقية العمر، وقد كان محقاً فيما وعدنا به.



حادثة عهد إرهان بمهنة الإرشاد السياحي، جعلته شديد الحذر من أي تصرف يمكن أن نفهم منه رغبته في استغلالنا، ولذلك حرص في البداية على الاتصال بحسن بيه الذي لم يكن يعرفه شخصياً، ليحكي له عن الأماكن التي ينوي تعريفنا عليها، والتي سينجم عنها استهلاك أكثر في البنزين الذي كنا مسئولين عن دفع ثمنه، وأنه مستعد لمشاركتنا في التكلفة لو رأيناها أغلى من اللازم، لأنه يعز عليه أن يأتي من يعملون بالكتابة ويحبون الأدب إلى مدينته، ولا يرون فيها إلا الأماكن المعتادة التي يذهب إليها السياح، وحين أعطاني الهاتف لأتحدث قال لي حسن بيه ضاحكاً أننا فيما يبدو محظوظان لأنه تغيب عن الرحلة، لأنه لم يكن يعرف في المنطقة إلا المعلومات العامة التي يعرفها أي مرشد سياحي، ثم قال إن إرهان في الجزء الوحيد من المكالمة الذي تحدث معه بالتركية، رجاء أن يقنعنا بالسماح له باصطحابنا إلى مكانين خاصين به: بيته والجامعة التي يعمل فيها، لأن ذلك سيكون

ضرورياً لكي نتعرف أكثر على المدينة وأهلها، وأنه لن يقبل أن ندفع أجرته كمرشد سياحي في هذا اليوم الذي سيكون فيه مجرد صديق، وأنه سيعتبر أي نقاش في هذا الموضوع إهانة له، بل ولحسن بيه بحكم زمالتهما في الإرشاد السياحي والتدريس، وأكد حسن بيه أن المسألة لا تقبل الفصل وإطالة الحديث في الأمر، وأن إرهان لكي يضمن عدم تحايلنا على الاتفاق، سيجعل زيارة الجامعة ثم البيت، آخر ما نقوم به في يومنا الأخير، بعد أن يتقاضى أجره.

لم يكن إرهان مبالغاً حين قال لنا إن ما سنراه في جولتنا معه، سيكون تجربة تظل معنا بقية العمر، وكان على رأس ما قمنا به تجربة زيارة جبل الضباب الذي يبعد حوالي 90 كيلومتر عن طرابزون، والذي أرانا فيه مناطق لا يذهب إليها السياح عادة، من بينها منطقة تروج بين أهلها أسطورة شعبية عن كونها البقعة التي شهدت اللقاء الشهير بين سيدنا موسى وسيدنا الخضر، وبرغم أن هناك عدة مناطق في تركيا وإيران يزعم أهلها أن ذلك اللقاء حدث فيها، إلا أنني قلت لإرهان إنني اعتمدت رواية أهل المنطقة، لأن الضباب المحيط بكل شيء مثالي للغموض الذي أحاط بشخصية الخضر وقراراته المفاجئة. بالطبع لم يكن التجوال في بعض مناطق جبل الضباب سهلاً، لا بالسيارة ولا سيراً على الأقدام، لأن الأمر الذي يبدأ لطيفاً ومضحكاً، يصبح خطيراً حين تدرك أنك يمكن أن تتعثر في حجر لا تراه فتنزلق وتتدحرج على صخور حادة يمكن أن يفتح أحدها رأسك فتحة لا يغلق

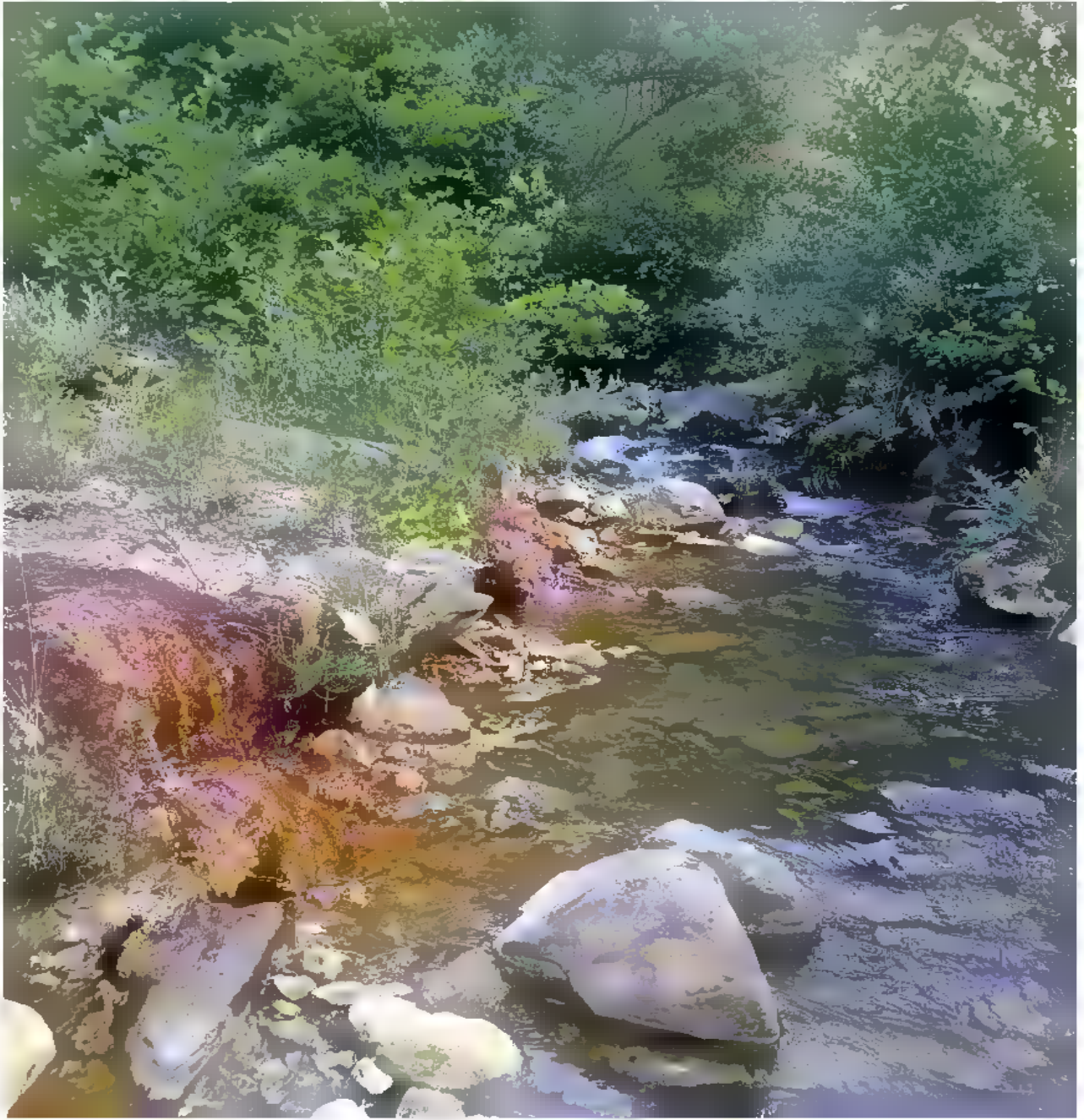
بعدها، فتنقل إلى معية سيدنا الخضر.



في يوم آخر قرر إرهان أن يذهب بنا إلى منطقة تمتلك جبالها وجهاً آخر لما هو معهود عن جبال البحر الأسود، فقد كانت الجبال فيها متقشفة الخضرة والشمس ساطعة فيها طول النهار، ولم نجد كعادتنا في كل مكان نذهب إليه شلالاً يتدفق بكثافة، ليصب في نهر هادر في الوادي. قال لنا إرهان

أن هذا المكان في الشتاء يصبح مقصداً مثالياً لهواة التزلج على الجليد لأنه خالٍ من الغابات التي يحرم القانون قطعها ولو كان ذلك لأغراض سياحية بهدف عمل مساحة للتزلج على الجليد في الشتاء.

في مكان ما من الجبل، أوقف السيارة وطلب منا أن نتسلق مرتفعاً قال أننا سنجد بعده معجزة، بقيت زوجتي مع ابنتنا الرضيعة في السيارة، وذهبت معه لنجد بعد صعود لم يطل، نبعاً تتدفق منه مياه كبريتية ساخنة، يتقاطع مع نبع تتدفق منه مياه عذبة باردة، ولا يفصل بينهما سوى نصف متر تقريباً، قال إرهان إن هذه المنطقة مشهورة بتجاور الينابيع الساخنة والباردة، وأنا يوماً ما حين تكبر ابنتي وابنته وتقدران على الحركة بسهولة، سنتسلق سوياً حتى قمة الجبل، لنرى ما لا يقل عن عشرة ينابيع متجاورة تختلف في طبيعة مياهها وطعومها ودرجات حرارتها، وأنه سيريني صوراً لها حين نذهب إلى بيته، وحين عدنا إلى السيارة، قال أنه تضامناً مع اضطرار زوجتي للبقاء مع ابنتنا، سيرينا مكاناً مخبوءاً في بطن الجبل، اسمه (بحيرة الليمون)، لن نجده مزدحماً لأنه ليس مشهوراً لدى الكثيرين، وأنا سنجد إلى جواره بيتاً صغيراً يمتلكه راعي غنم من أبناء المكان، يبيع طعاماً للمتريدين القلائل على المنطقة، يطهوه بنفسه بينما تقوم زوجته بعمل الخبز فقط، وأنا لن نأكل أحلى من ذلك الطعام في حياتنا.



كان إرهان محققاً في ما قاله عن مطبخ راعي الغنم، تماماً
كما كان محققاً في وصفه لكل مكان اصطحبنا إليه في الجبال
المحيطة بطرابزون، لأمنحه لقب (ملك الجبال وسيد التلال)
وألحق بذلك اللقب العربي كلمتي "تشوك جوزال" التي كنت
أعرف أنها تعني بالتركية شديد الجمال، وهو لقب كتبته له
باللغة العربية، فأراه بكل فخر لزوجته وأسرته، ولزملائه
في الجامعة التي اصطحبنا إليها، وإلى نادي أعضاء هيئة
التدريس المطل على البحر الأسود الذي قضينا فيه وقتاً

ممتعاً، ولم يفهم إرهان خلال جولتنا في النادي، لماذا توقفت أطول من اللازم عند معلومة مجانية البوفيه المفتوح في مطعم النادي، والمتاح لجميع الأعضاء وأسرهم طيلة اليوم، قبل أن يقول بحرج أنه لا يأكل لديهم إلا مضطراً، برغم ما يبذلونه من مجهود لتحسين الخدمة، لأنه يفضل أكل زوجته، وحين اتضح أنه محق أيضاً في وصف فرادة أكل زوجته، قالت لنا إننا حين سنأتي في العام القادم، سنجرب أكل والدتها وسنعرف أنها برغم كل محاولاتها للتطوير والتميز، لم تكن خير خليفة لوالدتها في المطابخ.

كانت شقة إرهان تقع قرب سفح أحد الجبال التي تتوزع عليها أحياء طرابزون، لم تكن الشقة ترى البحر إلا من نافذة جانبية، وكان إرهان سعيداً بذلك لأن مواجهة البحر في الشتاء ليست فكرة لطيفة على الإطلاق. لم تكن ابنتانا قد أكملتا عامهما الأول، لكن ابنتي كانت أكبر بشهرين، ولذلك تعاملت مع ابنته بتعالى المتقدمين في السن، ضحكنا كثيراً يومها وقضينا وقتاً ممتعاً، وحين خرجت معه إلى البلكونة ليشرب سيجارة، أخذنا ننظر من خلف زجاج البلكونة إلى أسرتينا، وأخذ يحدثني عن أحلامه في الانتقال إلى شقة أكبر حين تكبر ابنته، شقة سيختارها في مكان أبعد عن البحر، وأقرب إلى الجامعة.

حدثني إرهان عن أبرز مشاكله في السكن في المدينة وهي تكلفة التدفئة التي أصبحت عالية جداً مقارنة بدخله كأستاذ جامعي، وعن حلمه بإنشاء شركة متخصصة في السياحة

الشتائية، ينظم فيها رحلات للتزلج على الجليد وتسلق الجبال في الشتاء، وكيف ورث محبة تسلق الجبال والتزلج من أبيه، كان يرى أن طرابزون يمكن أن تنافس المدن التركية الأخرى في هذا النوع من السياحة الذي يحبه الأجانب، خاصة أن الأسعار التي يمكن أن يتم تقديمها ستكون أرخص بكثير من جميع أماكن أوروبا المماثلة، وأنه يحلم بأن يكتب بالإنجليزية كتاباً مزيناً بالصور عن جبال البحر الأسود، ليكون مساعداً على عمل شركته، التي وجد أصدقاء متحمسين لمشاركتها فيها، ووعدته أن أكون من أول زبائن الشركة، برغم أنني لا أمتلك علاقة طيبة بالعلاج والجليد، لكنني وعدته أن أسلم نفسي له ليعلمني التزلج على الجليد، وقبل أن ننصرف، حضرت والدته وأخت زوجته للسلام علينا، وبدا لنا أن أكبر مشاكل الزيارة القادمة، ستكون في الاستجابة لكل دعوات العشاء التي تلقيناها ممن حضر ومن لم يحضر من أقاربه ونسائيه.



حين ذهبنا قبلها بيوم إلى منتزه أيدر الشهير، الذي يحتل المركز الأول في قائمة تفضيلات السياحة العربية، قلنا لإرهان أن المكان ساحر الجمال لدرجة تجعلك تقرر زيارته ثانية بعد أول نصف ساعة تقضيها فيه، وأنا سنطلب من حسن بيه أن يرتب لنا عبر شركته الإقامة في المكان لفترة أطول في العام التالي، فنصحنا بأن نبتعد في الزيارة القادمة عن الفنادق الغالية والصاخبة، ودلنا على مكان غير

معروف للكثيرين، يمكن فيه تأجير أكواخ صغيرة تجاور
النهر الهادر مباشرة، بحيث تنام وتصحو فيها على صوت
المياه الساحر، وتدفع ربع الثمن الذي تدفعه في إيجار
غرفة في الفندق، ويمكن أن تعد طعامك في الكوخ المجهز
بمطبخ صغير، أو تحضر طعامك من مطاعم القرية المجاورة،
شريطة أن تحرص في الحالتين على عدم وضع بواقي الأكل
في الخارج، لأن ذلك سيجتذب الدبة التي تسكن الغابة
المجاورة، وهي تجربة شيقة خضناها في العام التالي، لكن
إرهان لم يصحبنا فيها للأسف كما كنا نتمنى.



حين وصلنا إلى طرابزون في العام التالي، فهمنا سر الغموض الذي كان يكتنف حسن بيه كلما تحدثت معه عن إرهان، وعن وعده لنا بترتيبات مختلفة خلال زيارتنا التالية لطرابزون وما يحيط بها. كان ذلك بعد أن وجدنا إحدى زميلات إرهان في الجامعة تنتظرنا في بهو الفندق في اليوم التالي لوصولنا، لتصبحنا بدلاً من إرهان إلى كوخنا الموعود، وبعد أن تبادلنا التعارف والتحية، وتحدثنا عن اسم "إليف"

الذي تتشارك فيه مع الكاتبة التركية إليف شفق، سألناها عن طريقة للاتصال بإرهان، الذي قال لنا حسن بيه أنه لن يكون متاحاً لاصطحابنا هذه المرة بسبب سفره المفاجئ خارج المدينة، فقامت بركن السيارة على جنب، وأخذت نفساً عميقاً لكي تمنع نفسها من البكاء، وبعد أن نجحت في ذلك بصعوبة قالت لنا إن إرهان للأسف فارق الحياة في شهر فبراير الماضي خلال رحلة تسلق جبلية، كان يفترض فيها أن يصحب محافظ طرابزون وعدداً من ضيوفه، وأن نقابة المرشدين السياحيين رشحت إرهان بالذات، لأنه كان يدهش الجميع بقدرته على معرفة أماكن الينابيع والبحيرات الصغيرة المختبئة في بطون الجبال.

كان المحافظ حسن الحظ يومها، لأنه تخلف عن الرحلة بعد استدعائه لاجتماع رسمي في العاصمة، ليذهب إرهان مع بقية ضيوف المحافظ، ويقضي معهم أوقاتاً كان يمكن أن تكون من أجمل الأوقات في حياتهم جميعاً، لولا أنهم تعرضوا لانتهيار ثلجي مفاجئ في إحدى القمم الجبلية التي لم تكن مشهورة أبداً بغدرها، لكنها غدرت بهم في ذلك اليوم المشؤوم، فدفنت بعضهم تحت ثلوجها، ونجا البعض الآخر، وللأسف لم يكن إرهان من الناجين.

بعد أن نشرت قصتي مع إرهان وذكرياتي في طرابزون في إحدى المواقع التي كنت أكتب فيها، أرسلت رابط قراءتها إلى حسن بيه مرفقاً بهذه السطور:

"عزيزي حسن بيه، هذا ما استطعت أن أكتبه عن المرحوم

إرهان بعد كل هذه السنين على لقائي القصير به، لم تكن كتابة هذه السطور أمراً سهلاً، لكنني أتمنى أن تجد وسيلة لإيصالها إلى زوجته وابنته، لا أدري إذ كان يصح أن أجدد أحزان زوجته عليه بعد كل هذه السنين على غيابه، مما رأيته في الأيام القليلة التي عرفت فيها، لا أتصور أنها نستة، وإن كنت أتمنى أن تكون قد وجدت حياة جديدة أسعد وأقل حزناً، لا أدري لماذا أطلب منك هذه المهمة العقيلة، لكنني شعرت أنني ملزم تجاه إرهان، أن أقول لابنته على لسانه كم كان يحبها، وأنه كان من أعذب البشر الذين عرفتهم في حياتي، وأنه رغم معرفتنا القصيرة ترك في أثراً لا يزول أبداً، يفترض أن تكون ابنته في الثانية عشر من عمرها الآن، لا أدري إذا كانت ستتمكن من قراءة هذا الكلام مترجماً إلى العربية، لكنها بالتأكيد ستتعرف على صورة أبيها، وإذا لم يكن لديك وقت لأن تقرأ لها كل ما كتبته، فقل لها فقط أن كاتباً من مصر تشرف بمعرفة أبيها، الذي كان ولا يزال وسيظل إلى الأبد ملك الجبال وسيد التلال و"شوك جوزال".



في كابوس واحد!

لم يكن للشباب القناوي والشقراوين الغامضتين والجثامين المجهولة علاقة مباشرة ببعضهم البعض، ومع ذلك لم أستغرب رؤيتهم سوياً في كابوس واحد.

أما الشاب القناوي فهو الوحيد الذي سبق أن رأيته على أرض الواقع في يوم من أيام ميدان التحرير التي أعقبت موقعة الجمل في فبراير 2011، كنت يومها أقف بعيداً عن صخب المنصة الرئيسية أتحدث مع المخرج يسري نصر الله، حين اقترب منا ذلك الشاب ليلقي السلام معرفاً نفسه بأنه "واحد من شباب الإخوان من محافظة قنا"، مضيفاً بفخر أنه واحد من الذين حموا الميدان بأرواحهم يوم موقعة الجمل إلى جوار شباب الأولتراس والاشتراكيين الثوريين ومئات من المواطنين العابرين للتصنيفات السياسية، ثم قال متودداً ليسري: "مش حضرتك برضه الأستاذ داوود عبد السيد؟"، فقال له يسري ساخراً: "هو أي حد شكله قرد يبقى داوود".

ضحكت أنا ويسري بشدة، وارتبك الشاب لأنه لم يفهم سخرية يسري اللاذعة، فصححت له المعلومة وعرفته بيسري، ولأنني استبعدت أن يكون قد رأى (باب الشمس) أو (جنينة الأسماك) أو (سرقاات صيفية)، سألته عما إذا كان قد رأى فيلم (مرسيدس) أو شاهد فيلم (اسكندرية كمان وكمان) ليوسف شاهين الذي ظهر فيه يسري وكان مساعداً في إخراجة، فقال الشاب القناوي محرجاً إن معلوماته السينمائية

ضعيفة، ثم تشجع واعترف بأنه لم يشاهد فيلم سينما منذ سنوات، وأن كل علاقته بالسينما اقتصرت على بعض أفلام الأبيض والأسود التي كان يشاهدها في صباه. قلت له مداعباً: "قبل الهداية؟"، فرد محرجاً: "يعني الواحد ناوي بعد ما ربنا يخلصنا من مبارك إنه يغير حاجات كثيرة، وأولها إني مش هاسيب حد شفته في الميدان كاتب كان أو ممثل أو مخرج إلا لما أقرا شغله أو أشوف أفلامه"، ثم قال بحماس إنه رأى الكاتب الدكتور علاء الأسواني بالأمس في الميدان وسلم عليه ووعدته أنه سيقراً رواياته، لكنه قال له إنه لن يستطيع أن يشاهد فيلم (عمارة يعقوبيان) لأنه لا يحب عادل إمام، فقلت ضاحكاً إن عليه ألا يستعجل في الحكم، فربما رأى عادل إمام في الميدان اليوم أو غداً، فصمت قليلاً ثم قال ضاحكاً: "لو عادل إمام نزل الميدان يبقى خلاص هنعرف إن حسني غار في داهية وساعتها هاشوف كل أفلامه والله".

حكى لنا الشاب القناوي بحماس كيف قام الميدان بتغيير كثير من قناعاته، وأنه لم يكن يتصور في يوم من الأيام أنه سيشعر بتقدير واعتزاز كبيرين نحو فتيات غير محجبات، رآهن يقمن بمواقف بطولية في جمعة الغضب وموقعة الجمل "ولا ميت راجل"، قال له يسري معاتباً: "يعني لازم تحط التاتش بتاع ولا ميت راجل في الآخر برضه"، لم يفهم الشاب القناوي وجه الاعتراض، وأخذ يحدثنا كيف استمع منذ قليل إلى فتاة غير محجبة تتحدث ببراعة وشجاعة على المنصة، وأنه ذهب إليها وشكرها واعتذر لها لأنه كان قبل ذلك ينظر

بعدم تقدير إلى أي فتاة غير محجبة وأنه يعدها بعدم تكرار ذلك الخطأ مرة أخرى.

لم يستمر حديثنا طويلاً بعد أن قاطعه قدوم أصدقاء كنا ننتظرهم، ولم يتكرر لقائي بالشاب القناوي، لكنني استعدت أكثر من مرة حديثه عن خططه الثقافية والفنية التي ينوي تنفيذها بعد خلع مبارك، وعلى رأسها مشاهدة أفلام وقراءة كتب كل من رآه في الميدان، متسائلاً يا ترى هل قام بتنفيذها فعلاً؟ أم أنه سرعان ما شارك إخوانه في تغيير رأيهم فيمن كانوا معهم في الميدان من مثقفين وفنانين وسياسيين، حين بدأوا يهاجمون ندالة الإخوان وسعيهم منذ توثق علاقتهم بالمجلس العسكري للتصرف بوصفهم قوة منتصرة منفصلة عمن كان معهم في الميدان؟ وهل شارك قائده الخارج من السجن حديثاً خيرت الشاطر الرأي في أن من الأوفق والأفضل للإخوان أن يكونوا جزءاً من التحالف الذي حمل عنوان (التيار الإسلامي العام)، ليصبح موقفهم أقوى خلال التفاوض مع المجلس العسكري على تقاسم السلطة؟ أم أنه كان من بين الشباب الذين أغضبهم ذلك فخرجوا عن طوع جماعة الإخوان وانضموا إلى أحزاب أخرى أو فضلوا الاستقلال الفكري والسياسي؟ أم أنه وجد ذلك الاختيار فوق احتماله وقدراته؟ واختار أن يستمر مع الجماعة حتى النهاية؟ وهل ظل على موقفه المحترم والمقدر لمن كانوا شركاء له في الميدان؟ أم أنه تأثر بما أصبح يوجه إليهم من اتهامات ظلت حداثها تتصاعد من مفترق طرق إلى آخر حتى

وصلت إلى حد إراقة الدماء حول قصر الإتحادية؟ هل وجد نفسه في لحظة ما في مواجهة مع رفيق ميدان وهل حاول أن يفتك به تنفيذاً للتعليمات أو غضباً للنفس؟

في مراحل لاحقة أكثر سواداً ودموية تذكرت الشاب القناوي وتساءلت: هل قرر أن يترك الإخوان في مرحلة ما حين شعر أنهم تجاوزوا حدودهم في السعي نحو امتلاك سلطة ظنوا أنها ستدوم؟ أم أنه ظل حتى النهاية يكن العداء للراغبين في الإطاحة بالرئيس الإخواني الذي لولا ما عصره كثير منهم من ليمون عليه في صندوق الانتخابات، لم يكن ليصل أبداً إلى كرسي الحكم؟ هل صدق الشاب القناوي ما كان يقال له من قاداته ووسائل إعلام جماعته عن عداء شركاء الميدان للمشروع الإسلامي وليس للرئيس والجماعة فحسب؟ ألم يجد في ذلك تناقضاً مع الطريقة التي كنا نتعامل بها سوياً في التحرير؟ وهل شارك بعد ذلك في اعتصام النهضة أو اعتصام رابعة أو غيرها من الاعتصامات والمظاهرات التي ربما تم تنظيم إحداها في مدينته؟ هل نجا من القمع الوحشي الذي تعرضت له تلك الاعتصامات والمظاهرات؟ أم أنه دفع حياته أو حريته أو أمانه ورزقه ثمناً لإصرار قاداته على تصعيد منفلت وغير محسوب لم يتصوروا أنه سيساعد على قمعهم بذلك الشكل؟ وهل قرر بعد كل ما تعرض له من قمع أن ينضم إلى حركة مسلحة من الحركات التي ارتكبت بعض الأعمال الإرهابية؟ أم أنه قايع الآن في سجن ما يحلم بالانتقام؟ أم أنه أصبح يتمنى الخلاص

ليس لدي شك أن هذه الأسئلة أو ما يشبهها قد راودت أذهان من عرف بعض شباب الإخوان خلال أيام التحرير الأولى، وليس لدي شك أن أسئلة مماثلة أو معاكسة قد دارت في أذهان الشاب القناوي وزملائه من شباب الإخوان الذين تأثروا بما جرى في التحرير، على الأقل في الفترة التي سبقت وصول الاستقطاب الحاد إلى ذروته، ليصبح قطيعة لا رجوع بعدها إلى أي نقاط التقاء أو حوار، وهو ما سيتفق الجميع على كونه أمراً مؤسفاً، لكنهم قطعاً سيختلفون في تفسيره، بل وسيراه بعضهم عصياً على التفسير، وهو ما لا أتفق معه، لأنني أرى أن ما حدث منذ لحظة خلع مبارك ليس أمراً يستحيل فهمه، أو يمكن إرجاعه فقط إلى مؤامرات خارجية أو داخلية، بل كان أمراً حتمي الحدوث بسبب سيطرة عقلية خيرت الشاطر على جماعة الإخوان، وهي عقلية كانت منذ البداية متشككة في ميدان التحرير أو رافضة له، ولم تفهم ما جرى فيه، لذلك قررت أن تحوله إلى وسيلة استثمار للضغط السياسي ونيل المكاسب السياسية التي ظنّها طويلة المدى.

حين رأيت الشاب القناوي في ذلك الكابوس المرير، كان بصحبته سيدتان لم أقابلهما شخصياً من قبل، لكنني رأيتهما قبل عشرة أعوام في فيديو من أكرر الفيديوهات انحطاطا وبؤساً، على كعرة ما شاهدت خلال هذه السنين من فيديوهات حافلة بالانحطاط والبؤس، فيديو اختارت

له صحيفة (أخبار اليوم) الحكومية التي نشرته عنواناً هو "شقراوتان غامضتان تدافعان عن الإخوان"، وبغض النظر عن مدى التزام ناشر الفيديو بقواعد النحو، فإن اختياره للعنوان كشف عن تشربه لمنقوع نظرية المؤامرة وإلا لما تصور وجود شقراوات غامضات من عينة سونيا جراهام بطة روايات (رجل المستحيل) تم إنزالهن إلى شوارع القاهرة في مهام خاصة للدفاع عن جماعة الإخوان.

حين تشاهد الفيديو الذي ظل لسنوات متاحاً على موقع الصحيفة الحكومية وأحتفظ بنسخة منه، يتضح أن "الشقراوتين الغامضتين" ليستا سوى سيدة ستينية ومن تبدو أنها ابنتها العشرينية، قررتا في لحظة غير محسوبة الدوافع أن تنزلا إلى الشارع في خريف 2013 عقب حادثة إرهابية ما لإدارة حوار عبثي مع جمع من المواطنين الغاضبين في أحد شوارع القاهرة، لم يفكر مراسل الصحيفة في سؤالهما عن هويتهما أو عما دفعهما للنزول إلى الشارع في لحظات شديدة التوتر، بل بدأ الفيديو بالأم وهي تقول للكاميرا: "لا الناس دي أكيد هيلزقوا أي حاجة للإخوان وده مش الحل هنا في مصر"، ليسألها المراسل بلهجة بوليسية: "انتي من وجهة نظرك شايفة مين المتسبب في الحادثة؟"، فترتبك من نبرة السؤال ومن النظرات المتحفزة التي يوجهها المحيطون بها، وتقول: "ما نعرفش مين المتسبب، أي حد ليه مصلحة في الموضوع ممكن يكون متسبب، ممكن الموساد الإسرائيلي، ممكن اللي بيحصل في العراق وسوريا وكل

الحتت دي، مين ده، الإخوان كلهم؟ لازم يكون في أمريكا داخله، وإسرائيل داخلين وبعض الإخوان داخلين ماشي، وأي حد داخل، إحنا أهم حاجة نصوب غضبنا على اللي عمل كده فعلا، مش أي حاجة الإخوان الإخوان".

تعالى على الفور تعليقات غاضبة من بعض المحيطين بها رفضاً لما قالت، فقررت ابنتها أن تأخذ الكلمة لتخفيف الضغط عنها برغم عدم توقف الأم عن الحديث بانفعال ودار هذا الحوار:

البنت: عامة المشكلة دي مش بس في مصر، أي بلد عربية، مشكلتنا المصريين ببصوا على مصر فقط، هي أكثر من كده، ليبيا، عراق، سوريا.

المراسل: يعني انتي شايفة إنه مخطط كبير جدا؟

البنت: طبعا مخطط كبير جدا.

(تعود الأم بعد لحظات من الصمت للحديث فيوجه المراسل نحوها الميكروفون)

الأم: إنما مش كل حاجة الإخوان الإخوان، يا جماعة إحنا بلد واحدة وشعب واحد، لو فرقونا عن بعض إحنا هثقع مع بعض.

(تدخل مواطن غاضب لمقاطعتها)

المواطن: هما عملوا إيه؟ هما فرقونا خلاص؟

الأم: اللي غلط يتقطم رقبتة أنا ما بادافعش عن حد.

المواطن: لحد امتى هنتحملهم بقى؟

الأم: المهم ما نقولش كل حاجة إخوان.

المواطن: يعني نستحملهم لحد ما الناس دي كلها تموت؟

مواطن ثاني: الإخواني الصح ما ينزلش ويعمل مسيرة.

الأم: ما احنا ما نعرفش مين اللي عمل كده؟

مواطن ثالث: كل ده وما نعرفش؟

الأم: على أساس إن الناس اللي ظلمونا ثلاثين سنة كلهم بره السجن.

مواطن رابع: طب واللي ظلمونا جوه ودلوقتي بيموتوا الناس، لحد إمتى؟

الأم: اهدا، اهدا بس، عشان نعرف نفكر.

مواطن خامس: الناس دي ما فيش معاها تفاهم خلاص.

انقطع الحوار بعد عبارة المواطن الرافض للتفاهم، لنرى الأم وابنتها وهما تسيران مسرعتين وخلفهما ما يشبه الزفة التي يشارك فيها المواطنون الرافضون للتفاهم والذي قرر بعضهم التصعيد ضد "الشقراوتين الغامضتين" بعبارات من نوعية: "اسفخص عليكي يا شرموطة.. يالله يا عملاء.. يالله يا ولاد الكلب يا خولات يا كلاب"، وينتهي الفيديو بعبارة يطلقها مواطن حكيم لم يعجبه المشهد وجهها نحو المراسل قائلا: "ما تصورش حاجة خلاص كده".

كان ذلك المشهد الحزين آخر عهدي بـ "الشقراوتين الغامضتين" اللتين لم أرهما ثانية إلا في ذلك الكابوس بصحبة الشاب القناوي وجثامين ملفوفة بأكفان بيضاء لا أعرف أصحابها بالطبع، لكنني شاهدتها من قبل في يوم لعين من أواخر أيام عام 2013، حين عرضت صفحة قناة (صدى البلد) على الفيس بوك فيديو يوثق قيام موظفي محافظة القاهرة بدفن 35 جثة مجهولة في مقابر الصدقة لم يتسلمها أحد منذ مذبحة رابعة. لم يقدم الفيديو أي معلومات عن طبيعة عملية الدفن ولا عن يتولاها ولا عن الإجراءات القانونية التي تسبق عملية كهذه ولا عن وجود آليات تربط بلاغات الاختفاء التي يقدمها الأهالي في الصعيد والدلتا بالمشرحة التي تستقر فيها الجثامين، ولم يظهر أن أغلب رواد الصفحة مشغولين بطرح تساؤلات كهذه أو حتى بالترحم على من يتم دفنهم، بل بدوا قادرين على تكوين مواقف محددة تجاه ما يحدث، بعضهم قال إن هؤلاء هم بالتأكيد قناصة حماس الذين كانوا موجودين في اعتصام ميدان رابعة العدوية، وبعضهم قال إنهم أياً كانوا يستحقون ما جرى لهم ويتمنى أن يلحق بهم باقي قيادات وأعضاء الإخوان، وبعضهم كتب قائلاً "اللهم لا شماتة" لكنه لم يكتف بذلك بل أعلن شماتته لأن هذا هو المصير الذي يستحقه كل إخواني لعين، والتعليق الوحيد الذي جاء مختلفاً عن غيره ودفعني لنسخه والاحتفاظ به كتبته مواطنة شابة صاحبة عقلية نقدية غيورة على الوطن قالت فيه: "والله أعلم أنا مش حاسة إنهم جثث نهائي، كل الجثث حجم واحد،

وبيشيلوهم بالسهولة دي كأنهم شايلين مخدات وطريقة الدفن دي شككتني جدا، ومين اللي منزل الفيديو وليه منزله دلوقتي، وبعدين الجثث المجهولة دي بتبقى تلاته أربعة، مش 35 جثة، مالهاش أهل الناس دي، مش عارفة ليه مش مصدقة ومستغربة الصراحة".

لم تلتفت المواطنة الغيورة إلى أن القناة التي نشرت الفيديو قناة تابعة لرجل أعمال من أكبر داعمي نظام مبارك ثم نظام السيسي من بعده، وأن تصوير الفيديو ونشره جاء دون شك بالتنسيق مع أجهزة الأمن لنشر مشاعر الردع والترهيب لكل من تسؤل له نفسه الخروج على النظام والأمن، ومع أنها لم توضح كيف أتت بالخبرة اللازمة لمعرفة شكل وحجم الجثة وطريقة الدفن، فقد وجدت كثيرين يمتنون على كلامها بما يستحقه من التشجيع و"اللايكات"، واكتشفت أن أغلبهم وافقوا من قبل على تعليقات سابقة رأت أن هذه الجثث لقناصة حماس أو لعلماء تابعين للمخابرات الأمريكية أو الموساد أو حزب الله أو المخابرات التركية، ولم يكن لدي المزيد من الطاقة لأتساءل كيف أتوا بكل هذا اليقين؟ فقد بدا لي أنهم ليسوا مشغولين بمصائر أصحاب الجثامين التي بقيت لأشهر في ثلاجات المشرحة، بقدر انشغالهم باكتمال عملية دفن الجثامين التي ستجعلهم ينامون مطمئنين لأن الصراع على السلطة قد تم حسمه إلى الأبد وأن البلاد صارت في أيدي أمينة، وأنها ستهدأ وتستقر وتمشي وتصبح قد الدنيا.

لا أعرف ما الذي فعله الزمان بالشباب القناوي ولا بالأم وابنتها، ولن يعرف أحد ربما من هم أصحاب الجمامين المجهولة ولا أين أراضي أهاليهم الحزاني عليهم؟ لكنني أعرف لماذا رأيتهم جميعاً معي في كابوس لعين، رأيت فيه الشاب القناوي يشترك بهمة ونشاط مع الأم وال بنت في محاولة حفر قبور تتراكم الجمامين المجهولة إلى جوارها في شكل هرمي مقبض، في حين كنت أحاول مع بعض أصدقائي المتهمين بالخيانة والعمالة إقناع المواطنين الغاضبين والمراسل الصحفي بالتوقف عن رمي القناوي والسيدات والجمامين بالطوب والأحذية القديمة والشتائم القبيحة، وحين أصابتني طوبة وكسرت نضارتي، جلست إلى جوار الجمامين لأبكي بحرقة تضاعفت حين جاءت الأم وطبطبت علي بحنينة وقالت لي: "إهدا، إهدا بس عشان نعرف نفكر".

غارة على بوفيه الأستاذ محمود

بلطفه الشديد المعهود أصر الفنان الكبير محمود ياسين على أن أحضر فرح ابنه عمرو. كان ذلك في عام 1998، لا أذكر في أي شهر بالتحديد، أو لعل ذلك كان في ربيع 1999، لست متأكداً الآن بالضبط، هل كان الفرع في فندق موفنبيك المطار أو في ميريديان مصر الجديدة؟ لست أذكر على وجه التحديد، لكنني أذكر أن الفرع كان في مصر الجديدة لأنني اضطررت لركوب أكثر من مواصلة والذهاب قبل الموعد بفترة، لكي أصل إلى الفندق بأقل قدر ممكن من العرق، ومع أنني لا أذكر الآن تفاصيل كثيرة عن ذلك الفرع، بل إنني سألت نفسي للحظة هل كان ذلك فرح عمرو أم فرح أخته الأكبر رانيا، قبل أن تستقر ذاكرتي على كونه فرح عمرو، لكنني برغم إجهاد الذاكرة، لا يمكن أن أنسى الذين جلسوا معي ليلتها على نفس الطرابيزة.

بسبب لخبطة في أرقام الأتوبيسات، وصلت إلى الفرع متأخراً لكنني لم أصل عرقاناً وكان هذا هو الأهم. سلمت دعوة حفل الزفاف لفرد الأمن الواقف على مدخل القاعة، ومضيت متجاهلاً نظراته المستنكرة لكوني الوحيد تقريباً الذي لا يرتدي بدلة، لم أكن وقتها أمتلك ثمن بدلة، صحيح أنني كنت أمتلك ثمن إيجار واحدة، لكنني كنت ولا أزال وسأظل من كارهي البدل والكراقات.

حين دخلت إلى القاعة وجدتها مزدحمة بممالي وممثلات

مصر الذين جاؤوا لمجاملة محمود ياسين وأسرته، فجلست على طرابيزة فاضية كانت قريبة من باب الدخول، بعد وقت قصير شاركتني في الطرابيزة أسرة مكونة من رجل خمسيني حسن الهندام وسيدة أربيعينية محجبة تضع ماكياج مبالغاً فيه وترتدي فستاناً غريب اللون وولدين مراهقين طويلين يرتدي كل منهما بدلة واسعة عليه.

لم يرم الأب علي السلام، وكان يبدو متجهماً لسبب مجهول، ولفت انتباهي أن أحداً من الأسرة لم ينطق بكلمة منذ جلسوا، أخذت أتابع فقرات الفرح على شاشة قريبة من الطرابيزة، يومها أحيا عمرو دياب الفرح، وحضر محمد فؤاد وغنى مجاملة للأستاذ محمود وزوجته شهيرة، وكان التنافس الفني بين عمرو وفؤاد وقتها على أشده، ولذلك اعتبر المصورون الذين حضروا الفرح صور لقائهما الودود ببعض في الفرح حدثاً يستحق التسجيل ومشاركة القراء فيه.

كنت من حين لآخر أختلس نظرة إلى شركاء الطرابيزة فأجدهم عازفين عن الفرجة على الشاشة، وغير متفاعلين مع ما يجري في القاعة، فغلب على ظني أنهم من أقارب العريس أو العروسة، وأنهم غير راضين عن الجواز لسبب أو لآخر، ولذلك اختاروا المقاومة بالصمت والعبوس. خلال تجواله في قاعة الفرح لتحية الحضور، انتبه الأستاذ محمود ياسين إلى وجودي في الطرابيزة المحدوفة في آخر القاعة، فجاء بمنتهى اللطف والكرم لتحيتي، فانتفض جميع أفراد الأسرة للسلام عليه، واختفى العبوس من على وجوههم، وحرص

الأب بعد أن عانق محمود ياسين بحرارة، على أن يتأكد من قيام مصور الفرع بالتقاط صورة لمحمود ياسين مع الأسرة، وكان الأستاذ محمود كعادته في غاية اللطف والود مع جميع أفراد الأسرة.

قبل أن يغادر الأستاذ محمود الطرابيزة ليواصل الترحيب بالضيوف، ذكرني بموعدنا الذي كان قد تأجل لانشغاله بترتيبات الفرع، حيث كان يفترض أن أواصل التسجيل معه لحوار كنت أكتبه لإحدى الصحف العربية، وأن أطلعه على مشروع سيناريو كتبه وكان قد تحمس لقصته، وكان يرغب في أن يواصل به عمل شركته للإنتاج التي كان قد بدأ نشاطها بفيلم (قشر البندق) للأستاذ خيرى بشارة، والذي بدأ ممثلوه الثانويون وقتها طريقهم نحو النجومية الساحقة.

حين توقف الغناء وفُتِح البوفيه، اقترب مني رب الأسرة الذي كانت معاملته لي قد تغيرت بعد مجيئ الأستاذ محمود إلى الطرابيزة، وطلب مني أن آخذ بالي من الكراسي، لكي يتاح لجميع أفراد الأسرة الذهاب سوياً إلى البوفيه، وحين رحبت بذلك، عرض علي أن يقوم بإحضار طبق لي من البوفيه، فشكرته وقلت إنني أفضل الذهاب إلى البوفيه بنفسى ولكن بعد أن تخف الزحمة، فنظر لي بابتسامة مشفقة على جهلى بأداب البوفيه، وانطلق إلى البوفيه بصحبة زوجته وولديه، وبعد فترة عاد كل منهم يحمل في يده طبقين مكتظين بتشكيلة من المأكولات، ولم أتمالك نفسى من النظر إلى مكونات الأطباق التي اختلط فيها المشوي

بالمحمّر، وبدأ لي أن الأسرة مهتمة بشكل خاص بالبروتين الحيواني بكافة أنواعه، حتى ظننت أنهم يقومون باتباع وصفة الدكتور (أتكينز) في الريجيم، والتي كانت موضة وقتها، قبل سنوات من ظهور (الكيتو دايت)، وإن كانت الأم للأمانة قد قررت أن تلتف ازدحام اللحوم في طبقها بقليل من محشي ورق العنب والرز بالخلطة والخضار السوتيه.

كان ملفتاً بالنسبة لي أن أحداً من أفراد الأسرة لم ينشغل ولو للحظة بنظرات بعض الجالسين على طرابيزة مجاورة لأطباقهم التي امتلأت وفاضت بما فيها، بادئين في التعامل مع الأطباق بطريقة ممنهجة فور جلوسهم، وحين طلبت من الأب أن يأخذ باله من الكرسي حتى أعود من البوفيه، هز رأسه وهو يواصل الأكل بنهم، لأفهم سر ابتسامته الساخرة حين وصلت إلى البوفيه الذي كان المسئولون عنه قد بدأوا في إنزال دفعة إضافية من بعض الأصناف التي تم نسفها، في حين تبقت في ركن من البوفيه أشلاء خروف وبقايا ديك رومي ضخمة محاطة بقليل من الرز والخضروات، وربما لم يشأ مسئولو البوفيه الإسراع بإبعادها، لكي يثبتوا للمتأخرين في الوصول إلى البوفيه أنهم عملوا الذي عليهم وزيادة، وأنهم ليسوا مسئولين عن سوء توقيتهم.

حين عدت من البوفيه بالقليل مما تبقى فيه، رأيت مشهداً لو حكاه لي أحد لما صدقته إلا لو حلف لي على المصحف، كانت الأم قد أخرجت كيساً عملاقاً من حقيبتها التي كانت كبيرة بشكل ملفت، وبدأت تضع في الكيس ما تبقى في

الأطباق، وقد كان ما بقي في الأطباق كثيراً برغم ضراوة أفراد الأسرة في التعامل، وحين رأى الأب أنني أنظر إلى ما تفعله بذهول، صوّب نحوى نظرات مستنكرة لتطفلي، فأشحت بنظري بعيداً، ووضعت طبقي أمامي وبدأت في الأكل وأنا أحاول فهم ما يجري حولي، فقد كان أقصى ما يخطر على بالي في التعامل الشرس مع بوفيهات الأفراح، ما رأيته في فيلم (اللعب مع الكبار) للكاتب وحيد حامد والمخرج شريف عرفة حين قام بطله حسن بهنسي بهلول - عادل إمام - بتعطيل المعازيم عن الوصول إلى البوفيه، لينفرد بخيراته قبل أن يتضح أنه متطفل على الفرحة، لكنني قلت لنفسي إن دخول متطفلين إلى فرح كهذا يعد في حكم المستحيل، وأن جيراني التهمين ربما كانوا يقومون بتصفية حسابات عائلية مع أسرة العريس أو أسرة العروسة، ولذلك تعاملوا مع البوفيه كتخليص لحق قديم، تمنيت لو أتيحت لي الفرصة لكي أسأل عنه.

بعد قليل عاد الأب من زيارة جديدة للبوفيه حاملاً طبقين يمتلئان بالحلويات، ومن خلفه ابنه حاملاً طبقين (أم علي)، فاتضح أن الأسرة لم يكن لديها موقف ضد الكربوهيدرات، وأن اختيار البروتينات كان استراتيجياً لمنع ملء الأطباق بما يملأ البطون على الفاضي، ويصعب أخذ بقاياها في الكيس، لكن الأم والشهادة لله لم يكن لديها ثقل على الحلويات، لذلك اكتفت بتنقية الفستق من قلب قِطْع "البورمة"، وضربت ملعقتين من طبق أم علي، ثم استعجلت زوجها لكي ينهي

اشتباكه الطويل مع أم علي التي يبدو أن الولدين لم يفهما فكرتها لأنهما كانا غربيي الهوى، وبعد أن انتهى الجميع من التحلية، قاموا من على الطرابيزة، واتجهوا نحو باب القاعة دون أن يقوم الأب بتحييتي أو النظر لي، وهو ما اعتبرته موقفاً من نظراتي المتطفلة سابقاً، لأسلي وحدتي بتخيل خلفية هذه الأسرة وعلاقتها بأي من العروسين، وسر جراتها في التعامل مع البوفيه والفرح والمعازيم.

أكملت أكلي، ثم قمت لزيارة بوفيه الحلويات فوجدته خاوياً على صوانيه، لكنني وجدت بعض الفاكهة المتبقية من المجزرة، فجبرت بخاطرهما، وعدت بها إلى الطرابيزة، وبعد أن أنهيت أكلها، وجدت يداً تربت على كتفي، وسمعت صوت الأستاذ محمود ياسين وهو يقول لي بلطفه الدائم: "أمال راحوا فين ضيوفك؟"، ولم أفهم سؤاله إلا حين رأيت نظراته المتجهة نحو الأطباق الكثيرة الممسوحة عن بكرة أبيها والتي تملأ الطرابيزة، والتي قرر عمال القاعة أن يتركوها كما هي لتكون شاهدة على ما جرى.

بعد أن قلبت سؤال الأستاذ محمود في دماغي وفهمته، انفجرت في الضحك، ونظر لي الرجل الجميل مستغرباً، وانتظر حتى استطعت تمالك نفسي من الضحك، لأقول له إنهم ليسوا ضيوفي ولم أر أحداً منهم من قبل، فقال لي باستغراب: "والله ولا أنا"، واتضح أن أحداً سألهم عنهم، ربما بعد أن رأى حمولتهم التي قدموا بها من البوفيه، فقال له الأستاذ محمود إنهم تبعه، وكان يقصد بذلك أنهم ضيوفي،

ولذلك اعتبرهم ضيوفه على الفور، وأنا شعرت بالحرص لأنني ساهمت دون قصد في تلك التدبيرة، فحاولت أن أفسر للأستاذ محمود أنهم ربما كانوا من نزلاء الفندق، ولذلك دخلوا القاعة دون دعوات في غفلة من أمنها، لينظر الأستاذ محمود إلى الأطباق الممسوحة عن بكرة أبيها ويقول بصوته المميز: "بس الحمد لله واضح إن الأكل عجبهم جداً"، لتشارك سويلاً في الضحك، لكنني قررت أن أحتفظ بحكاية الكيس البلاستيك لنفسى، حرصاً على الصورة الذهنية للأسرة، التي سألت الله لها السلامة في غاراتها القادمة على المزيد من البوفيهات.



تجربة فاشلة مع الأمل السهل!

(1)

كانت أمي وأمهات أصحابي صاحبات شهادات، لكنهن للأسف كن أيضاً "صاحبات عيا"، ولذلك وبرغم انشغالهن بما كان يجري في البلاد من سلق للتعديلات الدستورية، وتطبيق لقانون الإرهاب بشكل جعل مناخ الإرهاب يخيم على البلاد، إلا أنهن انشغلت أكثر بحدث جل وقع في تلك الأيام من شهر مايو 2007، حين سقط رمز من رموزهن الشامخة، هو خبير الأعشاب عادل عبد العال، الذي كان كثير من المصريين والمصريات يعتقدون في نجاعة الحلول التي يقترحها لشفاء أمراضهم المزمنة، ولم يكن أحد من مريديه ومجاذبيه يتوقع أن الدنيا ستنقلب عليه، بعد كل ما لقيه من شهرة وانتشار وتأثير.

منذ أن وضعت وزارة الصحة الرجل في دماغها بعد طول سكوت عنه، وقررت قطع عيشه بعد طناش كامل لإعلاناته وتحركاته، ظلت أمي تحذرنني أنني سألقى مصير الشيطان الأخرس، لو سكث على ما يتعرض له الرجل من مؤامرة تقسم أنها مدبرة بليل من شركات الأدوية والدكاترة الذين "فضحهم وقفل لهم عياداتهم اللي ما لهاش لازمة"، في حين أقسمت أم "أنتيمي" أن الرجل الصالح وقع ضحية لحلف شيطاني من أعداء الإسلام الكارهين للطب النبوي، وحين قلت لها مفرماً حماسها إن منتقديه لا يمكن الطعن في إسلامهم لأن

خلافهم معه خلاف طبي وليس خلافاً دينياً، رذت باشمئناط:
"هو يعني عشان الفلوس على قلبك قد كده ولو عييت هتطير
على المستشفيات الغالية، تقوم تستكتر على الغلابة الراجل
اللي بيداويهم بأعشاب يقدرُوا يشتروها" بينما جادلت زوجة
جارنا المهندس صابر بحجة دامغة: "طب ليه ما منعوش
السفّاح بتاع العبارة من السفر ولا شاطرين على اللي ما
حيلتوش غير شوية شَمَر ومريمية وقرفة"، أما "مامة الواد
شادي" فقد قالت بهدوء المطلعة على الكواليس: "هو لو كان
كذاب أو كان مزور المؤهل الطبي بتاعه، كانوا سابوه يشتغل
في الإمارات .. أكيد كانوا حبسوه هناك.. وبعدين الراجل
بقى له سنين بيطلع في المحور ودريم إشمعنى دلوقتي
بقى كخة.. دول عايزين يشغلوا الناس عن خازوق جديد
بيترثب"، وحين سألتها عن طبيعة الخازوق المنتظر، نظرت
لي مستغربة جهلي ثم قالت بذات الهدوء: "وعامل بتفهم في
السياسة إزاي؟ هي الناس دي بتغلب".

وهكذا مرّت الأيام والأسابيع دون أن تخمد الضجة
المثارة حول عادل عبد العال، لتتوالى التنبؤات الأمومية
والخالاتية، وتتواصل الاشتباكات الفضائية والصحفية،
يتمنى أناس للرجل المحاكمة العاجلة، ويتمنى آخرون أن
ينبعث مجدداً من أزمته كالعنقاء حين تنبعث من الرماد،
ويتبدى للعيان والعيان أن أزمطنا لم تعد تكمن في ما إذا كان
عادل عبد العال مدلياً أم صاحب رسالة، أزمطنا الحقيقية أننا
نؤمن بأننا علّما الطب للعالم، لكننا نرفض أن نصدق

أننا أصبحنا ستمائة شعب يتجاور في بلد واحد: شعب يؤمن بالعلاج بالليزر يجاور شعباً يؤمن بالعلاج بالكزبرة والسنامكي، شعب يقتني أحدث الكتب الأمريكية الصادرة عن طب الأعشاب، يجاور شعباً يكتفي من كل الكتب بكتاب الطب النبوي "لأن فيه الخلاصة وسيبك من نصب الدكاترة"، شعب يصبر على شكاات الإبر الصينية يجاور شعباً يصبر على لسع النحل وأصابع الدجالين الوسطى، شعب يؤمن بالطب التكميلي وشعب يؤمن بالتكميلي فقط متمنياً أن يكمل لآخر الشهر على خير، شعب يعالج نفسه بالقرآن الكريم يجاور شعباً يعالج نفسه بزيت "شجرة العدرا"، شعب يجادل في دقة مصطلح الطب البديل يجاور شعباً كاد يطلع له ديل من فرط القهر والمذلة، أصبحنا نعيش في مصر شعوباً وقبائل لا تتعارف ولا تعرف عن بعضها البعض شيئاً ولا تتفق جميعها على الإيمان بما يؤمن به العالم من تقدم طبي ومعرفة علمية، وربما كان الشيء الوحيد الذي لا زلنا نؤمن به جميعاً هو الجنيه، مع أن بيننا من يؤمن به ولم يره.

(2)

لا يمكن أن تلوم أحداً لأنه يجري وراء الأمل. لذلك لم أتورط أبداً في لوم أمي وأمها وأصحابي وسائر الذين تعلقوا بما قدمه لهم "نجم نجوم الطب البديل" عادل عبد العال من آمال، ليس لأنني رجل يحب التماس الأعذار للناس، بل لأنني أنا نفسي كنت واحداً ممن ترددوا عليه في يوم من أيام عام 2004، وإن كانت تجربتي مع الأمل السهل الذي يوفره

الرجل للناس لم تعمر طويلاً.

أكون كاذباً إذا قلت لك إنني ترددت على المعالج الشهير، فقط لأرصد ظاهرة اجتماعية كانت قد بدأت تستفحل منذ مطلع الألفية الثانية، أو لأتخذ من طوابير المقبلين على نجمه الصاعد مادة أدرسها خلال كتابة عمل فني، فقد ذهبت إليه كغيري، أبحث عن حل مريح وسهل لتداعيات مشكلة السمنة، وبالمرة ليعالجني بمنهجه "النوراني المعجز" من آثار عسر الهضم والصداع وضعف النظر والإجهاد التي كانت قد بدأت تتمكن مني بسبب استهتاري بأبسط قواعد الصحة والمنطق. كان أغلب رواد الرجل يقولون إنهم ذهبوا إليه بعد أن أصيبوا بالإحباط من الأطباء المعتمدين، ويحكي لك كل منهم قصة تنفع حلقة من برنامج بين الناس، أما أنا فعلى العكس، كنت أدرك تماماً أنني ولا أحد سواي سبب فشلي مع الدكاترة المتخصصين في علاج السمنة وتداعياتها، فكل شيخ منهم له طريقة، وكل طرقهم تتشابه في كونها تريد إنساناً يجتهد في تنفيذها، لأن استرداد الصحة ليس سهلاً كإفسادها، ولأن مشكلة التعب أنه غير مريح، فإذاً لا لوم على أذني لو استجابتا لدوي أحب من السحر: "جرب مش هتخسر حاجة، ده راجل تحفة، الراجل ربنا مبارك فيه - أرجو ملاحظة الكسرة تحت الميم منعاً للالتباس - خدت إيه من الدكاترة غير أسبوع تخس وخمسة تزيد".

فليكن إذن، تشفعت بوساطة صديقي حسن عدلي الذي أوصلني بمساعدي الرجل، والذين كانوا مجموعة من الشباب

يدفعك تهذيبهم الجَم للقلق من وجود نصبة ما في الأفق، ليتضح في النهاية أن المشكلة ليست في تهذيبهم، بل في قرون استشعارك التي اتلست من النصب فصارت تنفخ في كل الاتجاهات، خلال أيام قلائل حددوا لي موعداً مع الرجل الذي كان قد وصل لتوه من الإمارات حيث يقيم ويعمل، كان لابد أن أذهب للقاءه في مزرعة تقع في طريق اسكندرية الصحراوي وتبعد حوالي 45 دقيقة عن القاهرة، ولتسهيل الوصول إليها قال لي مساعدوه إنها مزرعة الشيخ الشعراوي، وعلموها لي بحصانين ذهبي اللون يتصدران بابها المطل على الطريق الصحراوي مباشرة.

وصلت في مواعي مُعشماً نفسي بقاء الرجل سريعاً والعودة إلى القاهرة قبل حلول الظلام، وعشمتي في الواسطة التي جئت بها، خيل لي أن الرجل سيقابلني لوحدي في أسرع وقت ممكن، لكنني بعد أن دخلت إلى المزرعة الضخمة التي أدركت أن ما قرأته من قبل عن ضخامتها لم يكن مبالغاً، وفور وصولي إلى أول بيوتها الذي فهمت أنه بيت مخصص لضيوف المزرعة، وجدت ما يزيد على المائة وخمسين نسمة، كلهم ينتظرون نداء الأمل الذي قيل أنه سيتأخر شوية، وشوية هذه فتحت إلى ثلاث ساعات داخل صالة البيت قضيتها أنا وإخواني من منتظري الأمل دون أن يزهد أحد منا أو حتى يتذمر، وهو ما ينبهك إلى ألا تستهين بقوة الأمل أبداً، فلو انتظر هؤلاء نصف هذا الوقت في عيادة طبيب شهير لكشروها على دماغ مساعديه وتومرجيته.

طيلة وقت الانتظار، ظل شباب غير مخلصين يطوفون علينا بأكواب من عرقسوس وتمر وخروب وكرديه، دفعتني روح الغتاة للسؤال عما إذا كان هناك سوبيا أيضاً، وابتسامة الاعتذار المهذبة منعتني من طلب حلبة حصى، وبعد طول تطواف بأكواب المشاريب، بدأ الشباب الخلق في توزيع استمارات علينا، طالبين من كل من تسلّم استمارة أن يكتب فيها معلومات عن طوله ووزنه وسنه ومشاكله الصحية، وما تعود أن يأكله طيلة اليوم. ملأت استمارتي وأنا أغالب رغبتني في الضحك لأن قراءة طقوسي في الأكل أمر يجب أن يدفع أي طبيب محترم للبصق عليّ وطردي من حضرته طالبا أن أعود إليه عندما أتعلم ألف باء صحة، ملأت استمارتي وسلمتها، وقررت تضییع وقتي بمراقبة من حولي، مسترقاً نظرات خاطفة إلى موبايلات الرجال ومجوهرات النساء، التي لم توح لي أن أحداً منهم يعاني من ضيق ذات يد يمنعه من السفر للعلاج في بلاد بزه، لكن تجهم الوجوه وإنحاء الأجساد وتكرر المزاج الذي يعم الجميع، أوحى لي ببلاوي مكلكة تنتظر الانفجار بين يدي مبعوث الأمل.

بعد أن فقدت النظرات الخاطفة جدواها، اصطدمت أول محاولة لإمعان النظر بعيون قرفانة تقول لمن حولها: "يا خناق"، فخرجت من المضيقة الخائقة لأشم الهواء الطلق، قبل أن يحيل الظلام، مجيلاً النظر في أنحاء المزرعة الخلابة، ومترحماً على الشيخ الشعراوي الذي لا يملك الآن أحد سوى الله أن يحاسبه على كل هذا العز، من أين اكتسبه وفيم

(3)

أدركت أن مزرعة الشيخ الشعراوي أضخم مما بدا لي في البداية، حين قال لي شاب من المهبذين الطوافين بالأكواب، إن تلك القبة الذهبية التي تلوح عن بعد، والبيت الذي يبدو بعدها بكثير، يدخلان أيضاً ضمن نطاق المزرعة، قال الشاب الذي كان قد خرج ليتخفف من عناء الابتسام إن الدكتور عادل اشترى المزرعة من ورثة الشيخ ليس من قلة المزارع الضخمة في مصر، بل لحبه في بركة الشيخ الشعراوي رحمه الله. يحكي الشاب بفخر كيف حرص الشيخ على تحقيق الاكتفاء الذاتي داخل المزرعة بحيث تضم كل ما يحتاج إليه الإنسان للحياة من قمح وذرة وخضروات وفواكه وماشية تزود المزرعة باللحوم والألبان والأجبان، وما كان ينقص المزرعة أضافه فيما بعد الدكتور عادل الذي زرع بها عدداً كبيراً من الأعشاب النادرة والنباتات الطبية التي توفر أجواء مصر وتربتها مناخاً صالحاً لزراعتها، وهو ما لا يهتم به الكثيرون مع الأسف.

بعد صلاة المغرب حضر أخيراً وبعد طول انتظار، الرجل الذي سيزيل عنا شحومنا ويزيح آلامنا، نَظَرَ الناس أنفسهم من على الكراسي تحفزاً، وانشقت الوجوه الضجرة عن ابتسامات عريضة، وشاربت الأعناق القافشة متطلعة إلى حلم الشفاء العاجل. شهادة لله، الرجل موهوب في التعامل مع الجماهير المجعدة، له ابتسامة تشعرك أن نصر الله قريب،

يسلم على الرجال بحفاوة ناظراً مباشرة في أعينهم ولا أجدع سياسي محترف، يعني، قبل أن يجلس على كرسيه ويفتح فمه بنصيحة علاجية، كان الرجل قد جئنا جميعاً في حزب الطب البديل، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وتحدث في الدين زمناً، وقبل أن يتمكن الملل ثانية من الحضور، قام بنقل الحديث ببراعة إلى أحدث الاكتشافات الطبية فامتلك أسماع الناس مجدداً، وللحق لم أشعر أنه يبالغ أو يتصنع في كلامه الديني، ربما من فرط بساطة ما يقوله، كان كلاماً عادياً يمكن أن تسمعه من مشاهد جيد لقناة (اقرأ) أو إذاعة القرآن الكريم، لكن الرجل كان للحق ماهراً في المزج بين معلوماته الطبية ومحفوظاته من التراث.

حتى لو كنت زيّ حالاتي صاحب روح نزقة، لم تكن ستجد بسهولة مأخذاً على الرجل، فما ظل يقوله من أحاديث منسوبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، أصبح من مبادئ الصحة العامة في العالم كله: "اغسل يديك قبل الأكل وبعده، ثلث لأكلك وثلث لشربك وثلث لنفْسِك، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، لا ينامن أحدكم حتى يعرض نفسه على الخلاء". كلام جميل، حفظناه في صغرنا، وأضعناه مع ما أضعنا من محفوظات الطفولة وقيمها، تفكر مع نفسك في كلام الرجل عن الطريقة المثلّية لتعامل كل منا مع طعامه فتجده محقاً فيما يقوله، يعني، لو توقفنا عن الحياة كخراثيت لما شكونا أبداً من نتائج توقعنا لرفض جسد بشري أن نعامله كجسد خرتيت، لكن الرجل دخل بعدها في

التفاصيل، فبدأت في التشوش والارتباك، خصوصاً حين أخذ يحذر تحذيراً قاطعاً من الألبان ومنتجاتها، ويعتبر الامتناع عنها سبباً من أسباب الصحة.

نصيحة أخرى أقلقني كانت تشير إلى وجوب أكل الفاكهة قبل الوجبة الرئيسية تطبيقاً لقوله تعالى في الآية الكريمة: "وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون"، والتي قدمت الفاكهة على اللحوم. يا سلام! تذكرت نظرية الطبيب الأمريكي الشهير أتكينز في كون أهم أسباب السمنة يكمن في المزج بين البروتينات والكربوهيدرات الموجودة في سكر الفاكهة، ثم تساءلت: لماذا نُحفل بكتاب الله ما لا يحتمل، يعني لو أراد الله أن يأمرنا بنظام معين للأكل لكان قد فعل جل وعلا، فلماذا نتخذ من نعيم أهل الجنة الذين "لا يُصدعون عنها ولا ينزفون" نظاماً غذائياً قد تكذبه حقائق العلم. رفعت يدي لطرح وجهة نظري على الرجل، لكن الجالسين في الصفوف الأمامية نالوا الأسبقية في الحديث، وما إن نالوه حتى أصبح من الصعب أن يطرح مثلي تساؤلاته، ماسورة أمراض وانفتحت يا عيني: سكر وضغط وقولون والتهاب مفاصل والتهاب كبدي والتهاب بواسير وما شئت من إلخ إلخ.

لم أسمع الرجل ولو لمرة يعتذر عن إبداء الرأي في حالة سمعها ليقول إنها خارج تخصصه أو أنه يحتاج إلى مراجعة متخصصين فيها. دائماً على وجهه الابتسامة المطمئنة، ودائماً ينتقد الطب التقليدي ويعد ببرنامج علاجي يحل

المشكلة. كان يطلب أحياناً إرفاق الملف الطبي للسائل مع الاستمارة التي ملأها، لكنه لم يقل ولو لمرة في تلك الجلسة الطويلة، ما قاله بعد سنوات بعد الضغط الإعلامي العنيف: "أنا لست طبيباً ولا أعالج أحداً، بل أنا أعمل مكملات للأطباء"، وعندما شاهدته يقول ذلك، فقدت ما تبقى من تعاطفي معه واحترامي له، لأنني لم أكن أحب أن أرى رجلاً صليت خلفه العشاء يكذب.

(4)

كان لابد أن يخفت حماسي لمناقشة الرجل في آرائه الطبية والغذائية، عقب استماعي إلى الحالات المأساوية التي انهالت يومها على الرجل، والتي كانت أقسى إدانة شهدتها في حياتي لواقع الطب في مصر، أخذت أستمع حزيناً إلى كرب الحاضرين وهم يشكون جشع المستشفيات وتضارب تشخيصات الأطباء وعدم دقة التحاليل ومهازل التمريض ولوعة الإهمال الضارب أطنابه في البلاد والعباد، يحتويهم الرجل بابتسامته المطمئنة الثابتة، ويقدم لهم حلاً يبدو في متناول أيديهم، حلاً لن يبتئهم الذي وراءهم والذي قدامهم، فلا تستغرب إذن كيف تحول إلى أسطورة، ولا لماذا باع كتابه مئات الآلاف من النسخ، ولا كيف نافس نانسي عجرم في عدد جماهير ندواته، من حقك أن تستغرب بالطبع، لكن من واجبك قبل استنكار المر أن تلعن الذي أمر منه.

تحول الرجل إلى أسطورة، لأنه في ظني لم يتاجر بآلام الناس، على الأقل هذا ما رأيته بنفسه، فعندما ذهبت إليه لم

يكن يعرف من أنا ولا ما هي مهنتي، خاصة أنني كنت وقتها قد تركت العمل بالصحافة، ولم أكن حتى أظهر كثيراً في برامج التلفزيون لأتحدث عن أفلامي، وكنت قد حرصت على أن أطلب من صديقي حسن، الذي أوصلني إلى مساعديه ألا يخبرهم بمهنتي لأرى كيف يعامل الرجل جميع المترددين عليه، وبعيداً عما يمكن أن يكون قد دار في مناسبات أخرى مع آخرين غيري، فما أشهد به هو أن الرجل لم يأخذ مني ولا ممن كان معي يومها مليماً، وقد حرصت على سؤال أكثر من شخص عن تلك النقطة، لأتأكد هل كان ضيق مساعديه المهذبين من سؤالي عن المقابل المادي أمراً يخصني لوحدي، أم أنه سرى على الجميع، فأكدوا لي أنهم واجهوا نفس الضيق من مساعديه حين سألوهم عن المقابل المادي، وهو ما اعتبره بعض أصدقائي المتشائمين فيما بعد جزءاً من خطة معقدة لم أحضر بقيتها.

في نهاية حديته الطويل قال عادل عبد العال إن الاستثمارات التي ملأناها سترسل مرفقة بالملفات الطبية إلى إمارة عجمان بالإمارات العربية المتحدة التي يوجد بها مقر مركزه الطبي ليعرض على أطباء يضعون لكل شخص نظاماً غذائياً وعلاجياً بالأعشاب يتناسب مع حالته وفقاً لبيانات استثمارته، على أن يتم استكمال المعلومات تليفونيا عند الضرورة، وغادرت المكان وأنا متأكد أنني لم أكسب سوى معلومات صحية مفيدة، ورؤية مزرعة الشيخ الشعراوي لأول وآخر مرة، لكنني بعد أسبوعين تلقيت مكالمة مهذبة تطلب

تحديد موعد ومكان لاستلام برنامجي الغذائي الذي وصل من الإمارات مع عدة علب وأكياس لأعشاب تستخدم مع البرنامج، وعندما سألت المهذب الذي سلمني الكرتونة التي وضعت فيها العلب والأكياس عن المقابل المادي اللازم دفعه، اعتبر سؤالي كأنه شتيمة، وتركني ومضى، ولا أدري هل حدث ذلك مع كل رواد الرجل أم لا، لكنني أتحدث عما شهدته بنفسى، والله أعلم.

وقبل أن تحسدني على ما نابني من علاج مجاني، يهمني أن تعرف أنني لم أستفد شيئاً من الأعشاب أو البرنامج، لأنني اكتشفت أن الرجل لا يقدم حلاً سهلاً، تماماً كغيره من الأطباء، فقد كان لا بد في أول أسبوع أن أتناول قبل كل وجبة كبرت أو صغرت بربع ساعة: كوبى ماء فاترين ثم ثمرتى خيار ثم كوب ماء مغلى بعد أن أذيب فيه "باكيت" مملوء بخليط من المريمية والزعر والملتيسيا ثم أحليه بمعلقة سكر فاكهة، ثم أقوم بعد ذلك بإخراج قلب حبة ليمون في كوب، ثم أرش بعض الكمون وأضيف كوب ماء دافئ أضع عليه ملعقة عسل، ثم أشرب بعدها مباشرة كوباً من شاي الأعشاب، كل ذلك قبل أن أضع في فمى أى لقمة، وهو ما دفعنى بعد ممارسة هذه الطقوس المعقدة ليومين مع كل وجبة أتناولها، إلى أن أكره منظر الأكل من أساسه، وأغالب الترجيع حتى لو كنت على وشك مصافحة معشوقى: البفتيك، أو التهام معشوقتى: المكرونة بالباشميل، لتجبرنى تلك الطقوس المعقدة على التفكير فى منافسة غاندى فى صومه الأبدى، ثم تدفعنى

إلى هجران كل ما أرسله لي عادل عبد العال، بعد أن بدت لي نصائح أطباء التخصيس أسهل وأكثر فاعلية، لو قررت أن أترك الكسل وأدرك أنه يستحيل أن تحتفظ بصحتك إذا كنت مواظباً على تدميرها.

ومع ذلك، خرجت من تجربتي الفاشلة العابرة مع الرجل، بعدة نصائح مهمة بدأت محاولة الالتزام بها: نبذ الفاست فود وكانزات الحاجة الساقعة والأطعمة المعلبة أو المقرمشات المغلفة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، الأكل كإنسان لا كخريت، استخدام الأسنان في المضغ الجيد لا في العياقة، الإكثار من شرب الماء، الابتعاد عن الانتفاخ عدو الصحة الأخطر، محاولة فرد الظهر وشفط البطن كلما تمكنت من ذلك، وكلها كما ترى نصائح لم يكن من فضل للرجل فيها، سوى قدرته الخلافة على مزجها بمختارات من التراث الديني والشعبي، وتوصيلها بأسلوب شديد السلاسة يفتقده كثير من أطبائنا، لأن ذلك ليس تخصصهم ولا ملعبهم، وربما لو كان الرجل قد اكتفى بتقديم نفسه كمعالج غذائي لأراح واستراح، لكنه لم يفعل، فطار طار وارتفع، ثم وقع طريح وسائل الإعلام التي نسيت دورها الجنوني في تلميعه، فتكاثرت عليه السكاكين ولاكت سيرته الألسنة، وبدأ يفقد هدوءه فتكرر أخطاؤه وتظهر تناقضاته ويفقد تعاطف الكثيرين، ورويداً رويداً ستخفت الضجة حوله إلى أن تنتهي بإغلاق ملفه عمداً أو إهمالاً، دون أن يتغير في واقع الحال شيء: لن يواجه أطباء مصر أنفسهم مواجهة صادقة شجاعة، لن

تنشغل الدولة بشيء أكثر من بيع هيئة التأمين الصحي، وتحويل مصر إلى "سوبر دار فؤاد كLINIK"، ليبقى المصريون محبطين من وضع الطب "التعبان"، وليتواصل جريهم وراء أي نداء جديد للأمل، سواء كان صاحبه صينياً خارقاً للعادة، أو عضو مجلس شعب يقهر الجان، أو بدوياً خبيراً في بول الإبل، بل إن الله سيكون رحيماً بمرضانا لو بالت عليهم الإبل فقط.

(5)

كنت قد نشرت نسخة غير منقّحة من السطور السابقة في صحيفة (الدستور) اليومية في مايو 2007، ثم تذكرتها حين وجدت صديقاً عزيزاً من أصحاب المؤهلات العليا مثل حالتي، يقوم "بتشيير" تدوينة متحمسة لعادل عبد العال الذي اتضح أنه لا زال يواصل نشاطه بشكل عادي حتى تاريخ نشر هذا الكتاب، وأنه أقنع صديقي بإنجازاته في القضاء على الأمراض الفتاكة، فأصبح صديقي يرى أن طريقته العلاجية "يمكن أن تغنيك عن وجع الطب وصداع الأطباء"، وحين عارضه بعض أصدقائه فيما قاله، وأشاروا إلى ما سبق ذكره من مآخذ على عادل عبد العال ومؤهلاته وأسلوبه وعلى فكرة طب الأعشاب بشكل عام، رد صديقي عليهم بكلام يطابق ما سبق أن قالته من قبل أمي وأمهات أصدقائي، اللواتي حين استفحلت أمراضهن، لم ينجدهن بفضل الله إلا أطباء وصيادلة بحق وحقيق، مثعنا الله وإياكم وإياهن وكل من تحبون بالصحة والعافية، وكفانا جميعاً شر المرض

والضجر والأمل السهل.

أبو زعبوط

في العادة، كان يمكن لتلك المناقشة العبيية أن تطول ويضيع معها المزيد من الوقت والجهد، لكنها والحمد لله استغرقت وقتاً قصيراً جداً بفضل الأستاذ "أبو زعبوط"، الذي جعلتني معرفته التي جاءت بالصدفة، أعيد النظر في جدوى الكثير من المناقشات التي يغريك الأمل بخوضها، خصوصاً حين تتوهم قدرتك على إقناع من أمامك بوجهة نظرك، وتنسى أن الحياة أقصر من أن تنجح معها في شرح وجهة نظرك للجميع، خصوصاً إذا كانوا ليسوا مهتمين أصلاً بطرح وجهات نظرهم الراسخة للنقاش والجدل.

خلال واحدة من زياراتي المنتظمة إلى ذلك الجزء من شارع ستاينوي في حي كوينز النيويوركي الذي يطلقون عليه اسم "ليتل إيجيب" لامتلائه بالمحلات والمطاعم والمقاهي المصرية، قابلت الرجل الذي أطلقت عليه اسم "أبو زعبوط"، لأنني حين قابلته أول ثلاث مرات خلال أشهر الشتاء القاسية، كان في كل مرة يرتدي زعبوطاً أبيض على بالطو وترينج يتغير لونهما في كل مرة بعكس الزعبوط الذي ظل ملتصقاً برأسه، وما فهمته من صاحب المطعم الذي أتردد عليه أن "أبو زعبوط" يسكن بالقرب من المنطقة، ويحب أن يقضي أوقات فراغه الطويلة في التسكع بين المحلات والمقاهي والمطاعم المصرية، وجزء شغل أصحابها وبعض من يعرفهم من الزبائن، أو جر رجلهم إلى الرغي والحواديت، لكي يخفف من شعوره بالغربة، خاصة أنه اختار أن يعيش بمفرده

في نيويورك، ولا يصطحب أسرته معه "خوفاً على أبنائه وبناته من الانحراف والبوظان"، ولذلك فهمت لماذا كان "أبو زعبوط" يبادر في كل مرة ألتقيه فيها إلى سؤالي عن رأيي في قضية أو حدث، ثم يفتح معي مناقشة كانت تطول، برغم كل مجهوداتي لتقصيرها، لكن ذلك لم يكن حاله في آخر مرة، وهو ما وجدته غريباً فحرصت على فهم السبب.

في أول مرة كانت المناقشة التي فتحتها معي عن حسني مبارك الذي كان وقتها لا زال حياً يُرزق ويُحاكم ويتابع موقف أرصده في بنوك سويسرا وتنطلق الشائعات عن وفاته مرة كل أسبوعين، وكان أبو زعبوط يدافع عنه بشراسة كان واضحاً أن هدفها هو الاستفزاز، لكنه حين اكتشف أنني لست معنياً بنقاش جاد لما يقوله، وأني قلبت الحكاية إلى هزار يتجاهل استفزازه بل ويزايد عليه في تمجيد حسني مبارك الذي جعل مصر أعظم دولة في العالم، ضحك وهو يعترف برغبته في استفزازي، ثم قال لي إنه كان أيام ثورة يناير في أجازته المعتادة في مصر، لكنه لم يكن متابعاً لما يجري في الثورة ولا مشغولاً بها، وينتظر أن تهدأ الأوضاع، ليتمكن من العودة إلى نيويورك دون أن يقلق على أسرته، لكنه نزل مع أخيه العورجي إلى ميدان التحرير يوم 11 فبراير، وزاط مع الملايين في زينة التنحي، وقال إنه كان يأمل في أن ينوبه من الأموال المنهوبة أي نايب، لكن أمله خاب واتضح أن مبارك قام بتأمين "نهيبته" كما يليق بفلاح قراري يعرف كيف يتعامل مع تصارييف الزمن.

في مناقشة تالية اعترف صاحبنا أنه كان مؤيداً بشدة للرئيس محمد مرسي وجماعة الإخوان وكان يأمل في الإخوان الخير لأنهم "في الآخر بتوع ربنا ومش هينهبوا البلد"، لكنه مع ذلك لم يزعل على مرسي عندما تم عزله وسجنه، "لأنه اتضح إنه مش قد الشيلة" وأن البلد تحتاج إلى الخباز الشاطر حتى لو سرق نصف الرغبة، ولذلك أصبح مؤيداً شرساً لعبد الفتاح السيسي، ثم أضاف ملخصاً: "وبعدين ما ملاش عيني بعد سنتين مما مسك لما الاقتصاد باظ والأسعار غليت، فرجعت أقول على مبارك إنه كان أحسن، على الأقل كان عارف يدورها، وبعدين احنا إيش عرفنا إنه كان حرامي أصلاً، أهوه كله كلام مصاطب، لما ياخذ حكم نبقى نتكلم".

حين قابلت "أبو زعبوط" في مرة تالية، كان القضاء قد أصدر حكماً بتأييد الحكم على حسني مبارك وأبنائه في قضية سرقة المال العام في القصور الرئاسية، فبادرته مشاكساً: "قولي بقي.. أخبار حبيبك الحرامي إيه.. مش انت بتحترم القضاء الشامخ.. أهوه صاحبك طلع حرامي بحكم محكمة"، ففاجأني أبو زعبوط حين اختص المخلوع بمجموعة منتقاة من الشتائم أضاف بعدها: "أنا عمري ما كنت باحبه والله.. ده نهب البلد وجاب أجلها هو وحبيب العادلي.. بس خلاص بقي عايزين ننساه ونبص لقدام والبلد تهدا.. عشان مش عارفين نعيش كويس في الغربة من كتر القرف والهَم اللي بتجيبهولنا الأخبار اللي بنسمعها.. والمهم

إن قرايبي وصحابي واجعين دماغي عشان عايزين يسافروا أمريكا وكل واحد فيهم شغال نبر ونق ومش عارفين إننا بنتفشخ هنا عشان نعيش ونبعث القرشين للعيال كل شهر".

قلت لـ "أبو زعبوط" إن ما قاله للتو يشكل بالنسبة لي فهماً جديداً ومتطوراً لفكرة الوطنية، حيث يطمح المواطن المغترب لاستقرار بلده وتطور أحوالها، فقط لكي يستطيع الاستمتاع بحياته الجديدة وينسى الحياة القديمة التي ابتعد عن وطنه بسببها، حتى لو اضطر للتوقف عن متابعة أخبار بلاده التي تحرق الدم وتعكر المزاج، فنظر إلي محاولاً تحديد هل أتفق معه في الرأي أم أتريق عليه، ثم قرر تغيير الموضوع، حين أشار إلى كيس بلاستيك غامق وضخم كان يحمله على كتفه كأنه "مخللة"، وقال لي بابتسامة خبيثة: "على فكرة أنا الكيس ده لو اتمسكت بيه في مصر أتحاكم محاكمة عسكرية"، وقبل أن أسأله توضيحاً لاعترافه الغامض المفاجئ، فتح الكيس وأخرج منه عبوات واقيات ذكرية كبيرة الحجم، وأمسك بعبوة منها وقال لي بجدية: "أهي العلبة دي لوحدها تكفي ألف ضابط".

وحين سألته لماذا اختص الضباط في كلامه، ولم يقل "تكفي ألف راجل"، سكت سكتة طويلة، كأنه يفكر في اتخاذ قرار بالإجابة بدلاً من التطنيش، ثم قال إن أخوه كان صاحب صيدلية كبيرة في مصر، ولذلك كان يساعده خلال فترة تجنيده على تحسين أوضاعه في الجيش بمنح هدايا للضباط من بينها الواقيات الذكرية التي كانت وقتها من مستحدثات

الأمور، وكان وجودها مع "الضابط الذكر" في جيبه أو مكتبه، يوحي أنه "مقطع السمكة وديلها"، حتى لو لم يكن له ثقل على السمك أصلاً، بالإضافة إلى قيامه بإهداء السادة الضباط تشكيلة من المقويات والمنشطات الرائجة في عصر ما قبل الفياجرا.

قبل أن يسترسل في المزيد من التفاصيل، تذكر أبو زعبوط أنه سبق أن أثنى في حديث سابق بيننا على الحكم العسكري الشاكر الذي لا يصلح للشعب الفاسد غيره، لأن الضباط على عكس المدنيين ليس لهم في الحال المائل الذي جاب البلاد ورا، ولذلك سكت أبو زعبوط، وأدرك أن الحكى سيورطه في المزيد من الاعترافات التي سأستغلها ضده في نقاشاتنا القادمة، وحين طلبت منه أن يكمل حكايته التي بدأها، ابتسم ابتسامة شهر زاد حين تسكت عن الكلام المباح، وقال لي "نخليها في وقت تاني".

بعد أن ترك لنا أبو زعبوط المكان، قلت لصديقي إنني أتمنى أن يمنحني هذا الرجل بعض الوقت والكثير من الثقة، لأكتب بالتفصيل سيرة تحولاته الفكرية والسياسية كمواطن، لأنني أزعـم أنه لا يمثل شخصه فقط، بل يمثل قطاعات ضخمة من المصريين، الذين يشبهون أشقاءهم من الجماهير الغفيرة في أي مكان في العالم، في أنهم لا يتبنون مواقف سياسية حقيقية وحاسمة، كما يخيل لبعض حسني النية، خصوصاً أولئك الذين تأثروا بنموذج زينهم السماحي الذي صكه أستاذنا أسامة أنور عكاشة، وأصبحوا يرون فيه معادلاً بصرياً

ودرامياً للشعب. مع أن الغالب الأعم من خلق الله في كل بلاد الله، أبعد ما يكونون عن تبني المواقف السياسية الحاسمة والقاطعة، بل يميلون لمن يمتلك القوة، ويدورون معها حيث دارت، ويؤمنون بأن "الدنيا لمن غلبا" على حد تعبير أمير الشعراء أحمد شوقي، ويستمتعون بفكرة التشجيع التي ذاقوا طعمها الساحر في الكرة، ونقلوها إلى السياسة بكل ما يصحبها من رذالات ووساخات، لكنهم في الوقت نفسه يعرفون بالغريزة أن التشجيع في السياسة ليس فيه ولاءات طويلة المدى مثل الكرة، ولذلك يكتفون من تشجيعهم السياسي بمتعة أن تكون مع المنتصر فتشجع تطليعه لأيمان أم معارضيته، وتظل معه حتى ينهزم، فعندها تشجع طلوع أيمان أمه هو والذين انهزموا معه، وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

مع الأسف، تسرع صديقي ونقل لـ "أبو زعبوط" أمنيته فأصابه ذلك بتوتر شديد، جعله يبتعد مسرعاً عني حين رأي آخر مرة، لينتهي مع ابتعاده مشروع كتاب واعد كنت أنوي أن أسميه (أبو زعبوط)، لكنني لا زلت حتى الآن أتذكره كلما أوشكت على خوض مناقشة عبثية مع واحد من آباء الزعابيط الراغبين في تزجية وقت فراغهم على قفا وقتي، فأستعيد ابتسامة "أبو زعبوط" العريضة، وأقول لهم بهدوء شديد: "نخليها في وقت ثاني".

حكايات قصيرة عن وجوه ومطارح

(1)

مشكلة كثير من الشعراء الرديئين أنهم لم يُرزقوا في وقت مبكر بأصدقاء صادقين، ولذلك أنقذتني الصداقة الصادقة من توهم نبوغي الشعري، وأنقذت الشعر مني.

كنا وقتها على وشك أن ننهي دراستنا في كلية الإعلام، وكنت قد انتهيت من قرض ديوان كامل اخترت له عنواناً مراوفاً يهدف لجزّ رجل القارئ قبل إغراقه في لُجة المشاعر: (لا يفلّ الحبيب إلا الحبيب). جمعت في الديوان نخبة من قصائدي التي تصور رحلة صعود وهبوط أحلامي العاطفية التي لم يكن قد تبين بعد أنها بلهاء، ثم انتخبت قصيدة منه تحمل عنواناً جليلاً متأثراً بمثلي الشعري الأعلى محمود حسن إسماعيل هو: (إلى ملائكية الوجه)، وقررت أن أبدأ بعرض القصيدة على أعز وأجهل أصدقائي، لأختبر رد فعله بوصفه نموذجاً للقارئ العادي الذي يطمع فيه الديوان.

أمسك المخفي أوراق القصيدة بجدية وتهيب من غرّضت عليه الأمانة، وبعد هنيهة نذت عنه شجرة، أقسم برأس أمه أنها لم تكن شجرة، بل كانت محاولة فاشلة لكتم الضحك الذي انفجر فيه، وبعد أن غالبه بصعوبة، اتضح أن دخلة القصيدة هي التي أوقعته من الضحك، لأنها كانت تقول:

"وماذا بعد يا قلبي

أبقى نايك السحري

ينشد غنوة الأشواق للأبد"

كان ذلك قبل ظهور الداعية ذاكر نايك في الأجواء، لكن مجرد تراض حروف كلمة (نايك) في مطلع القصيدة كان كافياً لتحويلها إلى مسخرة، مع أنني الآن أعتقد أن كلمة (السحري) هي الأولى بالتمسخر، وأظنها لَزَقَتْ بوجداني من تأثير ترديدي المستمر للإعلان الشهير الذي كان يقول: "أذيني لبانة من السحري.. واشمعنى السحري مُصِرَّ عليه".

بالطبع التقط خيط المسخرة صديق أشد سفالة وجاهالة، واقترح - بما أن في الموضوع نايك يعني - أن يتم تعديل عنوان القصيدة لتصبح "إلى منائكية الوجه"، ولقي الديوان الوليد حتفه في تلك الليلة الليلاء، ولم يبق من ذكره إلا ضحكات منغمة تنفجر كلما قابلنا بعضنا بعد طول غياب، وبعد أن يكون أول ما نقوله لبعضنا:

"وماذا بعد يا نايك؟".

(2)

سأقتني إلى الحكاية التي سأرويها لك الآن دردشة دارت مع الصديق الروائي طلال فيصل على الفيس بوك عن الموسيقار محمد عبد الوهاب والنظام الغذائي الصارم الذي سار عليه أغلب حياته، حيث التزم بالأكل المسلوق والنباتي والجبنة القريش والفول الذي لا تكثر فيه التحابيش مع أكل الردة بالمعلقة لكي تسهل عملية الهضم، في تطبيق مدهش

لسياسة "البضن على النفس" وأخذها بالشدة، وهو ما ساعده على أن يعيش طويلاً ويقترب من المئة عام، ولولا أنه كان في النهاية من أبناء باب الشعرية ومن تربية مشايخها ويعرف أن "كلنا لها" لراوده الطموح في المزيد.

الحكاية التي تذكرتها دارت ذات يوم من أيام سنة 2007، حين حضرت حفلة غداء أقامتها دار الشروق في فندق (سوفيتيل) بالجزيرة لتكريم الكاتب الكبير أحمد بهجت بمناسبة عيد ميلاده السابع والسبعين، وطلب مني المهندس إبراهيم المعلم أن ألقى كلمة في الحفلة بوصفي "أشعب" الحاضرين أو أصغرهم سناً لأن الشباب مسألة نسبية في نهاية المطاف، وكنت في غاية السعادة بتلك الفرصة التي أتحت لي للمشاركة في تكريم كاتب كان من أوائل من أحببت القراءة له وأنا طفل في كتبه الدينية الجميلة، ثم أحبته أكثر حين قرأت أسلوبه القصصي الساخر الذي لم يلق الاهتمام النقدي الذي يليق به.

شاء حظي الحسن أن أجلس في قاعة الاحتفال الدائرية ما بين الأستاذين محمد حسنين هيكل وفهمي هويدي، وكنا بعد أن انتهت الكلمات والسلامات والتحيات قد أصبحنا على مشارف الرابعة عصراً، وكنت أكاد أن أقع من الجوع، واستبشرت خيراً ببدء نزول أطباق الغداء، لكنني سرعان ما صدمت حين اكتشفت طبيعة الأكل الذي قدمه المطعم الفرنسي الذي كنا نجلس فيه، فقد كان في الطبق الأول قطعاً جمبري مشوي انزويتا في ركن من الطبق الفسيح

وهما غارقتان في سائل أصفر مخاطي القوام، اتضح أن له علاقة بالمسطرة، وبدلاً من أن يملأ الشيف التافه فضاء الطبق بالجمبري، قرر أن يملأه برسومات بلهاء استخدم فيها الصوص الذي كان طعمه أرحم من شكله.

أجهزت على "الجمبريائيتين" بضربتين متتابعتين توفيراً للوقت واستعجالاً لما هو قادم، وحين نظرت إلى طبق الأستاذ هيكل، وجدت أنه لم يلمسه، فظننت أنه لا يحب الجمبري أو ربما قرف من السائل الغريب، فاستكملت حديثي معه ومع الأستاذ فهمي، لينزل بعد قليل الطبق الثاني الذي كان عبارة عن خليط غير متجانس من أشياء خضراء مسلوقة وكتل صلبة يرجح أنها لحوم، ودون الانشغال بتبين كنهه، تم التعامل معه على الفور، وحين نظرت إلى الأستاذ هيكل وجدته محتفظاً بمسافة من الطبق ومستمراً في الحديث، فقررت أن أسأله عما إذا كان لديه موقف من المطبخ الفرنسي، ربما كان يعود إلى علاقته السابقة بشارل ديغول أو جورج كليمنصو أو شيء من هذا القبيل.

أجاب الأستاذ هيكل على تساؤلي بهدوء شديد قائلاً: "لا ما فيش موقف من المطبخ الفرنسي، أنا عندي موقف من الأكل بعد الساعة أربعة العصر أيا كان نوع المطبخ اللي طالع منه الأكل، ولإني لسه متغدي الساعة اتنين فمش جعان دلوقتي"، ولأن ما قاله لم يكن من السهل على أمثالي استيعابه فقد أعدت سؤاله عن الموعد الذي يتوقف فيه عن الأكل، وحين أكد أنه يتوقف عن الأكل بعد الساعة الرابعة مساءً، سألته:

"طيب حضرتك بتنام الساعة كام؟"، متخيلاً أنه سيقول لي إنه ينام في الثامنة مساءً، ليتمكن من الاستيقاظ فجراً للعب الجولف مع صناع القرار وشهود العصر، لكنه قال إنه ينام في الحادية عشرة ليلاً وأنه كان ينام من قبل في التاسعة والنصف أو العاشرة مساءً، لكن نومه أصبح أقل في السنوات الأخيرة.

قلت له محاولاً إخفاء ذهولي مما أسمعته: "طيب حضرتك ما بتصحاش مثلاً بالليل تعدي على التلاجة وتناناً أي حاجة"، فرد بتعبير بديع كعادته قائلاً: "أنا مصمم ضد النأنة"، فقلت له إنني يمكن أن أطبق نفس نظامه وأتوقف عن الأكل بعد الساعة الرابعة، بشرط أن أنام في الخامسة عصراً، وأصحو في الواحدة ليلاً لكي أتناول إفطاراً مبكراً أو عشاء متأخراً، لكي أتمكن من مغالبة الحرمان الذي لن يقوى عليه جسمي، فقال الأستاذ هيكل بابتسامة هادئة لا أثر فيها للفخر، إنه لا يشعر بأي حرمان لأنه تعود على هذا النظام من سنين طويلة، فتألفت معه معدته، ولم يعد يحس بأي تضحية، وقد اكتشفت بعدها أن الأستاذ أحمد رجب كان يسير على نفس الطريقة، ويتوقف عن الأكل من العصر مهما سهر، لكن الأستاذ هيكل كان أكثر انضباطاً من الناحيتين الغذائية والمائية، ولذلك لم تتدهور صحته بسرعة كما حدث لأحمد رجب.

كان من السهل بعد ما قاله الأستاذ هيكل أن أفهم لماذا بدا الأستاذ أحمد بهجت أكبر من الأستاذ هيكل بكثير، مع أنه أصغر منه بتسع سنوات فقط، لأنه ظل لعقود طويلة ينتمي

إلى مدرسة المحقر والمشقر التي تبدأ الأكل بعد الساعة الرابعة عصراً، وهي المدرسة التي ظلت أتشرف بالانتماء إليها، وغادرتها مضطراً بحكم المرض إلى مدرسة "اتعشى خفيف وما تاكلش قبل أربع ساعات من النوم"، عملاً بقول الحكيم كونفوشيوس: "من جار على شبابه شئت عليه شيخوخته"، صحيح أن كونفوشيوس لم يقل هذا الكلام، لكن أتمنى ألا يجعلك ذلك تتعامل مع نظامك الغذائي باستخفاف، وأن تدرك أهمية أن تبضن على نفسك قبل أن يبضن عليك جسمك.

(3)

يومها، استغرب صديقي النيويوركي حين عرف أنني حزين على رحيل المطرب الأمريكي الشهير كيني روجرز، واستغرب أكثر حين قلت إن معرفتي بكيني روجرز بدأت قبل سنوات طويلة من قدومي إلى نيويورك، لكنني لم أقل له إن معرفتي الوثيقة بكيني روجرز لم يكن لها علاقة بأغانيه ولا موسيقاه، لكيلا أفقد بنط العارف بموسيقى "الكانترى" التي أبدع فيها كيني، فيكتشف أنني لم أكن أعرف شيئاً من أغاني كيني روجرز، وأن علاقتي به جاءت من خلال "فراخه"، أو بمعنى أصح من خلال (روسترنز) مطعمه المتخصص في الدجاج المشوي.

في بداية هذه الألفية، وحين فتح ذلك المطعم الأمريكي فرعاً قاهرياً له في امتداد شارع نادي الصيد بحي المهندسين، لم يكن الذين لم يسافروا منا إلى بلاد بزه

يعرفون أنه مطعم مشهور له فروع في كثير من دول العالم. كنا نعرف فقط أن الفراخ المشوية التي يقدمها تعتبر نقلة حضارية شاسعة، مقارنة بالفراخ المشوية التي تعودنا على رؤيتها في المطاعم الشعبية وهي تلف حول الشواية الصدئة وتنزّ دهنًا وهرمونات، وأنها كانت أطعم من فراخ مطعم (تكّا) التي لا يطيب طعمها إلا حين تغرقها بما يباع معها من "صوصات"، وأنها كانت أنظف بكثير من فراخ (كنتاكي) صديق الإسهال الأول، ولم يكن وقتها مطعم (الطازج) قد فتح لنعرف أن فراخه المشوية برقبة باقي الفراخ من كل الأنواع.

أكثر ما لفتني في زيارتي الأولى لمطعم (روسترن) أن جميع حوائط المطعم ذي الدورين يوجد عليها صور مختلفة الأحجام لرجل ملتجٍ أشيب الشعر يبدو من خلال وقوفه أمام الميكروفون وإمساكه بال吉يتار أنه مطرب لم أسمع به من قبل، وتخيلت في البدء أنه "الشيفّ الخواجة" الذي يمتلك المحل والذي يهوى الغناء إلى جوار شوي الفراخ، ولأن العارف بالله مولانا (جوجل) لم يكن قد ترسخ حضوره في حياتنا ليغنيننا عن سؤال اللّثيم، فقد ترددت في سؤال الواقفين على (الكاشير)، لأنهم كانوا يتمتعون بخصلة تصيب أغلب من يعملون في المطاعم المستوردة من الخارج (الفرانشايز)، وهي التناكة الزائدة عن الحد التي تجعلهم يتعاملون مع أنفسهم بوصفهم موظفي سفارات مسئولين عن منح تأشيرات "الشينجن".

حين توسّمت اللطف في عامل كنت أسمىه (مدير عام السلّطات) لأنه كان يقف باستمرار على بوفيه السلطات الذي كان حدثاً ثورياً في مطاعم ذلك الزمان، كان عند حسن ظني وقال إن الرجل الذي تلتقطه الصور في كافة الأوضاع الغنائية هو بالفعل صاحب المحل، وأنه مطرب ذائع الصيت في أمريكا وبلاد الفرنجة، وأنه حين استلم الشغل ورأى لحيته تذكر على الفور المطرب سمير الإسكندراني، وحين سأل "حضرة الماندر المهم" عنه قال له إنه مطرب شعبي مهم في أمريكا مثل الأستاذين محمد قنديل ومحمد العزبي، ولأنه شعر أن ما قاله لي من معلومات لم يشبع فضولي، نصحني لكي أشبع أن أجرب اختراعاً لديهم يسمونه (المافين)، قائلاً إنه أحسن حاجة حصلت له من ساعة أن عمل في المطعم، وقد كان محقاً فيما قاله، لأنني بسبب ذلك "المافين" الرهيب المصنوع من الذرة أدمنت التردد على المطعم حتى أغلق أبوابه، وقد أغلقها سريعاً، ربما لأنه كان يقدم أكلاً صحياً وهو ما لا يستهوي عشاق الوجبات الجاهزة المرتبطة بالمرمة ووجع البطن، أو لأن المكان الذي فتح فيه لم يكن ينجح فيه بيزنس من أي نوع، وهي النظرية غير العلمية التي أميل إلى تصديقها، بدليل أن المكان نفسه شهد بعد ذلك افتتاح أكثر من مطعم فاشل.

حين بدأت إقامتي في أمريكا منذ خريف عام 2014، زرت مدناً أمريكية كثيرة، فلم أجد في أي منها فرعاً من فروع مطعم (روسترن) الذي كنت أتصور أنني سأجده في كل شارع

في أمريكا، وحين لجأت لشفيح الحيارى جوجل، قرأت أن كيني روجرز كان قد أشهر إفلاس سلسلة مطاعمه للفراخ المشوية داخل أمريكا في عام 1998، بعد منافسة شرسة مع سلسلة مطاعم تحمل عنوان (بوسطن ماركت)، كانت تقدم وصفة قريبة من وصفته، وأن موقفه التجاري ساء بعد أن قررت سلسلة مطاعم (كنتاكي فرايد تشيكن) تقديم صنف "فراخ روستد" شبيهة لوصفته، لكنه بعد أن أغلق أبوابه في أمريكا، فتح عدة فروع في إنجلترا التي كان كيني مطرباً محبوباً فيها، وكانت مصر محطة من محطات توسعه العالمي قبل أن يخذله محبو المقلبات لدينا، ربما لأن عشقنا للفراخ البانيه ضرب مراكز التذوق لدينا، لكن المفاجأة أنه كثر الدنيا في ماليزيا وحقق فيها نجاحاً كبيراً لم يكن يتوقعه أحد.

ولأنني لم أجد الخوخ رضيت بشرابه، وقررت أن أجرب فراخ (بوسطن ماركت) التي كانت سبباً في إفلاس كيني روجرز، فوجدت طعمها ماسخاً "وناقصة سوا"، وذكرني بالفراخ التي يقدمها مستشفى المواساة في اسكندرية لمرضاه، فلم أعد إليها ثانية، ومع ذلك كلما مررت إلى جوار أحد فروعها الكثيرة أجدها "شغالة زي الفل" ولا تنقطع أرجل الزبائن منها، وهو حظ لم تنله فراخ (روسترن) برغم ما تقدمه من سلطات وفيرة و"مافن" لذيذ، ليموت ذلك الرجل الأشيب المهيب عام 2020، وفي نفسه شيء من فشل فراخه المشوية التي أخذت حقها في "السوا" على الآخر، ومع ذلك لم يمش سوقها، فسبحان العاطي الوهاب.

(4)

حين كنا نحضر لتصوير فيلم (سيد العاطفي) اقترحت على صديقي المخرج علي رجب رحمه الله وفريق العمل أن نعرض دور العم الذي أثرى من أكل حقوق ابن أخيه على الفنان الكبير محيي إسماعيل، وأذكر أن بعضهم تحفظ لأن الدور كان يتطلب ممثلاً خفيف الظل لأدائه، لكي يعطي ما فيه من شر لمحة كوميدية، ومحيي إسماعيل في رأيهم "متخصص في الأدوار المركبة والسيكوباتية"، ولم يكونوا مخطئين في ذلك التسكين، لأن محيي إسماعيل نفسه هو الذي ارتضى تسكين نفسه في هذه الخانة الضيقة في جميع الحوارات التلفزيونية والصحفية التي كان يجريها والتي كان يتحدث فيها بجدية بالغة، قبل أن تتلبسه بعد ذلك بسنوات الروح العبيية التي جعلت حواراته التلفزيونية أكثر نجاحاً من بعض أعماله وأكثر إضحاكاً من أغلب الأعمال المعروضة في فترة تدهور الإنتاج الفني والكوميدي بالأخص.

قلت لزملائي إننا نحتاج في شخصية العم إلى الروح اللطيفة التي أدى بها شخصية الطالب المتشدد في فيلم (خلي بالك من زوزو) والتي اشتهرت بإفيه "جمعاء" التاريخي، لكي يعطي للشخصية الشريرة روحاً مختلفة، وطلبت أن يرسلوا له السيناريو على سبيل التجربة، وتحمس علي رجب لاقتراحي، وطلب من المنتج محمد السبكي أن يرسل السيناريو لمحيي إسماعيل، وبعدها بأيام فوجئت بعلي رجب يطلب مني أن أتصل بمحيي إسماعيل لأنه زعلان

مني جداً، وحين سألته عما إذا كان يعرف سبب الزعل، قال لي ضاحكاً: "هاسيبيها لك مفاجأة".

اتصلت بالأستاذ محيي وأنا أظن أنه سيعاتبني بسبب أن الدور ليس به أبعاد نفسية مركبة، لكنني في مكالمتي معه فوجئت فعلاً بأنه غاضب جداً لأنني عرضت عليه دور العم، ولم أعرض عليه دور بطل الفيلم سيد العاطفي، الذي قال إنه لا يجب أن يقوم بتأديته مطرب ليس لديه خبرة في التمثيل مثل تامر حسني، بل يحتاج إلى أدائه ممثل صاحب خبرة مثله.

في بداية المكالمة ظننته يسخر مني خصوصاً حين أخذ يقول لي بعتاب لطيف إنه كان يتوقع مني ككاتب مثقف أن أفهم إمكانياته الفنية بشكل حقيقي، ولا أقوم بتسكينه في أدوار صغيرة أقل من موهبته، وحين اتضح لي أنه يتكلم بجد، قلت له منبهاً: "لكن يا أستاذ محيي سيد ده طالب في الجامعة"، فأجهز محيي إسماعيل علي وعلى المكالمة بالضربة القاضية حين قال: "وانت مالك يا سيدي.. انت ليك إنني أقنعك بالدور وخلص".

بدا أن أي نقاش لا طائل من ورائه، فكتمت الضحك وقلت للأستاذ محيي إنني مقتنع طبعاً بقدراته التمثيلية الخارقة العابرة للأعمار، لكن المشكلة في إقناع باقي فريق العمل، لكنني سأحاول إقناعهم بذلك، فقال إنه على استعداد لأن يقوم بإقناعهم بتمثيل بعض المشاهد أمامهم، ثم طلب مني أن أمر عليه في منزله لكي آخذ نسخة من روايته (المخبول)

التي وصفها بأنها أول رواية أدبية يكتبها فنان عربي، فقلت له إنني متحمس لقراءتها وأنني سأعرض على محمد السبكي أن يقوم بإنتاجها بعد أن أكتب لها السيناريو، فشكرني على ذلك وقال إن هذا هو ما كان يتوقعه مني.

انتهت المكالمة دون أن نتفق سوياً على موعد للقاء، فلم أعد متأكداً هل كان يشغلني منذ البداية وكان يقوم بتطفيشنا بشكل لا يجعله يخسر المنتج الذي عمل معه بعد ذلك في مشروع آخر؟ أم أنه أدرك أنني كنت أشتغله في نهاية المكالمة بعد أن قررت عرض الدور على ممثل آخر، وبعد أن ذهب الدور بالفعل إلى الفنان الرائع وحيد سيف أصبح السؤال الأبرز الذي يشغلني هو كيف يمكن أن أجد طريقة للتعبير للأستاذ محيي عن رأيه في رواية (المخبول) ونصيحتي له بأن تكون أول وآخر رواية يكتبها.

(5)

يسألني صديق عن المقالب التي لا أنساها، فأقول له إن المقالب كثيرة، ما لا يمكن أن أنساه منها، حتى لو حاولت هي المقالب التي أخذتها في البشر وخصوصاً في الأصدقاء، وكنت على وشك أن أحكي له بعضها، لكنني افترضت أنه يبحث عن مقلب خفيف الظل لا يقلب عليه المواجه، ولذلك حكيت له عن مقلب عمله في العم صلاح السعدني، مع أنه ظل متمسكاً لفترة بأنه لم يكن يقوم بعمل مقلب، بل كان ينصحني لوجه الله تعالى.

كنت ذات يوم من أيام البطالة في تسعينات القرن الماضي، أزور عم صلاح في استوديوهات صوت القاهرة بالعباسية التي كان يصور فيها مسلسلاً مع الفنانة نيللي من إخراج المخرج الكبير أشرف فهمي، وخلال جلوسنا في فترة استراحة من التصوير، دخل رجل أشيب مهيب الجناح متجههم الملامح وألقى السلام على الجميع، وبدأ لي من طريقة سلامه وكلامه أنه يعرف الجميع جيداً، وحين استأذن عم صلاح وترك القعدة، فوجئت أنه يشير لي لكي ألحق به إلى خارج الاستديو، وحين فعلت انتحى بي جانباً وقال لي بصوت خفيض إنه خرج لكي يحذرنى من الرجل الذي دخل لأنه للأسف الشديد "نحسوئي"، ولم أكن قد سمعت ذلك المصطلح من قبل، لكنني فهمت من شرحه أن ذلك الرجل يشاع عنه منذ سنوات أنه يصيب بالنحس المبين كل من يراه، وأن هناك طريقة مضمونة لفك أثر ذلك النحس وهو أن تقوم بلمس خصيتك الشمال على الفور دون أن يأخذ باله أحد من ذلك، وبشرط أن يحدث ذلك في خلال دقيقة بالكثير من رؤيتك له أو ورود اسمه في الحوار بأي شكل.

كان عم صلاح يتحدث بجدية، لكنني افترضت الهزل في كلامه لأنني أعرفه رجلاً لا يؤمن بالخرافات، فسألته ساخراً: "طيب والستات بيفكوا النحس إزاي لما بيشوفوه؟"، فاتهمني بالتساهل في موضوع خطير وقال لي إن هذا الرجل مشهور بأنه يصيب الرجال فقط بالنحس، وأن تأثيره لا يمتد إلى النساء، وأنه أخذ هذا الموضوع باستخفاف في السابق مثلما

أفعل الآن، ثم دفع ثمن ذلك الاستخفاف.

قبل أن ينصرف العم صلاح عائداً إلى الاستديو، ذكرني بأهمية أن أطبق نصيحته حين أعود لرؤية الرجل، بشرط أن أفعل ذلك سريعاً وبشكل غير ملحوظ لكيلا يفهمني الحاضرون خطأ، خصوصاً من السيدات، وحين لاحظ عم صلاح أنني لا زلت آخذ الموضوع بهزار، طلب مني أن أسأل الأستاذ عادل إمام الذي كنت سألتقي به ليلاً، لأنه يعرف جيداً قصة هذا الرجل الذي لا ذنب له في تلك اللعنة التي اختصته بها الأقدار، والتي قد لا نفهم لماذا ابتلي بها دوناً عن غيره، لكن من واجبنا أن نحمي أنفسنا من آثارها.

بالطبع، حين حكيت القصة لعادل إمام من باب التريفة والتأليس، فوجئت به يمد يده تحت الطرابيزة وقد ظهرت على وجهه أمارات التوتر، قبل أن يقول لي بجدية إنني لا يجب أن آخذ هذا الموضوع باستخفاف، لأن الإيمان بالعلم لا يتناقض مع الاعتقاد في بعض خوارق الطبيعة التي سيقوم العلم يوماً ما بتفسيرها، وربما يحدث ذلك بعد أن نموت، والمشكلة أن استخفافنا بالنصائح التي جربها السابقون لنا في هذا المجال يمكن أن ندفع ثمنه غالياً، وبالطبع لم يكن ممكناً بعد كلام عاقل كهذا إلا أن أمد يدي أنا الآخر تحت الطرابيزة وأقوم بتنفيذ نصيحة عم صلاح التي استمرت معي لسنوات.

بعدها بسنوات اعترف لي الأستاذ عادل أن تلك النصيحة كانت تشنيعة اتفق عليها مع صلاح السعدني، لأن ذلك

الرجل كان شريراً معهما أيام الشباب، أما عم صلاح فقد أنكر ذلك وظل يؤكد لي أنه كان ينصحنى خوفاً علي من ذلك "النحسوئي" الذي لم أعد أراه منذ زمن بعيد، لكنني لا أملك نفسي كلما جاءت سيرته أو حضرت بعض أعماله على الشاشة من تذكر نصيحة عم صلاح وتطبيقها من باب الاحتياط، وبما أنني لم - ولن - أذكر اسمه فأنت لحسن الحظ لست مضطراً لتطبيق تلك النصيحة.

(6)

كنا سهرانيين ليلتها في قهوة الفيشاوي في الحسين مع صحبة جميلة من الكتاب والفنانين المتجمعين على شرف العالم المصري الجليل الدكتور أحمد زويل، والذي كنت أيامها أعمل على مشروع فيلم عن حياته لم يكتمل مع الأسف. بعد أن انتهت سهرتنا، تمسينا قليلاً في خان الخليلي والشوارع المحيطة به، وكان الدكتور زويل يحكي لنا بحماس عن السعادة التي تغمره حين يتمشى في القاهرة القديمة ويتفرج على تفاصيلها المدهشة، وفجأة ونحن في شارع جوهر القائد، وقف الدكتور زويل أمام عمارة، وأشار بدهشة إلى لافتة معلقة خارج شقة في الدور الثاني كتب عليها كلام من نوعية (الدكتور فلان الفلاني، علاج البواسير بدون جراحة ولا منظار ولا أعشاب).

قرأ الدكتور زويل المكتوب على اللافتة بصوت عالٍ ثم سألنا بجدية بالغة: "يعني إيه؟ طيب بيعالجها إزاي لازم أفهم"، ولولا أن الساعة كانت قد وصلت واحدة بالليل، لكان

قد طلع إلى العيادة ليفهم من ذلك النطاسي البارع طريقة علاجه التي يمكن أن يكسب بها جائزة نوبل في الطب ويصير زميلاً للدكتور زويل في نادي نوبل، ومع أننا أخذنا الموضوع بهزار، إلا أن الدكتور زويل أخذ الموضوع بجد وبدأ يسأل عن الأسباب التي تسمح لشخص أن يكتب إعلاناً كهذا وعن الجهة التي تمنحه الحق أن يكتب ما يخدع به الناس، وحين بدأ يسأل عن دور نقابة الأطباء ويقول كلاماً يليق بشخص طالت غربته عن بلاده، قررت تخفيف الموضوع بأن اشرح له بشكل منضبط تصوري لطريقة علاج البواسير بالأصابع المجردة، والتي تنتمي إلى التراث الشعبي بشكل خاص وتراث الإنسانية بشكل عام، فنظر لي الدكتور زويل مستغرباً وبدأ أن الموضوع لا يقبل الهزار لديه.

بعد قليل دخل في الكادر رجل بشوش بهي الطلعة عريض المنكبين يحمل سبع أو ثماني لفات ورقية، وقام بمد يديه بها للدكتور زويل، واتضح أنه فطاطري يقع محله بجوار العيادة التي كنا نقف أمامها، وأنه أراد أن يعبر عن محبته لابن مصر النابغة، فقام بعمل لفّة فطير كان قد طلع من الفرن لتوه ويفترض أن يذهب به لزبائنه، فقرر تأجيل طلبياتهم وإهداء الفطير الجاهز للدكتور زويل الذي اعتذر له، لكن الرجل رفض اعتذاره ورأسه وألف سيف أن يأخذ الدكتور زويل الفطير معه أو يجلس ليأكله في المحل، ليتفاوض الدكتور زويل معه على عدد الفطير الذي سيأخذه كهدية، قبل أن يستغل فرصة لطف الرجل ويقرر سؤاله عن دكتور البواسير ولافتته

العجيبة، ليقول له الفطاطري بكل حماس وود: "ده راجل
شكّرة ومجدع وكل الناس بتحبه بس ربنا ما يحوجك وتروح
له يا دكتور"، ولم يكن ينفع بعد كريزة الضحك التي انتابتنا
جميعاً أن يأخذ الدكتور زويل الموضوع بجد، فمشينا حاملين
ما تم الاتفاق عليه من الفطير.

حتى الآن أتحسر على ضياع فرصة اللقاء التاريخي الذي
كان يمكن أن يحدث بين الدكتور أحمد زويل عليه ألف رحمة
ونور، وذلك الدكتور الذي يعالج البواسير دون جراحة ولا
ليزر ولا أعشاب "ربنا ما يحوجكوا وتروحوا له".

كيف ساعدتني أم الكباتن على مواجهة الخوف من الموت؟

"عادي يعني زي أي حد"، قلت لطبيبي حين سألتني عما إذا كنت قد أصبت من قبل بحالة الخوف من الموت. الكل يخاف من الموت يا دكتور حتى وإن زعم غير ذلك. قال إنه يقصد الخوف المرضي الذي يشتبه أن يكون سبباً في الأعراض التي شكوت له منها، قلت إنني عرفت من قبل أصدقاء يعانون من أنواع من الخوف المرضي بشكل أعاقهم عن الحياة الطبيعية، وبدا لي أنني محصن من مثل ذلك، وقبل أن أحكي له عن خوفي المتزايد مؤخراً من الغرق، قاطع استرسالتي الذي لا يصلح في عيادة تشغي بالمرضى، وقال إن التحاليل والفحوصات التي أجراها كلها مطمئنة، باستثناء جلطة ظهرت في إحدى شرايين الرقبة.

قبل أن ألطم بحجرين فور سماعي لكلمة "جلطة" الجديدة لانج على سجلي الصحي، قال إنها جلطة بسيطة لا تستدعي الكثير من القلق، وتحتاج فقط إلى تناول الأسبيرين بانتظام، لكنه طلب زيارة طبيب قلب وعمل رسم قلب مع المجهود، وقال إن زيارته ربما تفيد في فهم ما حكيت له عنه، أما لو جاءت نتائج الزيارة مطمئنة سيكون علي أن أراجع طبيباً نفسياً لعله يفهم سر إحساسي المتكرر خلال الأسابيع الأخيرة بأن روحي "يتسحب مني وأنا نائم"، وهو تعبير لم يكن ممكناً أن أستخدمه بسهولة في عيادة بنويويورك، لو لم يكن

طبيبي المعالج مصرياً من شبرا، يعرف الفوارق الدقيقة بين أن تنسحب روح الإنسان منه، وبين أن "يسورق" أو "يسخسخ على روحه".

تعامل طبيبي مع شكواي بجدية، لأنه لم يلمس في خلال سنين تعاملتي معه أي رغبة في التمارض، كما أن المناخ العام لم يكن مناسباً لأي علوقية طبية، فقد كنا في أول أيام الوباء الذي سيتحول إلى جائحة، ولم يكن التنطيط بين العيادات ومراكز التحليل والأشعة أفضل قرار مناسب للمرحلة، وكان يجدر بي أن أؤجل البحث عن حل لمشكلتي حتى ينجلي غبار الوباء، لكنني لم أستطع مغالبة تداعيات تلك الحالة اللعينة التي كانت توقظني من النوم أكثر من مرة وأنا أحاول أخذ نفسي وأقرأ الشهادتين وأفتح عيني لأتأكد أنني لا زلت من أهل الدنيا، ثم أقول لزوجتي المرتعبة من حالي إن كل شيء تمام وأن عليها ألا تقلق لأنها بالتأكيد حالة عابرة لا يعقل أن تستمر فترة طويلة.

لم أجد موعداً قريباً لدى طبيب القلب، وفي انتظار المثل في حضرته، قررت لعب دور الطبيب النفسي مبكراً، وأخذت أبحث عما يمكن أن يكون سبباً نفسياً لحالتي، ولم يكن تخمين ما جرى صعباً وقد أخذت في أقل من شهر خبطتين وراء بعض، الأولى كانت الرحيل الفاجع لصديقي القديم المخرج علي رجب. كانت تصاريف الحياة قد فرقنا قبل أن أغادر مصر، وكنت أسأل عنه أصدقاءنا المشتركين فأسمع أخباراً لا تسر عن تعثر مشاريعه الفنية. حاولت قبل رحيله

بسنتين أن أتواصل معه لكنه لم يرد على رسائلي، لم يقل لي أحد إنه كان يشكو من مشاكل في القلب لأنه لم يكن يبوح بهمه لأحد، ولم يكن أحد يراه إلا كما عرفته، ضاحكاً صاخباً مفعماً بالحياة، ولذلك صعق كل من عرفه حين عرفوا أنه أهمل في العلاج ولم يحتمل الضغوط العصبية التي واجهها عملياً وعائلياً، فخذله قلبه وهو يركب سيارة أجرة عائداً من رؤية أبنائه، ليرحل إلى رحاب الله قبل أن يكتب لنا لقاء جديد، كنت أتصور أنه يمكن أن يحدث لو جاء لزيارة بنت أخته المقيمة في ولاية قريبة.

الخطبة الثانية كانت الرحيل الفاجع للمخرج السوري الكبير حاتم علي وهو في قمة عطائه ونشاطه. لم يكن حاتم صديقاً مقرباً لي مثل علي رجب، كنت واحداً من جمهوره المتيم بأعماله العظيمة، ثم تشرفت بمعرفته عن قرب فأحبته أكثر بعد أن جمعتنا عام 2007 تجربة العمل على فيلم سينمائي كان بالمناسبة يدور حول تجربة الموت التي تزلزل أسرة تصورت أنها حازت السعادة إلى الأبد، قبل عرض المشروع على حاتم، كان يفترض أن يقوم ببطولة الفيلم أحمد زكي لكنه مات قبل أن يتحقق حلم العمل معه، وحين جاء حاتم بدأنا العمل على المشروع مع خالد صالح، لكن وفاته المفاجئة أدخلت الفيلم في غيبوبة لم يفق منها حتى الآن، لكنني كسبت صداقة حاتم وكان يفترض أن نعمل على مشروع تلفزيوني آخر، ثم انقطع تواصلنا واستعدناه بعد أن هاجر إلى كندا، وظننت أن حظي ابتسم حين جاءت فرصة العمل

مجدداً معه في مشروع سينمائي كبير لأفيق من أحلامي على خبر رحيله الفاجع.

لم يكن رحيل علي رجب وحاتم علي أول اختباراتي مع الفقد ولا أقساها برغم محبتي البالغة لهما، وقد قلب رحيلهما مواجعي على فراق الأساتذة والأصدقاء علاء الديب ومحمود عوض وأحمد زكي وأسامة أنور عكاشة وأحمد فؤاد نجم وعمار الشريعي وعبد الرحمن الأبنودي والبراء أشرف وحنان كمال، فقضيت أيامي وليالي في بكاء مرير ودعاء متواصل وذكريات تجدد بهجتها سحجان الدموع وبحث عن صور ورسائل وأوراق قديمة وتواصل مع الأهل والأصدقاء المشتركين لتقديم العزاء ومحاولات فاشلة للكتابة تؤجل إلى حين يهدأ فيه الحزن وتصبح الكتابة ممكنة، ولم يخطر على بالي أن حزني سيلقس هذه المرة مع هواجس دفيئة باتت تتضاعف في السنوات الأخيرة، ليتحول إلى خوف مستمر من الموت يطبق على صدري ويحرمني صفو النوم.

كنت قبلها بأشهر قد أخذت قراراً متهوراً بالتوقف عن تقديم البرامج التلفزيونية والتفرغ الكامل للكتابة، لعلي أنجز أحلاماً تأخرت لسنوات على رأسها كتابة الرواية والعودة إلى كتابة السيناريو، حتى لو لم ينقذ ما كتبه. لم تكن المخاطرة سهلة لكنها كانت محسوبة على الأقل، وكنت أستعيد بها الحالة التي جعلتني قبل عشرين عاماً أختار التوقف عن العمل في الصحافة وإعداد البرامج لكي أتفرغ لكتابة السيناريو في قرار اعتبره كل أصدقائي حماقة تامة في ظل ضبابية كل

الفرص وفشل المحاولة تلو الأخرى، ثم ثبت أنه كان أفضل قرار اتخذته في حياتي وقتها، لكن هل حسبتها غلط هذه المرة؟

من قال إن طاقتي وصحتي الآن سيتحملان عواقب المخاطرة؟ هل سيخذلني مبدئي المفضل "ابداً من جديد"؟ هل سأتمكن من الوفاء بالتزاماتي تجاه أسرتي؟ هل سأسامح نفسي لو فشلت في إكمال مهمتي مع بناتي؟ لو مث كيف سيكون حال حبيبتي وشريكة حياتي داليا بعد أن أرحل؟ هل سأرى أُمي بعيداً عن المكالمات العابرة للمحيطات والتي تبهدلها رداءة الإنترنت؟ هل سأقع في فخ الديون لأول مرة في حياتي؟ وكل هذا كوم يختلف عن كوم أسئلة الكتابة التي تتجدد مع كل فقرة، بل ومع كل سطر.

ثم ماذا عن أسئلة الجدوى والخلود والمعنى التي تعشق النفس الهروب إليها ساعة الزنقة؟ ماذا عن الكتب والمجلدات التي تطل من المكتبة تحتج على ركنها على الرفوف وتسألك إذا كنت ستقرأها قبل أن تتكل على الله؟ ماذا عن السيناريوهات والقصص المحبوسة في "فولدرات الكومبيوتر" إلى حين لا يعلمه إلا الله؟ ماذا عن اضطرارك في كل يوم لكتابة شيء جديد يرضيك ويعجب قراءك ويساعدك على الاستمرار في العمل الوحيد المتاح؟ وإذا كنت قد كبرت وعقلت على الأسئلة الوجودية الكبرى التي أفنت أجيالاً قبلنا، فهل يمكن أن تتجاهل الأسئلة التي تثيرها حملات التخوين والتكفير التي لا تتوقف بعد كل كتابة لا تأتي على المزاج؟

وبما أن الله أكرمك فتجاوزت الحنين إلى الماضي وقررت أن تواجه ببسالة رزالة الحاضر، فكيف يمكن أن تتجاوز الخوف من الآتي وهو يطبق على صدرك كل ليلة؟

ساعدتني استعادة كل هذه الأسئلة على فهم حالتي المقبضة، لكنها لم تساعدني على تجاوزها. أصبحت أعرف لماذا أصحو من النوم مفزوعاً لكنني لم أعد مهتماً بالفهم قدر اهتمامي باستعادة القدرة على النوم العميق لكي أؤدي ما أنا ملزم بأدائه من مهام لا تحتل التأجيل. فشلت كل نصائح الأهل والأصدقاء وجوجل في التصالح مع النوم وتجاوز الخوف من الموت، وبقي الأمل الأخير في مساعدة الطبيب النفسي وعقاقيره بعد التأكد من سلامة شرايين القلب وأورده، لكن أم الكباتن جاءت لتعفيني من زيارة الطبيب النفسي، ووجدت عندها حكمة شافية لمست صداها فيما بعد لدى الفيلسوف الشهير سبينوزا، ولكن بعد أن زالت الغمة وتصالحت مع النوم وانتفتحت حاجتي - ولو مؤقتاً - إلى الطب النفسي والفلسفة.

(2)

هل يرسل لنا الكون رسائل تضامن غامضة في أوقات الشدائد، أم أننا نتوهم ذلك لكي نضفي على عبثية واقعنا بعض المعنى؟

بعد أن انتهى لقائي القصير والمؤثر بـ "أم الكباتن" فكرت في هذا السؤال وأنا أستعيد ما روته لي عن حياتها، وتذكرت

ذلك الرجل مهيب الطلعة نوراني الوجه الذي قابلته ذات ليلة شتاء، في عام 1994، حين كنت أجلس "متفرداً بكأبتي وصبابتي وعنائي" في ركن قهوة وضیعة مجاورة لمجلة (روز اليوسف) التي كنت أتدرب فيها خلال دراستي الجامعية.

كنت أشعر بالإحباط المبین بعد فشل أول قصة حب عبيطة في حياتي، وإدراكي أن العمل بالصحافة أصعب وأعقد بكثير مما تخيلت. كان الغم على وجهي أوضح من أن يحتاج إلى تفسير، ولذلك لم أستغرب حين بادرنی الرجل قائلاً: "ما تقلقش يا كابتن، هتفرج من وسع والله"، وقبل أن أجيبه ولو حتى بإيماءة، أضاف كأنه يعرف تفاصيل ما أعانيه: "لو ليك خير فيها كان ربنا نولها لك، ولو كانت شر فربنا نجاك منها، وفي كل الأحوال يلعن ميتين أبوها"، ثم أخذ بعضه وساب القهوة.

لم يكن فيما قاله سحر ولا شعوذة، لكنه بخفة مدهشة أزاح حجر كآبة كان يطبق على أنفاسي، بالطبع لم تتلاش على الفور أسباب حزني أو دواعي قلقي، لكنني أصبحت أهدأ وأكثر قدرة على التعامل مع أزمتي، لمجرد أنني سمعت تلك الكلمات البسيطة ذات القفلة الحزقة التي أطلقها الغريب العابر الذي رأى بعض أصدقائي المتشككين في أحقيتي بأي كرامة أو إشارة كونية أنه لم يكن موجوداً من أصله وأنني تخيلته، فما الذي يدعو رجلاً نوراني الوجه مهيب الطلعة للجلوس في قهوة معفنة كتلك، وبعضهم الأكثر تعقلاً وتعاطفاً

قال إن كلمات الرجل - لو صدقنا وجوده - تنطبق على أي شيء في العالم، وأنه ربما كان يظن أنني حزين على سرقة محفظتي أو نتيجة امتحانات نصف السنة، أو ظن أنني مقدم على الانتحار فقرر إراحة ضميره وقال لي ما فيه النصيب، وأنه بدلاً من أن يلعن "ميتين أبوها"، كان ينبغي أن يلعن سنسفيلي أنا، ويختم كلامه قائلاً: "ما تسترجل يا خيبتها وشوف هتدفع إيجار شقتك إزاي أول الشهر".

بعكس ذلك "الرجل نوراني الوجه"، كان دخول "أم الكباتن" المفاجئ في حياتي أقل درامية وأكثر عبثية. كانت زحمة عيادة طبيب القلب قد خفت، وكنت منهمكاً في قراءة كتاب (حرز مكمكم) الذي روى فيه الروائي أحمد ناجي تجربته المريرة والعبثية في سجون مصر. بالطبع لم يكن من الحكمة أن أقرأ كتاباً عن السجون وأنا أجلس في انتظار إجراء رسم قلب بالمجهود، لكن الكتاب الممتع أجبرني على استكمالها، فاعتبرت أسى حكاياته جزءاً من المجهود الذي سأواصل بذله حين يأتي دوري في الكشف.

توقفت عن القراءة حين انبعث من خلفي زياط معلق كروي عربي يغالي في مديح محمد صلاح الذي أحرز للتو هدفاً في إحدى مباريات ليقربول في الدوري الإنجليزي. نظرت إلى مصدر الصوت فوجدته ينبعث من موبايل سيدة خمسينية محجبة حثوبة الملامح كلبوطة الوجه، بدا أنها تحاول ضبط فرحتها بالهدف وصاحبه، ولو كان عليها لوقفت في العيادة وشفقت وهلت وشاركت المعلق في زياطه، لكن صوتاً غاضباً

قطع بهجتها وطلب منها خفض صوت الموبايل أو وضع السماعات، لتعتذر له ولمن حولها بإنجليزية متعثرة، وتقول مبتسمة إنها نسيت السماعات في البيت ولم يكن ممكناً أن يفوت عليها الماتش المهم.

شجعني جفاء من حولنا على تطيب خاطرها بكلمتين، فقلت لها "ولا يهملك"، وحين نظرت إليّ تعرفت عليّ فاتسعت ابتسامتها ونهضت لتسلم عليّ بحفاوة وتجلس إلى جوارى وهي تقول إنها بلدياتي من الإسكندرية، لكنها من حي السيوف، أما أنا فمن "محرم بيه، لو أنا فاكرة صح"، وقبل أن يخف حرجي من حفاوتها، فاجأتني حين قالت إنها كانت تتابعني في برنامج "عصير الكتب أيام دريم"، وأنها ورثت حب القراءة عن أبيها العامل المثقف الذي كان يحب تضييع فلوسه على الكتب والجرائد والمجلات، وأنني كنت أساعدها على تعويض انقطاعها عن القراءة بحكم مسئوليات العيال وأبوهم.

حين بدأ حديثنا كتمت السيدة اللطيفة صوت الموبايل، واكتفت بالنظر إلى الماتش من حين لآخر للاطمئنان على استمرار تقدم محمد صلاح، "باشجع ليقربول عشانه مخصوص، ربنا يحميه ويفرحه زي ما بيفرحنا"، ولم تكن بحاجة إلى مقدمات لتترك سيرة محمد صلاح وتتدفق في حكي عذب لم تكن تدرك أنني كنت أحوج ما أكون إليه، ليس فقط لكي أغالب زهق الانتظار المقيت في العيادة، وإنما لكي أتذكر بفضلها بديهيات الحياة التي أنسانها الخوف من

(3)

كان حلمها أن تكون مدرّسة لغة عربية، لكنها خرجت من "ثانية كلية تربية" بعد أن تعرض أبوها العامل المكافح لوعكة صحية دفعته لحثها على الزواج لكي يطمئن عليها قبل أن يموت، فتزوجت مرشداً سياحياً من أقارب الأب الذي رأى أنه ابن حلال وسيصونها، وقد كان عند حسن ظن الأب وزيادة، أنجبت منه ثلاث أولاد "فوق رؤوس بعض"، وعوّضتها جدعنة الزوج ومحبة الأولاد عن خيبة أملها في مستقبل مختلف عما وجدت عليه أمها وخالاتها وسائر نساء عائلتها.

عاشت عمرها كله في حي (السيوف شماعة) البعيد عن قلب الإسكندرية، يعني، أقصى مكان كانت تذهب إليه حين تفارقه هو (دوران الساعة) لتقضي طلبات العيال إن انشغل الزوج، تقول "يا غربتي" حين كانت تذهب مع العيال في الأعياد إلى محطة الرمل أو المنشية أو قلعة قايتباي أو حتى إلى حدائق المنتزه الأقرب، وحين تعود إلى شارعها الضيق الذي لا يعرف أغلب الاسكندرانية موقعه من الخريطة، كانت أحياناً تشعر بالسخط لأنها تعيش "محدوفة في آخر الدنيا"، لكنها كانت تسارع في الاستغفار وتحمد الله على الصحة والستر والزوج الجدع والأولاد الذين يفرحون القلب والأم الحنينة التي تسكن قريباً منها، ولم يكن يخطر على بالها أنها حين تفارق ما ألفته، ستنتقل إلى نيويورك مرة واحدة.

حين تدهورت أحوال السياحة بعد الثورة، وقف حال زوجها وتعرضت الأسرة لهزة مادية عنيفة، وحين لم يصادف زوجها الحظ في أكثر من شغلانة ارتضى بها مع أنها لا تليق به، قرر أن يغامر ويلحق بابن عمه الذي سافر إلى نيويورك أيام الرخص، وبات يمتلك حصة في مطعم ناجح للأكل الحلال في نيويورك، وبجدعنة غير معهودة وعد بأن يساعده في الدخول الشرعي للبلاد، وإن كان قد حذره بأنه سيقصر عليه في العمل حبتين لأنه سيفتح فرعاً جديداً للمطعم، وسافر الزوج وتحمل رزالة ابن عمه، وحين مشى حاله في الشغل وفتح الله عليه، أدرك استحالة العودة إلى كرب مصر الذي يزيد يوماً بعد يوم، فبعث إليها بعد عامين لتلحق به مع العيال، ويلتم شمل الأسرة وراء الأطلنطي.

لم يكن الانتقال من السيوف إلى نيويورك سهلاً عليها، فالزوج المخنوق من جيرة أبناء جلدته، اختار أن يبتعد بأسرته عن (أستوريا) أو (بي ريدج) حيث تكثر العائلات العربية في نيويورك، واختار سكناً في حي أغلب سكانه صينيون ومكسيكيون، مبرراً ذلك بأن الإيجارات أرخص في المنطقة. انزعجت في البداية لأنها كانت تأمل في جيرة أكثر وداً، لكنها ارتاحت حين وجدت أن إنجليزيتها المكسرة أفضل بكثير من جيرانها، ووجدت طريقة للتفاهم معهم باللغة العالمية الأكثر انتشاراً، لغة ربات البيوت القائمة على تبادل الأطباق والوصفات وصور الأولاد، وأصبحت مع الوقت تساعد بعض جاراتها في تحسين لغتهن مثلما حسنت هي

مستواها بمساعدة أقرب أصدقائها في نيويورك: اليوتيوب.

أحب الأولاد سكنهم الجديد من أول نظرة، لأنه جاور ملعباً لكرة القدم اهتم بتطويره مكسيكيو الحثة الذين ليس لهم في البيسبول والفوتبول الأمريكي، كان الأولاد محظوظين لأن وصولهم إلى أمريكا ترافق مع زيادة اهتمام الأمريكيان بالـ "Soccer" بعد أن كسب فريقهم النسائي كأس العالم. نفعت العيال مهاراتهم في الترقيص والتغزل والتنطيق التي تعلموها في حوارى السيوف، والتي لم تجد هنا مصفقين ومهللين فقط، بل ومهتمين بدعم موهبتهم التي يمكن أن تساعد في الحصول على منح دراسية في جامعات بدأت تهتم أكثر بالعبة، وحين تزامن ذلك كله مع انفجار نجومية محمد صلاح الذي شاركت الأم أبناءها في متابعته بشغف، جعلها ذلك تساندهم في مواجهة الأب الذي لم يكن مبسوطاً بلعب العيال الذي يمكن أن يعطلهم عن الدراسة والنجاح في الغربية التي سيعيشون فيها منافسة لا ترحم، ونجحت في إقناع الأب بدعم أولاده والتوقف عن تقطيعهم في الراحة والحماية، لكن دعمه لم يصل إلى درجة مشاركتها في إيمانها القاطع أن "محمد صلاح الجاي" سيكون واحداً من أبنائها أو ربما جميع أبنائها.

عاد الغم إلى حياتها بعد غياب ظنت أنه سيطول، حين ماتت أمها التي كتمت لفترة طويلة تدهور حالتها الصحية عن ابنتها، ليأتي خبر رحيلها صاعقاً فترقد طريحة الفراش. ساندها الزوج الذي سمح لها بأن تعود إلى السيوف وتظل

فيها لأشهر متحملاً مسئولية أولاده الذين لم يكن ممكناً أن تنقطع دراستهم وتدريباتهم لو سافروا معها. لم تهناً بالعودة إلى السيوف، فقد قطع موت أمها صلتها بعالمها القديم الذي لم يعد لها فيه الكثير. عادت إلى حضن زوجها وأولادها في "العالم الجديد"، محاولة تخفيف اللوم عن نفسها لأنها لم تكن إلى جوار الأم في أيامها الأخيرة، ودفنت همها في شغل البيت والاهتمام بالعيال وطلباتهم المتزايدة، وحين بدأت تشعر بالإرهاق والدوخة وارتفاع ضربات القلب، لم تطلب المساعدة، وكأي أم مصرية صالحة احتفظت بمتاعبها لنفسها وكابرت إلى أن وقعت مغشياً عليها وأسعفوها إلى المستشفى ليكتشفوا أن لديها مشكلة في الشريان التاجي ورثتها عن الأب الذي جابت أجله نوبة قلبية مفاجئة.

(4)

"العيال قلبوها مناحة وكانى خلاص قدامى شهرين وهاتكل على الله، انت فاهم بقى، الفرجة على الأفلام الأبيض والاسود برضه لحست مخنا في موضوع القلب، أبوهم برضه اتربع علي، بس قدر يخبي ويبين إنه مش خايف، بس أنا برضه حاسة بيه، تلاقيه بيندب حظه إنه اتجوز واحدة بدل ما تشيله بقت لوحدها شيلة، بس حق ربنا بيحاول يريحني على الآخر، لكن أنا مش هاقعد بروضة في البيت لا شغلة ولا مشغلة، أصلا ده مش صح، لإن القعدة بتعطيني، بس مش باقرص على نفسي في الشغل، باخد أدويتي وأسمع كلام الدكتور من غير فذلكة، من كرم ربنا إنه رزقني بدكتور من

دما ولحمنا، بيقول لي اللي فيها بس من غير ما يرزع الكلام في وشي زي الدكاترة الأمريكان، الحمد لله، الموضوع مقدور عليه، وممكن يحتاج أركب دعامة، المشكلة بس إنني مش عارفة أخس، الله يسامحهم بقى أبويا وأمي، ورثت منهم الضغط والسكر والقلب والتخن فوق البيعة، بافكر أعمل عملية عشان أخس بس من ساعة ما قرئت عن اللي بيموتوا وهما بيعملوها، قلت لأ بلاش الواحدة تروح للموت برجليها، ييجي هو في المعاد اللي ربنا كاتبه".

حاولت دعمها باستدعاء بعض تجارب من تصالحوا مع الأزمات القلبية المتكررة وعاشوا أطول مما كان يظن أطباؤهم مثل الأستاذين عمار الشريعي ووحيد حامد، وقبل أن أسترسل قاطعتني قائلة إن أخطر خطأ يمكن أن يرتكبه مريض القلب هو الطمأنينة أو الأمل في حدوث معجزة تجعل حظه أفضل من غيره، لأن ذلك سيجعله يثق في ماكينة خربانة وينهار في أقرب فرصة، لذلك قررت أن تتصالح مع حقيقة أن الموت يحيط بها طيلة الوقت وأن عليها أن تحترمه بالتعايش مع كونه أقوى بكثير منها، وتذكر نفسها بأنها لا تملك في مواجهته إلا استثمار كل لحظة حياة متاحة لها لكي تكون أكثر قرباً من زوجها وأبنائها.

أحزنها أنها لم تعد تستطيع حضور مباريات وتدريبات الأولاد لأنها لم تعد تتحمل الانفعال كلما سقط أحدهم على الأرض في التحام غبي أو عرقلة خبيثة، "الدكاترة بتهزّر طبعاً، يعني إيه أم تبطل انفعال، دي تبقى أم إزاي، أنا قلت

له بص يا دكتور ممكن تقول لي خفي الانفعال، قليه شوية، لكن أبطل انفعال، مش زرار هو يعني هادوس عليه، ما كانش حد غُلب"، تقول بحدة، ثم تضحك وهي تستدعي زوجها الجدع الذي أصبح يعاونها في شغل البيت وهو الذي كان لا يشيل كوباية من مكانها، لكنها تشكو من عدم تعامله الواقعي مع فكرة الموت، وكراهيته لأي نقاش تفتحه حول مكان دفنها، "خدت قرار خلاص، هاتدفن هنا جنب ولادي، أصل يعني لو اتدفنت جنب أمي وأبويا، مين هيزورني هناك، اخواتي ملهيين بحالهم وعيالهم، مش عايزة العيال تضطر ترجع مصر عشان يزوروا قبر أمهم، افرض اتحبسوا هناك وما عرفوش يرجعوا، أبقى جنيت عليهم بعد ما مٲ".

حكّت لي ضاحكة عن أخيها الذي لا يكف عن تحذيرها من البقاء في أمريكا لكيلا تخسر أخلاق العيال، وهو لا يعرف أن أخلاق عياله "أوسخ من الوساخة"، ثم تقول كأنها تطمئن نفسها "أهو هنا لما ياخدوا الجنسية هيبقى ليهم حقوق يطلبوها من غير ما ضابط يضربهم على قفاهم ولا أمين شرطة يعمل عليهم ذكر في لجنة، خليهم هنا أحسن وربنا هيصالح حالهم ومش هيخيب أملي فيهم، أنا بس كل اللي طالباه من ربنا ما يورثوش مني لا القلب ولا السكر ولا الضغط، نفسي أحرّمهم من الميراث المهبب ده، ده كل اللي خايفة منه، ويا سلام بقى لو ربنا يكرمني لغاية ما أشوفهم ناجحين وكل واحد فيهم فاتح بيت، لو ما حصلش نصيب يبقى خلاص، آديني فرحت معاهم وبيهم، وأهم حاجة إني

بعد ما أتكلم على الله هيفتكروني بالخير زي ما بافتكر أبويا وأمي، ياما في عيال ما بيفتكروش لأهاليهم إلا النكد والقرف، عشان كده ما بيعديش يوم إلا لما أعمل فيه اللي يسبب لهم ذكرى حلوة يفتكروني بيها ويدعوا لي، ده اللي في أيدي أعمله والباقي على الله".

كانت تلك أول مرة أتمنى أن يتأخر نداء الممرضة علي لأظل بصحبة أم الكباتن أطول فترة ممكنة، وحين جاء دوري فقطع حكيها، مسكت نفسي بالعافية عن طلب رقم موبايلها لأطمئن عليها من حين لآخر وأتوأس بحكيها الساحر الذي ساعدني استحضاره وتأملته على مواجهة خوفي من الموت والتصالح مع النوم، فلعبت معي وبفاعلية أكبر دور الرجل نوراني الوجه، بالطبع تطلب الأمر أن أطمئن على حالة قلبي وأواظب على الدواء الذي ساعدني على التخلص من الجلطة، وأنظم في تضبيب الأكل وممارسة الرياضة، لتتضاءل نوبات خوفي المزعجة حتى تلاشت، لأقضي الدقائق الأخيرة قبل نومي مقتدياً بأم الكباتن فأأمل ما قمت به في يومي لكي يكون أفضل وأقل سوءاً لي ولمن أحب، ومفكراً فيما يجب أن أفعله للتغلب على مخاوفي الباقية من المرض وفقد الأحباب والبطالة وتدهور أحوال بلادنا أو بقائها على ما هي عليه.

قبل أسبوعين، قرأت بترشيح من صديق لحوج كتاباً بعنوان (فكر أقل في الموت) للكاتب الأمريكي ستيفن نادر، اعتمد فيه على أفكار الفيلسوف سبينوزا في التعامل مع الموت الذي سيقبل خوفنا منه ويكون أقل ضرراً كلما زادت

معرفتنا المتبصرة بأنفسنا وبما نرغب في فعله في الحياة، وكلما كان سعيها إلى الخير فقط لأنه خير دون أهداف أخرى، لأن الغبطة ليست جزاء الفضيلة، بل الفضيلة ذاتها هي الخير، ولأن الإنسان الحر حين يكرس حياته للبحث عن الخير والنفع العام، سيفكر في الموت بدرجة أقل، وسيقضي وقته في تأمل الحياة ومواجهة تحدياتها، وحين سألتني صديقي المنبهر بالكتاب عن رأيه فيه، لم أرغب في تخيب حماسه، وشكرته على الترشيح، وقلت له إنني كنت سأنبهر بالكتاب بنفس درجة انبهاره، لو لم أكن قد تعرفت على أم الكباتن، ثم حكيت له حكايتها التي رويتها لك الآن "من طقطع لسلامو عليكم".